دار القلم

محمد عفيفي





التفاحة والجمجمة

التفاحة والجمجمة

محمد عفيفي

التفاحة والجمجمة

الغلاف والرسومات بريشة الفنانة « سناء البيى »

١٩٦٥

دار القلم

الفصل الأول



أن الوقت قد حان لكى أدون قصتى ، قصة الأحداث المضحكة والفاجعة التى وقعت لى فى تلك الجزيرة الفذة ، وإن كنت أشك فى إمكان وصولها — قصتى — إلى أى إنسان . لأننى بعد أن أكتبها لن أقدمها إلى الناشر كما يفعل سائر كتاب القصص ، بل سوف أضع الأوراق فى كيس من النايلون ، ثم أضع الكيس فى جرة بدائية تشبه القلة ، ثم أسد تلك القلة سدا محكما ، وذلك توطئة لإلقاء القلة نفسها فى البحر العريض لتحملها أمواجه إلى حيث يشاء القدر . هذا بالطبع إذا أتيح لى أن أتم كتابة القصة نفسها قبل أن يفنى القلم الرصاص الذى أكتبها به ، وقبل أن ينفد الورق الذى أدونها عليه ، فهل تصدق أننى أكتبها على الظهور البيضاء لعدد

من الشيكات القديمة ؟ وبعد أن تمتلىء الظهور سوف أواصل الكتابة على الوجوه بين السطور المطبوعة التى تقول : ادفعوا لحامله مبلغاً وقدره ! وبعد ذلك سوف أكتب على كعوب الشيكات ثم على غلاف الدفتر ، تلك العملية التى تلزمنى أن أوجز فى بعض الأحيان أشد الإيجاز ، وهو ما سأفعله من فورى بصدد غرق السفينة التى كنت فوقها .

فى جوف الليل والناس نيام ، انفجار رهيب زلزل أركان السفينة ، ثم هرج ومرج وصراخ وعواء ، وعشرات من الناس يقفزون إلى البحر بالبيجامات والجلاليب وبعضهم نصف عرايا . لكننى لم أكن قط من الناس الذين يفقدون عقولهم ساعة الخطر . كنت وقتها — بسبب الحر — نائماً وحدى بالملابس الداخلية ، فأسرعت بارتداء بنطلون البيجامة . إذا كان لابد أن أغادر السفينة — قلت لنفسى — فجدير بى أن أغادرها بكرامتى . سواء كنت سأموت وأقابل الله أو أعيش وأقابل الناس فلماذا لا أكون فى الملابس اللائقة ؟ بالبنطلون والفانلة ذات الحمالات خرجت إلى سطح السفينة التى مالت على جنبها وأوشكت أن تغرق ، فوقفت لحظة أنظر إلى البحر الذى امتلأ بناس بعضهم يسبح وبعضهم يصرخ وبعضهم يغطس ويقب . لكننى لم ألق بنفسى بينهم ، طول عمرى أحب الوحدة حتى عندما أغرق . لذلك قصدت إلى ناحية بعيدة عن الناس

واعتليت سور السفينة ، وناظرا إلى السماء حيث يسطع القمر أخذت شهيقا عميقا ثم ألقيت بنفسى فى الماء . وهناك فقط تذكرت أمرا كان يجب أن أتذكره من قبل ، وهو أننى لا أعرف السباحة .

لحظة من الفزع الأسود حين تذكرت هذه الحقيقة وأنا أرتطم بالماء ، ثم وأنا أغطس تحته توطئة لأن أقب ، وأغطس مرة ثانية وأقب ، عالما أنه ما هى إلا عدة غطسات مماثلة ثم أغطس لكيلا أقب أبدا .

الماء سوف يتسلل إلى صدرى ويخنقنى ، ثم يهبط بى إلى القاع الغامض الرهيب ، وسط آلاف من الأسماك والكابوريات التى تصفق فرحاً بهذه الوليمة الفاخرة .

خيالات مزعجة قطعاً ولكنها لم تنجح هى الأخرى فى أن تفقدنى صفاء ذهنى . من ناحية تذكرت الاسم العلمى لهذه الميتة وهو الاسفكسيا ، ومن ناحية أخرى تذكرت المثل الذى يتحدث عن تعلق الغريق بالقشة فبدأت أضرب بذراعى هنا وهناك باحثاً عن القشة المذكورة .

عدة ضربات طائشة ثم وقعت يدى اليمنى على جسم غريب سرعان ما تشبثت به تشبث الشعرانة — إذا سمحت لى بهذا التشبيه — بجلد الحصان . ما هو هذا الجسم لم أعرف للوهلة الأولى ، لكننى عرفت

فى الوهلة الثانية أنه نوع من القماش . وهو قماش ملتصق بجسم بشرى ، وبناء عليه فهو ثوب يرتديه صاحب ذلك الجسم . وهو فيما يبدو واسع مبحبح ، إذن فهو إما جلابية على جسم رجل وإما فستان على جسم سيدة . وبما أنه ناعم كالحرير فأغلب الظن أنه فستان .

فبينما أنا أتخبط بين تلك الأفكار إذ أحسست يدا تمسك يدى وتحاول أن تنزعها عن الثوب ، لكن هى مين ؟ فلما يئست اليد من انتزاع يدى أحسست بها تهجم على رأسى ، تمسك شعرى بقوة وتجذبنى منه إلى أعلى . فبرزت على سطح الماء وأنا ألهث وأسعل ، وصوت أنثى قرع أذنى وهى تصرخ قائلة :

— امسك الخشبة ! امسك الخشبة !

خشبة كبيرة طافية بادرت إلى التعلق بها ، بجانب الأنثى التى كانت تتعلق بها قبلى ، والتى لا أدرى من أين حصلت عليها .

— عايز تغرقنى معاك ؟ صرخت فى غاضبة .

فأجبتها بموجة من السعال الذى به أطرد ما تسلل إلى صدرى من الماء .

— أصلى ، قلت وسط شهقاتى ، معرفش أعوم .

— يا فرحتى !

واصطدمت قدمى بقدمها تحت الماء فأسرعت بإبعادها تحشما منى ، إذ كنت دائماً جنتلمان . ورأيتها ترفع يدها إلى شعرها الذى ألصقه الماء بعينيها وكان شعرا ذهبياً ، أزاحته عن عينين واسعتين لمعتا فى ضوء القمر بنور بين أزرق وأخضر . حسناء رائعة الحسن وأكاد أقسم أننى أعرفها . نعم أعرفها ، رأيتها فى السفينة كثيراً بصحبة شاب طويل وسيم أسمر — آه ! عرفتها . هى الممثلة السينمائية عزيزة فهمى الشهيرة بزازا .

— حضرتك ، سألتها مستوثقاً ، زازا ؟

— أيوه ياسيدى ، أجابتنى بنبرة ساخرة ، وسيادتك ؟

— أحمد عبد الغفار ، مهندس سفن .

— تشرفنا ، أجابت ساخرة ، لازم انت اللى بانى السفينة دى !

فقهقهت ، طالما قرأت فى الصحف عن ذكاء زازا وحبها للتريقة . كذلك قرأت عن كثرة عشاقها من كل صنف ولون ، وحسدتهم وتمنيت — طالما أننى أتمنى المستحيل — أن أجدنى واحدا منهم . وهاهو ذا الغرق لم يمنعها من شقاوة الكلام ، فترى هل لا يمنعها أيضاً من سائر ضروب الشقاوة ؟ ؟

— أنا نسيت أقول لك متشكر .

— ياسيدى العفو . ده واجب علينا !

واعتمدت بذراعيها على الخشبة وأشرأبت إلى أعلى لتأخذ نفسا عميقا ، وكانت ذراعاها العاريتان بلون اللبن الحليب . إذن لم أتشبث

— حين تشبثت — بفستان وإنما بقميص نوم .

— الحمد لله أن الدنيا صيف ، قالت زازا .

— والقمر طالع كمان ، نبهتها .

قرص مستدير فضى ينظر إلينا بلا اكتراث ، أناس يغرقون في البحر — يقول لنفسه — مالى أنا ؟

— عارفه إحنا عاملين زى إيه فلم تجب سألتها .

فلم تجب .

فأجبت نفسى .

— زى نملتين بيغرقوا فى كباية مية .

— دى مفروض أنها نكتة ؟

— لأ ، دى فلسفة .

— طب خلى فلسفتك لروحك ، واضرب برجليك علشان الخشبة تمشى .

— انتى عندك فكرة الخشبه دى رايحه على فين ؟

— بايخة !

فقهقهت ثانياً وأحسست أننى سعيد .

— أنا مبسوط منك جداً ، أخطرتها ، لأنك موش خايفه .

— انت خايف ؟

— أبداً ، أنا حاسس إنى السندباد البحرى رايح مغامرة عجيبة . وعلى فكرة أنا سعيد جداً بأنى غرقت معاكى انتى .

فلم تجب . وسمعت صوت اصطكاك أسنانها ، مسكينة بدأت تبرد .

— تسمحى لى ؟ قلت لها وأنا أحيط كتفيها بذراعى .

حاولت أن تتخلص لكننى تشبثت بها .

— ده إجراء طبى محض ، شرحت لها مطمئنا .

وتوخيت فعلا أن تكون ضمتى لها ضمة طبية ، حضن رسمى لا يرمى إلى شىء سوى توزيع الحرارة بيننا بما يكفل لها الدفء وفقاً للقانون الثانى للديناميكا الحرارية . لم أسمح لها بأن تشعر بالثورة التى بدأت تزمجر فى أعماق وقد أحاط ذراعى بذلك الكيان الرائع . شفتاى قريبتان من خدها لكننى لن أحاول تقبيلها ، جنتلمان مثلى يستغل أننى غارقة ؟

ومن عنقها الفاتن كان ينبعث عطر مسكر لم تفلح مياه البحر فى إزالته .

— شانيل ؟ سألتها .

— أربيج ، أجابتنى .

وسرنى أنها تبتسم ، وناظر إلى بروفيلها الفاخر أدركت أننى واقع فى حبها لا محالة — إن لم أكن قد وقعت فعلا . لحظات من السعادة الغامرة وأنا أنهل من عطرها وأنظر إلى القمر الفضى الذى بدأ ينحدر بسرعة نحو الأفق ، فى حين بدأ يشيع فى السماء نور آخر هو نور الفجر المقترب .

— دفيت ، قالت وهى تتخلص من ذراعى .

— بسرعة كده ؟ سألتها لائما

فلم تجب ، ولا أدرى لماذا اتجه ذهنى إلى الشاب الأسمر الذى كان يصاحبها فى السفينة .

— مين الجدع اللى كان معاكى فى المركب ده ؟

— وده يهمك فى إيه ؟ سألتنى فى برود .

— مجرد فضول ، هو سر ؟

— ح يكون مين ؟ واحد .

— مالوش اسم ؟

— اسمه توتو ! قالت ضاحكة .

— توتو ؟ !

— سامع ؟ ! هتفت فجأة .

— سامع إيه ؟

— سمعت صوت طائر !

فأنصت وفعلا سمعت صرخت طائر رفرف بالقرب منا .

— نبقى قريبين م الأرض ، هتفت فرحة ، دايماً أشوف كده فى الأفلام !

ورحت أتلفت حولى باحثاً عن الأرض ، لكننى لم أر شيئاً فى ضوء الفجر الذى مازال شاحبا . كل شيء صامت حولنا ، أصمت بحر عاينته فى حياتى . وكان القمر قد انحدر إلى الأفق وغاص نصفه فى الماء ، شاحبا يغرق فى البحر مثلنا .

— يارب ! قالت زازاً فى ابتهال ، يارب !

دقائق من اللهفه اللاهثة ثم بدأ النور ينتشر فى السماء ويكسوها بلون أبيض جليل ، فالتفتنا خلفنا جهة الشرق ننتظر شروق الشمس . قوس صغير أحمر بلون الدم برز عند الأفق ، مثل شفة مخضبة بالروج لا مرأة أسطورية . ثم صار القوس نصف كرة أحمر ، ثم كرة كبيرة حمراء ، بالون خرافى رائع ، بطيخة هائلة نزع عنها قشرها . لاعجب أن القدماء عبدوها ، الشمس الخالدة التى تهبهم النور والدفء .

وعدنا نتلفت حولنا فسرعان ما هتفنا معا فى فرح وحشى : أرض ! أرض قريبة لا يفصلنا عنها إلا دقائق من السباحة

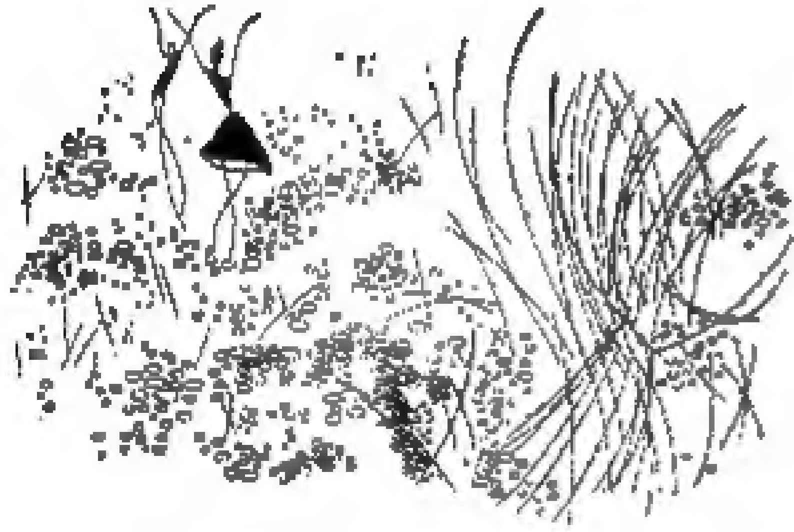
السريعة ، فما أسرع ما كنا نضرب الماء بأرجلنا المحمومة . دقائق من الكفاح ومن اللهفة المجنونة ثم ملمس الأرض تحت أقدامنا العارية ، أجمل ملمس فى الدنيا لو كنت تدرى ما هو الغرق . عليها تواثبنا وسط المياه الضحلة كأننا نرقص ، فلما صار الماء بارتفاع الركبة بدأنا نتعثر فيه ونترنح توطئة لأن نرتمى على الأرض ونحن نلهث ونلهث . أصابعى العشرة غرستها فى الرمال الرطبة الناعمة ، كبشتها وعصرتها فى شوق أليم . الأرض العزيزة ، أمنا الأرض .

وزاراً أراحت خدها على الرمال وهى تلهث ، شيئاً فشيئاً أخذت أنفاسها تهدأ . عيناها التقت بعينى فى نظرة طويلة صامتة ، نظرة التفاهم العميق بين اثنين ذاقا سويا طعم الموت والحياة . ودفء جميل نحسه فى جسمينا تحت أشعة الشمس التى تتسلق السماء من خلفنا . إذا كانت الأرض أمنا فالشمس أبونا ، بأشعتها فوق البنفسجية غرست بذرتنا فى أمنا الأرض .

— موش غريبة ، سألت صاحبتى ، إن الشمس مؤنثة فى اللغة العربية ؟

فتقلصت زاوية فمها اليسرى ، راحت تحدق فى حينا ثم تصعبت ، مجنون يحدثها فى هذا الظرف عن فقه اللغة ؟

ثم رأيت تباشير النوم فى عينيها ، ذبلت أجفانها وتقاربت ، وإلى هذه اللحظة لم أعرف هل هما — عيناها — زرقاوان أم خضراوان. فمددت يدى برفق وجذبت بها يدها المودعة على الرمال ، أدنيتها من شفتى وقبلتها فى حنان وامتنان . وأجفانى أنا الآخر ثقلت وانطبقت ، ما هى إلا لحظة حتى راح كلانا فى سبات عميق .



الفصل الثاني



ولا أدرى كم من الزمن مر ، ساعتين بالراحة بدليل الشمس التى ارتفعت فى السماء ، شمس الضحى الشابة الساطعة . شمس ساخنة لكنها لذيذة ، ونسمة لطيفة تهب من البحر الصامت . . أين زازا ؟

تلفت يميناً وشمالا فرأيت شاطئاً رملياً يمتد قليلا ثم ينعطف ويستدير كأنى جالس على رأس جزيرة . ثم نظرت ورائى فرأيت جذعا هائلا لشجرة مقطوعة وراقدة على الأرض ، كتلة ضخمة من الخشب نزعت عنها كافة الغصون والأوراق ، وبجانب الجذع على الرمال أداة صخرية مسننة تشبه المنشار ، وفوقه طرفه قميص حريمى

وردى اللون ، قميص زازا الذى لابد أنها نشرته هناك لكى يجف ، فأين هى بدونه ؟

— زازا ، ناديت مستطلعاً .

— خليك عندك ! أتانى صوتها من وراء جذع الشجرة محذرا ، إوع تيجى هنا ! أنا بانشف هدومى .

فحدثتنى النفس الشقية — مع ضربة قلب جامحة — بأن أنهض لأفاجئها لكننى قلت لنفسى عيب ياواد .

— كويس انك صحيت ، قال لى صوتها ، عشان تمسك لى المراية !

ومن فوق جذع الشجرة برز رأس زازا دون سائر جسمها ، وكان فى يدها مشط تسرح به شعرها الذى كان بلون الذهب .

— ماتيجى !

فنهضت وقصدت إلى جذع الشجرة ، نظرت عبره إلى عينيها فاكتشفت أنهما لاخضراوان ولا زرقاوان. مزيج نادر من اللونين ، كأنى أنظر فى بحيرة عميقة صافية . وأنف سوى مدبب كأنما نحت من العاج ، وشفتان ورديتان دسمتان طوبى لمن التقت بهما شفتاه .

ومن وراء الجذع مدت بالمرآة الصغيرة ذراعا بيضاء عارية ، فتناولتها وثبتها على الجذع أمام عينيها . وهنا تنبهت إلى أن هناك شيئاً غريباً .

— جبتى المراية دى منين ؟ ! سألتها فى دهشة .

— مرايتى ! قالت ببساطة .

— والمشط ؟

— مشطى !

— جايباهم معاكى م المركب ؟

— طبعاً ! أنا مجنونة انط فى البحر من غير مراية ومشط ؟ !

وتركت المشط لكى ترشق فى شعرها بنسة ، وابتسمت فارتسمت على خدها غمازتان رائعتان .

— وبنس كمان ؟ ! سألتها .

— وقلم روج !

— وازاى ماغرقوش ؟

— جايباهم فى كيس نايلون !

— والله عال ، ما كنتى تجيبى التسريحة نفسها !

— ماتهزش المراية !

وانتهت من تسريح شعرها فانخفضت وراء الشجرة واختفت ، ثم ارتفعت وفى يدها قلم الروج الذى راحت تطلى به شفتيها .

— تصور أن الجزيرة دى كلها ماتجيش فدان ؟ قالت زازا .

— جزيرة ؟ ! إحنا فى جزيرة ؟

فلم تجب من فورها ، مشغولة بلحس شفتها السفلى .

— آه ، قالت أخيراً ، مافيهاش مخلوق غيرنا .

— ياخبر اسود !

— اسود ليه ؟

— قصدى أبيض ، غلطت فى اللون . وحدنا خالص ؟

— إحنا وشوية ميتين !

— ميتين ؟ !

— آه ، ميتين من زمان قوى . مافيش غير عضمهم ويظهر كان فيهم واحدة ست .

— وعرفتى منين انها ست ؟

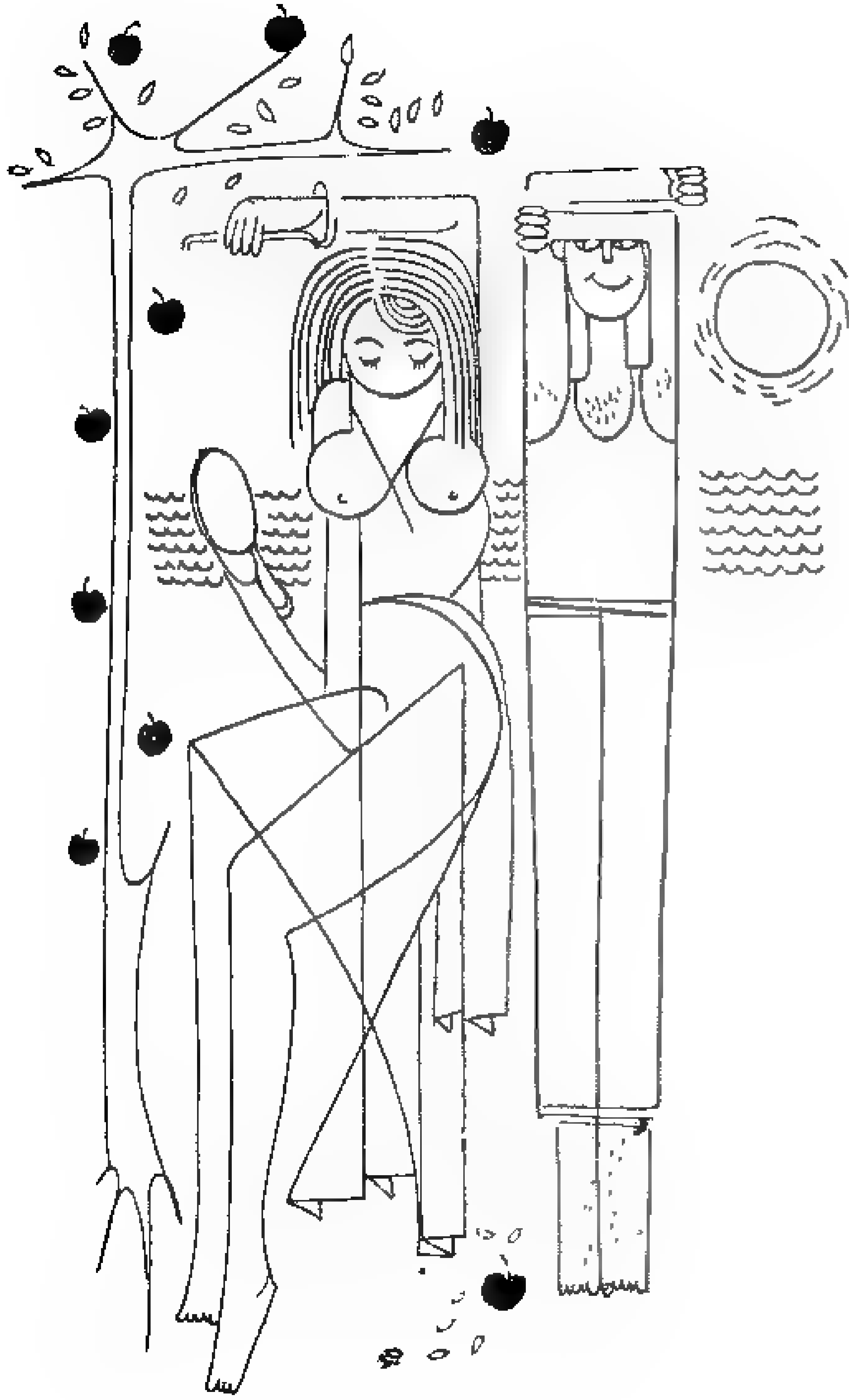
— لقيت غويشتها ، حتى آهه !

ولوحت لى بساعدها الأيسر الذى تحيط به غويشة بيضاء من العاج .

— تلبسى غويشة واحدة ميتة ؟ !

— بأقول لك ميتة من زمان قوى ، وماتهزش المراية كده !

فتصعبت ولم أدر ماذا أقول لهذه الأنثى اللامعقولة . وسرح بصرى عنها إلى الجزيرة حولنا ، كانت فعلا لا يمكن أن تزيد عن فدان . رقعة أرض مستديرة يحيط بها البحر من كل الجهات ، لا أثر للحياة فيها إلا شجرة بعيدة وكوخ من الخشب .



— رحتى العشه دى ؟

— آه ، فاضية .

وكانت قد أتمت زينتها فسحبت قيصها واختفت به وراء جذع الشجرة ، ذراعاها ارتفعتا وهى تدخلهما فى القميص . ثم نهضت ودارت حول جذع الشجرة ، برزت أمامى فى القميص الوردى الشفاف ، باسمة تسير على مهل وقد عقدت يديها وراء ظهرها ، منظر كان محتوما أن يبدو أثره على وجهى .

— ما لك فاتح بقك كده ؟! سألتنى بخبث .

فأقفلت المذكور وأنا أبتلع ريقى .

— ممكن أعرف ، سألتها ، كنتى خايفه أشوفك من غير القميص ده ليه ؟!

فضحكت وسوت بيدها شعرها ، ومن يدها الأخرى تدلى كيس النايلون الذى يحتوى على أدوات الزينة .

— تعالى بقى اما افرجك على المبتين ! قالت بمرح .

وسارت فسرت وراءها متعثرا فى نبضات قلبى ، أمامى فيما يبدو مستقبل رائع إلى درجة أنه رهيب .

— ألذ تفاح عمرى دقته ، قالت وهى تشير إلى الشجرة .

كتلة رائعة من الخضرة المزينة ببقع التفاح الأحمر ، كأنها شجرة الكريسماس . والشجرة بجانب الكوخ الخشبى الذى كان

بابه مفتوحا ، من خلاله رأيت مايشبه سريرا واطئا من الخشب ، وبعض الأوعية المنحوتة من الخشب . وبالقرب من الكوخ عين مياه ، وبجوارها تلك الجرة التى حدثتك عنها من قبل .

— دى مية حلوة ؟ سألتها .

— زى العسل !

— غريبة ان جزيرة صغيرة كده فيها مية حلوة .

— ليه ؟

— وغريبه كمان ان التفاح يطرح فى الصيف .

— إنت كل حاجة عندك غريبة ؟ يمكن تفاح صيفى !

ودرنا حول الكوخ ورأيت العظام التى تحدثت عنها زازا ، وأبرز ما فيها جمجمة كبيرة مقلوبة على وجهها . وحولها تنتشر تشكيلة غريبة من العظام ، عظمة ساق طويلة وأخرى قصيرة، وجزء من قفص صدرى ، وعظمتان قد تكونان من الذراع ، وعدد من الأصابع . عسير على الإنسان أن يحاول تركيبها فى شخص واحد ، فلا بد أنه كان يوجد فى هذه الجزيرة أكثر من شخص ماتوا وتبعثرت على مر الزمان عظامهم .

— نفسى أعدل الجمجمة المقلوبة دى ! قالت زازا فى إشفاق .

— ليه بقى ؟

— موش عجباني مناخيرها اللي في الرمل !

— هي الجمجمة ح تتنفس ؟

وانحنت زازا ومدت إلى الجمجمة يداً مترددة ، ثم قلبتها بسرعة لكي تواجهنا بابتسامة الموت الرهيبة ، ومكان العينين فجوتان تنبعث منهما رائحة الفناء .

— يا ساتر يا رب ! أعوذ بالله ! قلت أنا .

— والنبي دمها خفيف ! قالت زازا ، ياترى كان راجل ولا ست؟

— وإيه أهميتها بعد الموت ؟ هو الموت فيه دكر وتتاية ؟

— غالباً كان راجل ، جمجمة كبيرة قوى .

— طيب يالله بينا من هنا ، أنا بدني قشعر !

وابتعدنا وهي تضحك من فزعي ، وقصدت زازا إلى شجرة التفاح فشبت على قدميها وقطفت تفاحتين .

— اشقط ! قالت وقذفت إلى بواحدة .

— عمري ماشفت شجرة تفاح واطية كده ، قلت لها وأنا آكل .

وكانت تفاحة كالشهد ، أكلتها وأنا أتلفت حولي إلى البحر العريض الصامت الذي يحاصر الجزيرة من كل جهة . لاأثر للأرض في أي مكان ، أفق واحد مستدير يحيط بنا إحاطة السوار بمعصم زازا .

— إياك تفوت مركب وتشوفنا ، قلت راجيا .

— إيه ، السندباد زهق قوام ؟ داحنا مابقالناش ساعتين .

فتذكرت ساعتي ونظرت إليها فخفق قلبي . شيء غريب يجرى في ساعتي ، شيء غريب جداً . عقرب الثواني يجرى على الميناء بسرعة فذة كأنه مكوك لا عقرب ، وعقرب الدقائق يلاحقه بالسرعة التي كان يجب أن يسير بها عقرب الثواني ، وعقرب الساعات قفز تحت بصري فجأة من الساعة الرابعة إلى الخامسة ! فلما رفعتها إلى أذني سمعتها تئز أكثر منها تدق .

— زازا ! هتفت في ذهول ، ساعتي اتجننت !

ووضعت الساعة أمام عينيها ، تفحصتها لحظة ، ثم هزت كتفها .

— لازم المية خسرتها ، قالت باستخفاف .

— وماوقفتش ليه ؟

فقلبت شفتها السفلى وهزت كتفها من جديد .

— معقول تكون الساعة خمسة ؟ سألتها .

— ياأخي خسرت ، أجابت في ملل .

— معاكي ساعة ؟

— أعمل بها ايه ؟ تسمح تناولني تفاحة ؟

فنهضت ومددت يدي إلى تفاحة كبيرة حمراء تتدلى من الغصن نفسه مع تفاحة صغيرة خضراء .

— بقى لك أد إيه ما حلقتش دقنك ؟ سألتنى زازا وهى تمضغ .

— دقنى ؟

— آه ، طويلة قوى .

فرفعت يدى لأتحسس لحيتى ، ولشد ما كانت دهشتى عندما لمست تلك الغابة الكثيفة من الشعر .

— موش معقول ! دنا لسه حالقها امبارح !

— امبارح ؟ دى بتاعة جمعة على الأقل . شوف ؟

وناولتنى المرآة التى نظرت فيها فهالنى ما رأيت ، اللحية النامية والشعر الطويل المنكوش والمنظر الذى يسم البدن .

— الحقينى بالمشط !

فناولتنى إياه ورحت أعمله فى شعرى وأنا أعجب كيف طال بهذه السرعة المذهلة .

— وضوافرك كمان عايزة تتقص ، قالت زازا ، إنت مهمل فى روحك قوى .

فنظرت إلى أظافرى ، وهالنى أن أجدها هى الأخرى أشبه بالمخالب .

— والله لسه قاصصها من يومين ! هتفت فى ارتباك .

— طب ناولنى كمان تفاحة .

فنهضت لأقطف التفاحة لكننى لم أقطفها ، ووقفت أنظر إلى الشجرة فى ذهول .

— الشجرة دى رخره مجنونه !

— بتخرف تقول ايه ؟

— تصورى ان التفاحة اللى كانت صغيرة وخضرة بقت كبيرة وحمرة ؟!

وحكيت لها الحكاية فهزت كتفها .

— لازم شفت تفاحة تانية .

— أبدا والله ، هى بعينها .

— طب بلاش دوشة وناولها لى .

فناولتها إياها ، راحت تأكل منها وهى ترمقنى فى استنكار .

— إنت دايماً كده ؟

— دايماً إيه ؟

— دايماً تاعب نفسك ؟ تشوف حاجات غريبة وتقول كلام غريب ؟ حتى فى البحر تقول لى ان الشمس أبصر إيه مؤنثة ؟ انت إيه !

وابتسمت أجمل ابتسامة بين أجمل غمازتين ، فأدركت فجأة أننى مجنون حقاً حتى أضيع الوقت فى الكلام الفارغ . وتناولت زازا الجرة الشبيهة بالقلة ، رفعتها لتشرب منها وخيوط الماء تسيل على عنقها الأبيض وتتسلل إلى صدرها . منذ حين — حيث نمنا على

الرمال — تناولت يدها وقبلتها فلم تعترض ، يجب فعلا أن أكف عن ملاحظاتى وأفكارى الغريبة .

— عارفة إحنا عاملين زى إيه ؟ سألتها .

— إيه ؟

— زى اتنين فى صورة كاريكاتير . . المركب اللى غرقت ، والجزيرة الصغيرة فى وسط البحر ، وولد وبنت وحدهم . .

فابتسمت زازا ورفعت يدها لتمسح الماء عن عنقها ، ثم أسندت ظهرها إلى جذع الشجرة وراحت تنظر إلى طويلا ، مازالت تبتسم . متكئة براحتيها على الرمال ، رأسها مال على كتفها وهى تنظر إلى وتبتسم ، عيناها بحيرتان صافيتان فيهما نظرة نداء .

فركعت بجانبها خافق القلب ، أدنيت وجهى من وجهها وملأت صدرى من عبيرها .

— قلتى شانيل ؟ سألتها هامسا .

— قلت اربيج ، أجابتنى باسمة .

فطبعت قبلة صغيرة على شعرها لم تعترض . فمددت يداً مرتعدة ألمس بها كتفها العاجية ، ويداً ثانية إلى الكتف الأخرى ، هممت بأن أضمها إلى صدرى . لكننى لم أفعل . كيف أفعل وقد وقع بصرى فجأة على ذلك المنظر الغريب ، منظر الرأس البشرية التى أطلت فى حذر من وراء الكوخ القريب متلصصة علينا ؟

الفصل الثالث



الفزع للوهلة الأولى أنه عفريت يسكن الجزيرة ، أو أنه صاحب الجمجمة وقد دبت فيه الحياة فجأة ، ثم اتضح لى أنه لا هذا ولا ذاك . إذ برز من وراء الكوخ فعرفت فيه الشاب الأسمر الذى كان مصاحباً لزازا على السفينة ، توتو إذا ارتضينا هذا الاسم ، الشاب طويل عريض برنزى اللون ، مفتول العضل فى رشاقة تؤهله لبطولة كمال الأجسام . وجهه وسيم وشعره أسود فاحم ، والماء يقطر من جسمه بما يدل على أنه قد خرج لتوه من البحر . لباسه الوحيد مايوه عادى أسود ، فهل كان ينام بالمايوه ساعة غرق السفينة ، أم تراه قد ارتداه لزوم سباحة المسافات الطويلة ليجمع بين الغرق والرياضة ؟ لاشك أنه وغد إذ اختار هذه اللحظة

ليطلع لى من البحر ، أنا الذى كنت على وشك أن أطبع قبلتى الأولى على خد زازا . فلعلك تعذرنى إذا أحسست بالبغض الشديد له ، وأسفت من أعماق على أنى لا أملك مسدسا أقتله به

لكن شعور زازا كان مختلفاً عن شعورى ، ما كادت تلتفت وتراه حتى نهضت كالمجنونة تجرى نحوه .

— توتو ! هتفت فى فرح ، توتو ! توتو !

وألقت ذراعيها حول عنقه وتعلقت به تقبله .

— أنا افتكرتك غرقت يا توتو ، سلامتك ياحبيبى ! .

فراح يطبطب على ظهرها مطمئنا إياها على سلامته ، ومن فوق كتفها انفغر فمه عن ابتسامة عريضة لمعت خلالها أسنان قوية بيضاء .

— تزاتزا ! تزاتزا ! تزاتزا !

هذا كل ما علق به على ترحيبها به ، بصوت تينور عميق يوحى بالثقة بالنفس .

— إنت لسه طالع م البحر دلوقت ؟ سألته .

— تزاتزا ! أجابها .

— لازم تعبان قوى يا مسكين .

— تزاتزا !

— ماتقعد ترتاح ؟

— تزاتزا !

أهذه هى الكلمة الوحيدة التى يعرفها ذلك الوغد ؟

— تعال أما اعرفكو ببعض ، قالت له زازا .

وجذبته نحوى وأقبل يصافحنى ، دقيقة كاملة وهو يعصر يدى يكاد يفعصها ، ويهز ذراعى يكاد يخلعها ، ويبتسم طبعاً .

— هو ما بيعرفش يتكلم ؟ سألت زازا .

— بيعرف طبعاً ، بس لغة معرفهاش .

— هو جنسيته إيه ؟

— ما قالليش ، وأنا يهمنى إيه من جنسيته ؟

وطبطبت على صدره فقال تزاتزا ، كأنه عروسة من عرائس الأطفال التى تضغط عليها فتقول ماما .

— جربتى تكلميه انجليزى ؟ سألتها .

— وفرنساوى ، مافيش فايدة .

— إمال عرفتى منين أن اسمه توتو ؟

— أنا اللى سميته كده !

— يعنى مابتتكلموش خالص ؟

— وتتكلم ليه ؟

— بتحبيه كتيمى ؟

— لو تعرفه زيي كنت تلاقى مفيش لزوم للكلام ! أجيب لك تفاحه ياتوتو ؟

ومدت يدها إلى الشجرة فقطفت له تفاحة لم تأخذ منه ـ والله ـ سوى قضمة واحدة . وفى دقيقة لاغير كان قد التهم سبع تفاحات دون أن يبصق منها بذرة . ثم رأى الجرة فرفعها إلى فمه وراح يجرع لم يتركها إلا خالية . ثم تكرع ومد يده ليقطف التفاحة الثامنة .

— يا عينى ، قالت زازا ، ده جعان بشكل !

— بالسم إن شاء الله ! قلت أنا .

وبينما هو يرفع يده نحو التفاحة التاسعة لاحظت للمرة الأولى أن فى معصمه ساعة فسرعان ما كنت أقترب منه .

— قولى له يورينى ساعته ، قلت لزازا .

— هات إيدك ياتوتو .

— تزاتزا !

وناولتنى معصمه لكى أنظر فى ساعته ، ويبدو أنها كانت هى الأخرى ووتر بروف ولذلك لم تتوقف ، لكنها كانت تدور بنفس سرعة ساعتى . عقرب الثوانى يجرى بسرعة كالمكوك ، وعقرب الدقائق يلهث وراءه لكى يلاحقه .

— شايفة ساعته ؟ هى كمان اتجننت !

فنظرت إليها ولم تزد على أن هزت كتفها كما فعلت من قبل .

— خسرت زى ساعتك ، قالت فى استخفاف .

— وفيه حاجة تانية غريبة ، ساعته مضبوطة على ساعتى ، الاتنين ستة ونص وخمسة . بص كده ياسى توتو ؟

وأدنيت الساعة من عينيه فراح يحملق إليها حيناً فى بلاهة ثم ابتسم .

— تزاتزا ! قال توتو .

— موش شايف فيها حاجة غريبة ؟ سألته فى غيظ .

فنظر إلى زازا حائراً .

— ماتاخدش بالك منه ، قالت له زازا ، أصله تعبان شوية . تيجى أفرجك على الجزيرة ؟

وجذبته من ذراعه فلم ينجذب ، بل جلس على الأرض ودعاها إلى الجلوس بجانبه فجلست ، ذراعه امتدت وأحاطت بكتفها فلم تعترض ، بل مدت بوزها — السافلة — إلى خده الأسمر وقبلته .

— إيه قلة الحيا دى ؟! صرخت فيها ثائراً .

— شىء بارد ! أجابتنى وهى تنظر إلى من فوق لتحت ، إنت مالك ؟

— يعنى إيه أنا مالى ؟

— انت جوزى ؟ أبويا ؟ لك حقوق على ؟ !

— لأ ، أجبتها فى كبرياء ، بس من شوية كنت أنا اللى بابوسك !

فلم تجبنى ، وابتسمت له وقبلته ثانياً . فملك تعذرنى إذا بدأت أغلى من جديد ، كل خلية فى جسمى تهيب بى أن أهجم عليه وألقى به إلى البحر الذى طلع منه ، لكننى كنت دائماً حكيما . نظرت إلى طوله وعرضه وعضلاته وأدركت أن الهجوم على ثور كهذا لايخرج عن كونه عملية انتحارية محضة .

ويبدو أن الوغد قرأ خواطرى ، إذ فتح جيباً فى المايوه وأخرج منه خنجراً لامعاً من النحاس الأصفر ، بسط راحة يده وراح يسنه عليها وهو يرمقنى بابتسامة صفراء . خنجر جميل مزين بالنقوش ، حلية تصلح للمتاحف لكنها تصلح للقتل أيضاً . فاكتفيت — أنا الحكيم — بأن نظرت إليه فى ازدراء ثم أوليته ظهرى وواجهت البحر .

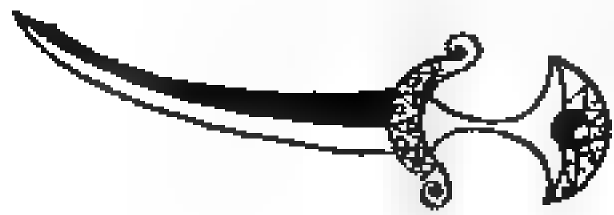
— قوم أفرجك ع الجزيرة قوم ، أتانى صوت زازا .

يبدو أنها قد خشيت وقوع الصدام بيننا فآثرت أن تسحبه من هنا ، ترى هل خافت على ؟ والتفت لأراهما ينهضان ويبتعدان وهى تتأبط ذراعه ، تابعتهما بنظرة تقطر مرارة وحسداً . ضاعت

منى زازا ، اللقمة الطرية اللذيذة خطفها الوغد من فى خطفاً .

حزيناً جريحاً جلست تحت شجرة التفاح ، لكن الحزن — مثل الخوف والغضب — لم يكن من شأنه قط أن يفقدنى صفاء ذهنى . رفعت بصرى إلى الشجرة وقلت لنفسى يجب أن أكتشف سرها . سوف أثبت عينى على هذه التفاحة الصغيرة الخضراء ، ولا أرفعها عنها حتى أستوثق من أنها لن تتحول — كما خيل إلى من قبل — إلى تفاحة كبيرة حمراء .

فاستلقيت على ظهرى عاقداً يدى تحت رأسى ، ورحت أرقب التفاحة . هى مازالت صغيرة خضراء لم يطرأ عليها تغيير ، لكن شيئاً طرأ على أنا . وجدتنى أتثاءب وقد حل بى تعب مفاجىء ، وجفونى ثقلت وبدا من أمرى أنى سأنام . أليس غريباً أن يدهمنى النوم وأنا الذى محروم من ساعتين على الأكثر ؟ بصعوبة شديدة نزعت يدى من تحت رأسى ومددتها إلى التفاحة ، بظفرى أحدثت بها شقاً صغيراً أعلمها به ، ثم تثاءبت واستسلمت للنوم .



الفصل الرابع



وفى أنفى رائحة نار ودخان وشىء يشوى ، ومن خلال عين نعسانة رأيت كومة من الأخشاب المشتعلة وفوقها عدد من الأسماك التى يقلبها توتو بسن خنجره اللامع . فلما أحس بنظراتى إليه بادلنى إياها وهو — عليه اللعنة — يبتسم . فجلست أتلفت حولى وأنظر إلى الشمس التى مالت إلى الأفق الغربى ، نمت إذن قرابة ساعتين . وبالنظر إلى ساعة يدى وجدتها ما برحت تدور كالمجنونة ، وقفز عقرب الساعات فجأة ليسجل الساعة الثانية عشرة !

جذبنى صوت زازا وهى مقبلة من ناحية البئر بالجرة التى ملأتها ، تهتز فى يدها وهى تسير فتتساقط قطرات الماء على الرمال .

— السمك ده منين ؟ سألتها مستفسراً .

— البركة ف توتو ! قالت فى فخر .

— تزاتزا ! قال المذكور .

— هو اللى اصطاده ؟

— وهو اللى ولع النار ربنا يخليه !

وشرحت لى كيف وقف فى البحر ساعة يصيد بخنجره هذا السمك ، ثم انتزع قطعة من جذع الشجرة المقطوع وراح يحكها بالخنجر حتى اشتعلت ، ثم جلس ليعد هذه الوليمة الفاخرة .

— كل ده وحضرتك نايم تشخر ! اختتمت كلامها ساخرة .

فزغرت لها ولم أجب ، فى حين جلست هى رافعة مرآتها الصغيرة أمام وجهها .

— ده كل اللى عمله وأنا نايم ؟ سألتها فى ريبة .

— اللاه ! هتفت متجاهلة ، ريحة السمك حلوة بشكل !

وكانت رائحته شهية حقاً ، ترى هل يجود اللعين على بسمكة ؟

— باقولك الراجل ده كله فوايد،قالت زازا ، مش كده ياتوتو ؟

— تزاتزا ! أجابها باسماً .

— نا كل سمك ونحلى بتفاح ، أضافت ، فيه حاجة ألذ من كده ؟

وذكرت التفاحة التى علمتها فرفعت بصرى إليها ، وما توقعت أن أراه رأيته . التفاحة الصغيرة الخضراء قد تحولت خلال نومى

إلى تفاحة كبيرة حمراء ، وعلى قشرتها نفس الشق الذى أحدثته بظفرى . وبالتداعى نظرت إلى أظافرى فتأكدت أنهـــا طالت بدرجة مذهلة .

— تسمحى لى بالمراية ؟

فناولتنى إياها ورفعتها أمام وجهى فـكدت أصعق . لحيتى غابة كثيفة ، وشعرى متهدل كأننى لم أحلقه منذ شهور ، وفيه نسبة من الشيب لا أذكر أنها كانت هناك من قبل ، أكاد أقسم وأنا أتأمل وجهى أننى قد كبرت سنتين .

— خدى ! قلت لهـا وأنا أعطيها المرآة ، إوعى تخلينى ابص فيهـا تانى !

ونظرت إلى توتو فلاحظت أمراً فاتنى ، لحيته هو الآخر قد نمت مع أنه لم يكن فيها حين برز من البحر شعرة واحدة . كانت الساعتان كافيتين لـكى تطول لحيته ، كما وقع لى فى أول ساعتين لى فى الجزيرة .

— زازا ، قلت لها يائساً ، الجزيرة دى مسحورة !

— والله ؟ سألتنى فى سخرية .

— والله مسحورة ! بصى لدقنى وشعرى وضوافرى ، وبصى لدقنه وشعره وضوافره .

فنقلت النظر بيننا حينا ثم هزت كتفها .

— كل الدقون وكل الشعور وكل الضوافر دايماً تطول .

— بالسرعة دى ؟

فقلبت شفتها فى غير احتفال .

— طب والتفاحة دى ؟

وحكيت لها حكاية التفاحة التى علمتها فلم تترها بدورها .

— لازم علمت تفاحه كبيرة وانت مش واخد بالك .

فيئست من إقناعها ، ونظرت إلى ساعتى لـكى أرى عقرب الساعات وهو يقفز من الثانية عشرة إلى الواحدة .

— يا حلاوة ! هتفت زازا ، السمك استوى .

وتركت المرآة وخفت إلى السمك الذى بدأ توتو يغرس فيه سن الخنجر ليرفعه من على النار ، ويودعه على فرشة من ورق الشجر كان قد أعدها لذلك . فمدت زازا يدها إلى السمك ثم جذبتها سريعاً وهى تطرقع أصابعها متأوهة ، فى حين أطبق الوغد على أكبر الأسماك وراح يمزقها بسهولة كأنها خارجة من الثلاجة .

— ماتيجى تاكل ، قالت زازا ، مستنى عزومة ؟

فهززت رأسى ناظرا إليها فى كبرياء .

— موش أنا اللى أبيع كرامتى بأكلة سمك !

— إنت حر ، توفر .

لكن توتو لم يفهم المسألة على أنها كرامة ، إذ رأيته ينتقى سمكة كبيرة ويضعها وحدها فى ناحية ، مشيراً إليها وإلى بما معناه إنها سمكتى آكلها حين أجوع ، فأصارحك القول بأنها كانت لفتة جعلتنى أبدأ فى مراجعة مشاعرى نحوه . هو عمل واجتهد وتعب وأنا نائم ، فماذا يجبره الآن على أن يختصنى بهذه السمكة الكبيرة ؟ فرحت أرقبه وهو يلتهم السمك وخيل إلى أننى لم أعد أبغضه ، بل خيل إلى مدى لحظة أنى قد بدأت أميل إليه . ماذنبه إذا كان قد عرف زازا قبل أن أعرفها أنا ؟

— أما سمك ! هتفت زازا وهى تمضغ .

لكننى لن آكل سمكتى الآن ، سأنتظر حتى أنفرد ثم آكلها .

دقائق قليلة وكان توتو قد أتى على السمكة الثانية فنهض وقصد البحر ليغسل يديه ، ثم قصد إلى شجرة التفاح وبدأ يقطف وينهش . عسى أن تكون هذه الشجرة مطابقة لفكرتى عنها فى سرعة النماء وإلا فما هو إلا يوم آخر ونجد أنفسنا بلا تفاح ، ويصبح اعتمادنا كاملا على السمك الذى يصطاده هو . فلما رآنى أراقبه تبسم ثم تجشأ ، ثم جلس على الأرض مسندا ظهره إلى جذع الشجرة . ثم انفغر فمه كالكهف وهو يتثاءب ، ورأيت عينيه حمراوين خلال جفونه التى

بدأت تثقل ، فى حين مال رأسه على صدره مرتين . ثم مال هو نفسه على جنبه واستلقى على الأرض ، ورأيته يمد يده إلى جيبه ليتحسس الخنجر ، توطئة لأن ينقلب على الجنب الآخر ليجعل الخنجر محصوراً بينه وبين الأرض ، مازال الخبيث يشك فى نواياى . وما هى إلا لحظة حتى رددت شخيره أرجاء الجزيرة ، فلن يكون عجيباً لو أنه لفت إلينا أسماع سفينة عابرة .

— انت ح تاكل سمكتك ولا آكلها أنا ؟ سألتنى زازا منذرة .

— لا ياشيخة ! والنبى ؟

وهجمت على السمكة أنهشها لحماً وجلداً وتقريباً شوكاً .

— إمال كرامتك راحت فين ؟ سألتنى ساخرة .

— السمك ما يتعارضش مع الكرامة لما يكون مشوى ! قلت لها وأنا أنهش .

فضحكت زازا وأسعدتنى ضحكتها .

وبينما أمضغ وأبلع رأيتها تنظر إلى طويلا وهى تبتسم .

— انت منغاظ قوى من توتو ؟ سألتنى بعد حين باسمة .

— ده وقت يطلع لى فيه ابن الكلب ؟ ! سألتها وأنا أخرج شوكة من أسنانى .

— معلهش ، قالت زازا بمكر ، أنا أصالحكم على بعض .

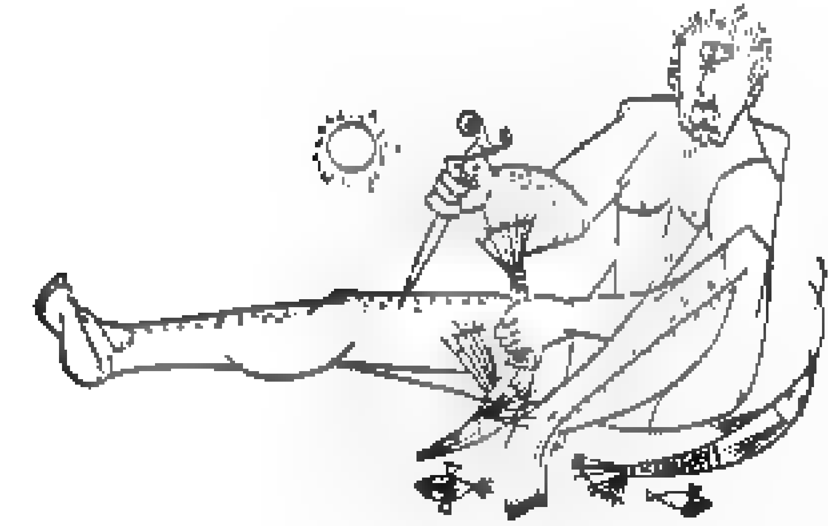
ثم تثاءبت ورفعت ذراعيها تتمطى .

— آح ! الأكل خلى النوم يكبس على .

وتثاءبت ثانية وانطرحت على جنبها ، ضمت ركبتيها إلى بطنها وعقدت ذراعيها على صدرها ، تكورت كقطة صغيرة نائمة .

فما هى إلا دقيقة حتى انتظمت أنفاسها وانفغر فمها فى بلاهة النوم.

فلآكل سمكتى ، آه لو كان معها رغيف وحبة ملح وصحن طرشى!



الفصل الخامس



من السمكة فاتجهت عينى إلى زازا النائمة وراحت تتفسح هناك ، الكيان الرائع الذى كان يمكن أن أحوزه لولا ذلك الوغد النائم تحت الشجرة . زازا تتنفس فيرتفع القميص الوردى على صدرها ثم يهبط فى إيقاع فاتن ، وشعرها المبعثر على الرمال خيوط من ذهب . والشمس وراءها قد انحدرت نحو الأفق البعيد وصبغته بحمرة الشفق ، التقى الشفق بقميص زازا فى مزيج من الحمرة الخالدة .

المرآة ملقاة بجانبها لكننى لن أقربها ، صورتى التى رأيتها فيها شيء لا يطاق . لماذا تطرأ تلك التغييرات على أنا وتوتو ، فى حين تظل زازا كعهدها ؟ لماذا لم يطل شعرها أو أظافرها مثلنا ؟ أنى

أريد أن أرتب أفكاري ، وهي لن تترتب طالما أنا أنظر إلى زازا النائمة ، فلأقم من هنا .

قمت أتمشى فى الجزيرة وأفكر . أتكون هذه الجزيرة ـ تساءلت ـ مسحورة حقاً كما قلت لزازا ؟ فمتى كانت توجد الجزر المسحورة خارج حواديت ألف ليلة ؟ ومع ذلك فالساعات فيها تجرى بسرعة فذة كأنها تسابق الزمن ، واللحى والشعر والأظافر تنمو بجنون ، والتفاحة الصغيرة الخضراء تصبح فى ساعتين كبيرة حمراء . كل شىء يجرى بسرعة مذهلة ، فهل يمكن أن يكون لهذه الجزيرة ـ لسبب ما ـ زمنها الخاص بها وحدها ؟ أشياء كهذه قرأت عن احتمال حدوثها فى كوكب آخر غير كوكبنا ؟ فهل يمكن أن يختلف زمن جزيرة واحدة عن زمن سائر الجزر فى كوكب واحد ؟

وصلت فى تجوالى إلى جذع الشجرة الراقد على الأرض وبجانبه المنشار الصخرى . أناس عاشوا هنا وقطعوا هذه الشجرة ، فلماذا قطعوها ؟ وعلى السطح العلوى للجذع آثار لأدوات بدائية عملت فيه بالحفر والنحت ، فماذا كان أولئك الناس يقصدون ؟ هل كانوا ـ مثلا ـ يحاولون تفريغ جذع الشجرة وتحويله إلى زورق كبير ؟ إذا كان هذا هدفهم فلماذا بدأت عمليات النحت ثم توقفت ؟

واتجه ذهنى إلى العظام وراء الكوخ فسرعان ما كنت أقصد

نحوها ، شىء ما فى قبحها الرهيب يجذبنى إليها . وهناك واجهتنى الجمجمة وقد انفغر فمها بابتسامة الموت المفزعة . ترى من كان صاحب تلك الجمجمة ، وهل هو الذى وقف يوما يعمل تلك الأدوات الصخرية فى جذع الشجرة ؟ وما هذا الشق فى أعلى الجمجمة ؟ هل تلقى الرجل قبل أن يموت ضربة قاتلة ؟

رعدة سرت فى بدنى فابتعدت عن المكان ، قصدت إلى موضعى الأول ورحت أرقب الرجل والمرأة النائمين . هنا لحم ودم وحياة ، خاصة تحت هذا القميص الوردى . أمعقول أن الغويشة التى أخذتها زازا كانت لأنثى مليئة بالحياة مثلها ، رفعت بالغويشة يدها لكى تسوى شعرها وفى عينيها نظرة نداء ؟ ألا ما أتعس تلك الأنثى لو أنها لم تستمتع بكل لحظة من حياتها .

نزعت عينى عن زازا وصوبتها إلى اللعين توتو حيث ينام تحت الشجرة وسط زوبعة من الشخير ، ترى ما جنسيته ومن أى بلد جاء ؟ بسهولة جداً يمكن أن يكون هنديا من آسيا ، وبسهولة جداً يمكن أن يكون هنديا من أمريكا ، وربما كان مغوليا أو سلافيا أو حتى آريا مولدا ، من الممكن أن يكون أى شىء . ومهما كان من أمره فنحن رجلان ومعنا أنثى واحدة . . أنا الآن لا أكرهه ولكنه لا يثق بى . الرجل للرجل إما صديق محبوب وإما منافس مرهوب ، والله لأقول هذه الحكمة لزازا . لجدير بى أن أجعله

يحبنى أو يرهبنى ، أو على الأقل يحترمنى . يجب أن أحوز صداقته ولو عن طريق المغامرة .

كان قد انقلب على الجنب الآخر الذى يكشف عن جيب المايوه حيث يوجد الخنجر ، فمه مفتوح فى بلاهة وهو يغط ، فماذا لو قصدت إليه فانتزعت الخنجر من جيبه ؟ هى مغامرة خطيرة بلا شك ، لو انتبه إلى لكان فى ذلك نهايتى . سيظن أننى أريد أن أقتله ، ويكون معذوراً إذا هو سبق إلى قتلى . مغامرة رهيبة ، معركتى مع هذا العملاق الأسمر ، لكنها ضرورية .

على أطراف أصابعى تسللت نحوه ، أكاد أسمع بأذنى دقات قلبى . وفى الطريق توقفت على صوت سمعته لكنه لم يكن إلا صوت زازا وهى تحلم . خطوتين أخيرتين وأشرفت على الرجل النائم ، ما أعجز الرجل حين ينام . جثوت فى حذر بجانبه ، ومددت إلى جيب المايوه يداً ترتعد . جسمى كله يرتعد من إحساس المغامرة ، للمهندس المسكين الذى لم يعرف للمغامرة إلا على الورق . ثم دسست إصبعين متوترتين فى جيب المايوه ، وعرق بارد تصبب على وجهى . بالإصبعين قبضت على سن الخنجر وسحبته برفق ، كاد قلبى يتوقف عندما رأيت الرجل يتحرك . تفزز فجأة وزمجر ، ورأيت الموت فى عينيه المقفلتين . كان فيما يبدو يحلم ، ترى أى أحلام عجيبة تدور فى تلك الدماغ الغامضة ؟ تفزز ثانياً ثم سكن ، وعادت أصابعى إلى سن الخنجر ،

جذبته برفق حتى أخرجته من جيب المايوه ، ووقفت به وأنا ألهث . بالخنجر أقف بجانب الرجل النائم ، سيد الموقف ومالك زمام الأمور . بضربة واحدة أستطيع أن أقتله وتصبح زازا والجزيرة كلها لى . ضربة واحدة ويتحول هـذا الجسم النابض إلى جثة هامدة ، وعدة أيام أخرى ويصبح فى الجزيرة هيكل جديد .

أفكار ألوكها وأنا أعرف أنها مضحكة ، لست أنا الذى يقتل الرجل نائماً كان أو صاحياً . لم أستطع أن أبغضه فهل أستطيع أن أقتله ؟ لكننى سعيد بنجاحى فى المغامرة ، فرحة صبيانية ترقص فى صدرى . لماذا لا أقص أظافرى طالما أن الخنجر فى يدى ؟ قصصتها ثم خطر لى أن أحلق لحيتى وعند ذلك عرفت فائدة الصابون . أمكننى أن أشذبها فحسب ، أما حلقها فمستحيل . ولماذا أحلقها وسوف يصبح لمنافسى بعد حين لحية مثلها ؟ إنى لأنظر إليه فيخيل إلى أنها تنمو تحت بصرى ، مثل التفاحة المتدلية من الشجرة فوق رأسه . فرشقت الخنجر فى الأرض على مقربة من الرجل النائم ، وعدت لأجلس فى موضعى الأول أمام زازا . هى تتقلب على جنبها ، عيناها تفتحتا ونظرتا إلى الرمال ، ثم حادت ببصرها إلى . ثم استوت جالسة تستوعب الدنيا ، وبسطت ذراعيها تتمطى .

— أنا نمت كتير ؟ سألتنى متثائبة .

— موش قوى .

— وانت قاعد هنا من كتير ؟

— برضه مش قوى .

— طب هات لى اشرب .

فقصدت إلى الجرة وفى طريقى مررت بالخنجر المرشوق فى الأرض . ثم عدت فوجدت عينيها مصوبتين إلى الخنجر ، تنقل النظر بينى وبينه فى دهشة .

— إيه اللى طلع الخنجر ده ؟ سألتنى .

— أنا ، أجبتها فى بساطة .

— ليه ؟

فابتسمت فى غموض وناولتها الجرة ، لكنها لم تشرب .

— ليه ؟ سألت ملحة .

— علشان اقص ضوافرى ، قلت باستخفاف وأنا أجلس بجانبها .

فراحت تتفرس فى حيناً ، تنقل النظر بينى وبين الخنجر وصاحبه النائم ، تقلب فى ذهنها مختلف الاحتمالات .

— إنت شخص غريب ، قالت لى حين فهمت .

فعربدت الفرحة فى صدرى أكثر من قبل ، ورأيت فى عينى زازا نظرة احترام . عرفتنى على حقيقتى أو على الأقل كما يجب أن أكون . لست ذكياً وشجاعاً فحسب ، وإنما نبيل أيضاً . أسلب

غريمى سلاحه ثم أرده إليه ، جنتلمان فى البر والبحر وكل مكان .

— كلت السمكة ؟ سألتنى وهى تتلفت حولها .

— آه .

— اخص عليك ، قالت فى دلع ، موش كنت تخلى لى حتة ؟

— حقك على ، قلت لها ، كنت جعان قوى .

ورفعت الجرة وشربت ، خيوط الماء سالت من جديد على عنقها وتسللت إلى صدرها .

فلما أزلت الجرة مددت إصبعا إلى عنقها العاجى أمسح الماء ، نظرت فى استسلام وابتسمت .

— انت حلقت دقنك كان ؟

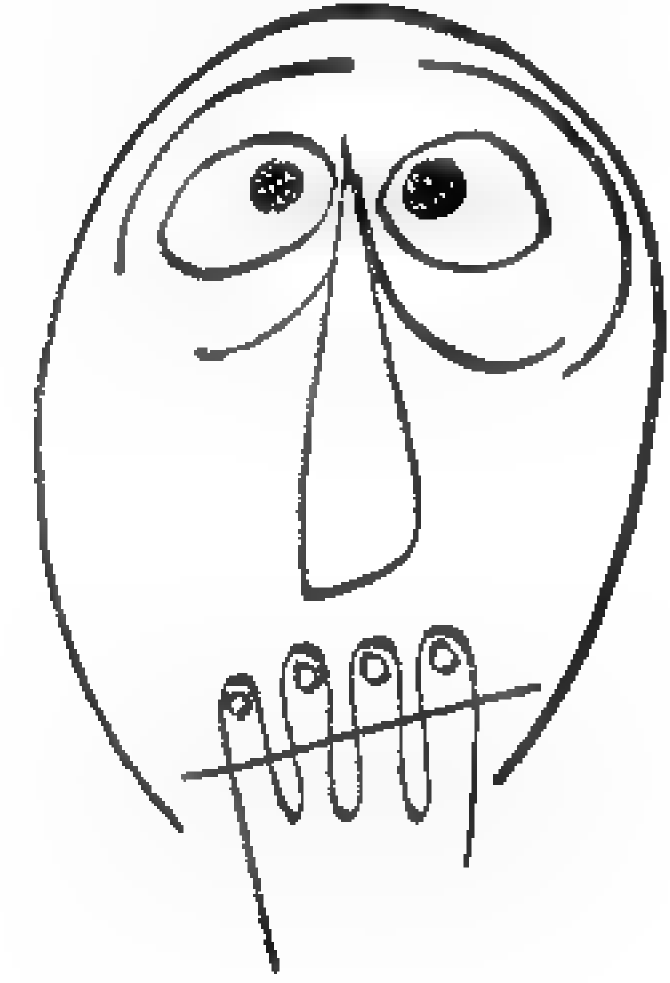
ومدت يدها تتحسس وجهى ، فجذبت يدها إلى شفتى وقبلتها . ونظرة حنان سبحت فى بحيرة عينيها ، فأدنيت شفتى من وجنتها وطبعت قبلة مرتعدة . أحبك يازازا ، قلت لها ، أحبك ، وهممت بأن أطبع قبلة ثانية فابتعدت .

— توتو صحى !

فتابعت نظرتها لأراه جالساً يدعك عينيه من النوم ويتثاءب ، ثم امتدت يده بحركة لا شعورية إلى جيب المايوه . لم يكن الخنجر هناك طبعاً ، وهو ما يفسر نظرة الفزع التى ارتسمت فى عينيه . ثم وقع بصره على الخنجر المرشوق فى الأرض ، حملق إليه فى ذهول

ثم نقل بصره إلى أنا ، ثم إلى الخنجر ثم إلى كأنه لايصدق عينيه . وبسرعة خطفه من الأرض وراح يتأمله محاولا أن يستوعب الموقف . فلما نظر إلى فى المرة التالية تبسمت له ، فظل يرمقنى مدى حين فى دهشة ثم ابتسم . ثم وقف وهم بأن يضع الخنجر فى جيبه لكنه عدل ، ألقى الخنجر ورشقه فى الأرض كما كان .

— نزانزا ! قال بلا مناسبة وهو يبتسم .



ونظرت إلى زازا فوجدتها هى الأخرى تبتسم ، ثم تحولت ابتسامتها إلى ضحكة فرح ، موجة سعادة غمرتنا كلنا فجأة . وقصد توتو إلى البحر ليغرف الماء براحتيه ويغسل به وجهه ، ثم قصد إلى شجرة التفاح فقطف ثلاث تفاحات ، اثنتان منهما قذف بهما إلينا وهو يتبسم . ثم أولانا ظهره وابتعد ، عملاق برنزى جميل

مرسوم على الأفق الأحمر . إلى جذع الشجرة المقطوع ذهب ، دار حوله واختفى . ثم ارتفع صوته بأغنية غريبة ، بصوت تينور عميق مطرب .

فالتفت إلى زازا وابتسمت . ضوء الشفق الأحمر يصبغ وجهها بسحر عجيب ، فضممتها إلى وقبلتها ثلاث قبلات . فإنى لأهم بالقبلة الرابعة إذ انقطعت أغنية توتو فجأة وصدرت منه صرخة نشاز ، فنظرت لكى أراه واقفاً يلوح بذراعيه إلى البحر ويصرخ . وفى البحر كان شىء يتحرك ، ثمة شىء يتحرك فى البحر . فوثبت زازا لترى ماذا هناك ، فى حين أقعدتنى عن الوقوف خيبة أمل قاتلة .

— ياعالم ! ياهوه ! هو أنا كل ماجى ابوسك يطلع لى م البحر غريق ؟!

فضحكت زازا ونكشت بيدها شعرى ، ثم انطلقت تجرى إلى البحر .



الفصل السادس



منظراً غريباً حقاً ، ذلك الذى رأيناه يقترب منا فى ضوء الشمس الغاربة . رجل جالس — متربع — على ما يشبه خشبة كبيرة طافية ، والخشبة تنزلق على الماء وحدها بدون أن يبذل الرجل أى مجهود . فلما اقتربت منا أدركنا ما الذى يحركها ، عندما سمعنا صوت يد تضرب الماء ووقع بصرنا على الرجل الذى يسبح خلف الخشبة ويدفعها إلى الأمام . فلما اقتربت أكثر سمعنا صوته وهو يلهث وينهج ويحتل كشيال يصعد السلم بحمل ثقيل .

— شد حيلك يا كرشة ! قال الرجل الجالس مستحثاً ، خلاص فاضل خطوتين .

فلما صار الركب قبيل الشاطىء بخطوة أدلى الرجل الجالس ساقيه من فوق الخشبة ونزل فى الماء ، شامراً إلى أعلى ذيل جلبابه الأبيض الفضفاض ، ثم خرج إلى الشاطىء فترك الجلباب يتدلى ورفع يديه إلى السماء .

— الحمد لله رب العالمين ! الحمد لله رب العالمين ! ألف حمد وألف شكر لك يارب ، ألف حمد وألف شكر . الحمد لله رب العالمين !

رجل طويل عريض أبيض يناهز الأربعين ، فى وجهه مسحة من المهابة رغم زراية منظره العام فى الجلباب نصف المبتل . وبينما وقف يردد أدعيته كان الرجل الآخر قد خرج من الماء وتهالك على الأرض وهو يلهث ، وكان هو الآخر يلبس جلباباً من قماش رخيص مخطط . أسمر اللون قصير ، إلا أنه عريض الكتفين سميك الرقبة كأنها رقبة ثور . جبهته ضيقة مائلة إلى الوراء ، وصدغان عريضان وشفتان غليظتان ، وبلاهة عامة فى وجهه الأسمر الجلف . ثم كف الرجل الآخر عن الأدعية وصوب عينيه إلينا ، راح ينقل بيننا نظرات مستريبة مع اختصاص لرازا بنظرة أطول نوعاً .

— سلامو عليكم ، قال لنا بصوت غليظ تشوبه بحة .

فرددنا السلام .

— حضراتكو من أهل البلد دى ؟

فشرحت له مالا يعرف من أمر البلد ، كيف أنها جزيرة لا بلد ، وكيف أننا كنا مثله فى الباخرة التى غرقت . ثم عرفته بنفسى وعرفنى بنفسه ، الحاج طلبة حسنين من ذوى الأملاك .

— وسيادته ؟ سألنى الحاج طلبة مشيراً إلى توتو .

— ده واحد غرقان زى حالاتنا ، أجبته ، مابيعرفش عربى واسمه توتو .

— طوطو ؟ ! هتف المدعو كرشة ، إلا طوطو دى !

وكان صوته غليظاً قبيحاً ككل شىء فيه .

— يعنى ماهوش مسلم ؟ سألنى الحاج مواصلا اهتمامه بتوتو .

— والله معرفش ، لغاية دلوقت ماشفتوش بيصلى !

فابتسمت زازا وسرنى أننى تسببت فى ابتسامتها .

— والهانم جاعتك ؟ سألنى الحاج .

سؤال محرج كما ترى ولذلك تظاهرت بأننى لم أسمع .

— أفندم ؟ تساءلت .

— باقول الهانم جاعتك ؟

— أ . . أيوه ، أجبته بعد لحظة تردد .

ونظرت إلى زازا فخيل إلى أننى رأيت فى عينيها نظرة اعتراض ،

والحقيقة أننى لا أدرى لماذا قلت أيوه . ربما كان ذلك لأننى أردت أن أعطيها مركزا اجتماعياً يحميها من تطفل الأغراب ، وربما لأننى وجدتها فرصة صالحة لاكتساب حق رسمى فى التبسط معها علناً .

— طيب ياأخى موش تلبسها حاجة تسترها ؟ سألنى الحاج طلبة فى لهجة لوم يشوبه ازدراء .

— والله كنت أحب ألبسها ، أجبته ساخرا ، بس أصلنا نسينا نجيب معانا دولاب الهدوم !

فزغر لى الحاج ثم وقف حيناً يفكر .

— كرشة ! قال أخيراً ، إقلع جلابيتك !

فالتفت الآخر إليه فى دهشة حيث جلس على الأرض .

— هه ؟ ؟ تساءل فى بلاهة .

— بأقول اقلع جلابيتك .

— جلابيطى ؟

— آه ، عشان الست تلبسها .

فتردد كرشه لحظة ثم نهض ليخلع الجلباب ، كشف عن صدر عار غزير الشعر كصدر الغوريلا ، وعن كتل غليظة من العضلات المكدسة على ذراعيه وكتفيه كأنه ممن يشيلون الحديد . والحمد لله أنه كان يلبس تحت الجلباب سروالا طويلا أسود ذكرنى بسراويل أهل الإسكندرية .

— أما الجلابية تنشف خلى الست تلبسها ، قال لى بلهجة الأمر وهو يناولنى الجلباب .

— أنا ألبس الجلابية دى ؟ ! صرخت زازا فى استنكار .

فلم يجبها الحاج إلا بنظرة قاسية أسكتتها .

— أيوه يازازا ، قلت لها أنا بلهجة حزم زوجية ، موش احسن ماتبقى عريانة كده ؟

فزغرت لى ولم تقل شيئاً .

— مافيش هنا حاجة تتاكل ؟ تساءل كرشة فجأة .

فأشرت إلى شجرة التفاح ، فقصد إليها بسرعة وهو يدب على الأرض وقد تدلت ذراعاه كالغوريلا .

أما الحاج طلبة فتربع على الأرض وشرع يخرج محتويات جيوبه . أخرج أول ما أخرج سبحة من الكهرمان وضعها بجانبه على الرمال ، فقلت فى نفسى هذا والله رجل ورع يستحق الاحترام . ثم أخرج شيئاً تبينت أنه دفتر صغير من نوع ما .

— كل حاجـــة اتبلت ، قال الحاج طلبة متأففاً ، حتى دفتر الشيكات .

دفتر شيكات ؟ إنه إذن يستحق الاحترام جدا . ثم أخرج الشىء الثالث الذى عرفت منه أننى لن أستطيع أبدا أن أفيه حقه

الكامل من الاحترام ـ أخرج مسدساً كبيراً أسود فتحه وسحب منه مشط الرصاص ليفحصه ، ثم رد المشط إلى المسدس ورفع فوهته إلى أعلى . طراخ ! رددت الجزيرة دوى الرصاصة التى أطلقها ، فشهقت زازا فى ذعر وتوترت عضلات توتو الذى وقف يرقب المشهد فى صمت .

— الحمد لله ماخسرش م المية ، قال الحاج طلبة .

— إنت ديماً شايل مسدس فى جيبك ياحاج ؟ سألته بسخرية مستترة .

— شغلنا عايز كده ، أجابنى باقتضاب ، ماتعرفش القبلة فين ؟

فأشرت إلى الشمس التى غاصت فى الماء عند الأفق ، وبمراجعة الجهات الأصلية عرفنا أين توجد القبلة . فانتظر الحاج حتى اختفى قرص الشمس ثم رد السبحة والدفتر والمسدس إلى جيبه ووقف ينوى الصلاة . طويل عريض مهيب فى جلبابه الأبيض ، فخور فى صلاته أكثر منه خاشعاً . أشرت إلى زازا وانتحينا جانباً ، وتبعنا توتو معتبراً نفسه من نفس الشلة .

— أنا قلت انك مراتى لأنى ...

— لأنك سافل ! قاطعتنى بسرعة .

فشرحت لها فائدة الأمر فى حمايتها من هؤلاء الأغراب ، لكنها لم تقتنع .



— حد قال لك أنى محتاجة لحماية ؟ و إذا كان ضرورى حماية ، ليه ماقلتش إلى مرات توتو ؟ أنت أعمى ولا هو ؟

— هو أعمى لـكن أنا لى لسان .

فسكتت مفحمة .

— والله لما يعمل إيه مانا لابسة الجلابية دى ! قالت بعد حين فى عناد .

لـكنها كانت تعرف أنها سوف تلبسها ، الحاج طلبه كما شعرت زازا وشعرت معها قد قرر أن يفرض نفسه زعيما على جماعتنا الصغيرة ، لسبب ما يشعر الرجل أن عنده من المسوغات مايرشحه بالبداهة لتلك الوظيفة .

— مافيش حبة مية ؟ أتانا صوت الحاج وقد انتهى من الصلاة .

فانتقلنا إلى حيث توجد عين المياه ، رفع الحاج الجرة إلى فمه وراح يجرع منها ويمصمص الماء بصوت غلب على ضجة كرشه الذى ما برح يقرش التفاح .

— ناولنى تفاحة يا كرشة ، قال الحاج بعد أن شرب .

فأحضر له كرشة ثلاث تفاحات .

— أما طماح ياحاج ! لوظ والله ، لوظ !

وبينما الحاج يأكل نظر إلى الـكوخ وبدا أنه يفـكر .

— العشة دى تساعنا كلنا ؟ سألنى بأمل .

— ياريت ياحاج ، أجبته بأسف،دى يادوب سايمانى أناومراتى.
فسكت الحاج مفحما .
— على كل حال الدنيا دفا ، قلت له مهونا .
فلم يجب .
— وبرضه تقدر تتبادلها ، أضفت ، احنا ليلة وانتو ليلة .
فلم يجب .
— الا طبعاً اذا كنت تحب تاخدها لوحدك ! أضفت ساخرا .
— ودى تيجى يا أستاذ ؟ أجابنى مستنكراً ، الست تنام بره ونا ياراجل انام جوه ؟
فوجهت إلى زازا نظرة ذات معنى .
— الحاج يعرف انجليزى ؟ سألته فهز رأسه بالنفى .
— هرفتى فايدة الجواز ؟ قلت لزازا بالانجليزية .
فلم تعلق ورأيت كرشة يزغر لى .
— النبى عربى يا أسطاز ! شخط فى من بعيد .
فنظرت إليه بازدراء ولم أعلق . وأخرج الحاج سبحته وراح يداعب حباتها متمتما ، وكرشة واصل التهام التفاح حتى بدأت أخاف على المحصول . لكنى لم أقل له شيئاً . ثور كهذا ليس من الحكمة أن تقال له الأشياء .

— تزاتزا ! قال توتو لزازا باسماً .

— تظاظا ؟ ! قلده كرشه مستهزئا ، نكطة قوى الراجل ده !

وخيمت على الجزيرة عتمة المساء ، لم يخفف منها إلا قرص القمر الشاحب الذى برز عند الأفق الشرقى ، والذى ما برح شحوبه أن تحول إلى لون فضى جميل يرتعش على ماء البحر . فأدركت أن الساعة قد حانت ونهضت متثائباً كمن كبس عليه النوم .

— يالله بينا يازازا ، قلت بالبساطة الزوجية للمناسبة .

وسحبتها من ذراعها فترددت لحظة ثم انقادت . جذبتها وقصدنا إلى الكوخ على مهل ، زوج وزوجته يتجهان إلى بيتهما ، ما الغرابة فى ذلك ؟ لكن قلبى كان يدق كالطبل بين ضلوعى ، على إيقاعه المجنون ترقص فى صدرى فرحة وحشية معربدة . أرأيت فى حياتك رجلا يقتنص لنفسه هذه العروس الرائعة بتلك السهولة المعجزة ؟



الفصل السابع



أنفرد بزازا فى الكوخ حتى أخليت سبيل الضحكة المكتومة فى صدرى ، رحت أضحك وأضرب بكفى على فخذى من شدة الطرب ، بصوت منخفض بالطبع كيلا يصل إلى مسمع الآخرين فى الخارج .

— والله العظيم انك سافل ! قالت زازا بغيظ ، أسفل راجل عمرى شفته !

لكن صوتها كان يدل على أننى لست سافلا إلى هذا الحد ، وعلى أن غضبها ليس أصيلا . ورأيتها تجلس على السرير الخشبى الواطىء ، وشعاع من القمر تسلل من كوة فى أعلى العشة وأنار وجهها . فذهبت وجلست بجانبها .

— إبعد عنى ! قالت لى ببقية من الغيظ .

فابتعدت قائلا لنفسى على مهلك ، أمامنا الليلة كلها .

— والله لما يموت مانا لابسة الجلابية دى !

فشرحت لها مالا تعرف عن أهل الورع والتقوى ، كيف أنهم لايتذوقون الجمال بنفس الطريقة التى نتذوقه بها نحن . شعاع النور الذى ينبعث من قميصها الوردى ويسحرنى ، لا يمكن لرجل مثل الحاج طلبة أن يرى فيه سوى شعلة من نار جهنم ترتمدق يد إبليس .

— انت عاوزة الراجل كل مايبص لك يتنقض وضوه ؟!

فلم تجب زازا مباشرة ، كانت تفكر .

— دمه تقيل ! قالت أخيرا فى تقزز .

وتفكرت لحظة أخرى ثم ابتسمت .

— ومع ذلك تعرف ان فيه حاجة جذابة كده ؟!

— لاياشيخة ! فقلت لها بغيظ ، ماتقولى لى بالمرة ان كرشة راخر فيه حاجة جذابة .

— طب وانت يعنى بتقول فيها ؟ قالت ضاحكة ، كل راجل وفيه حاجة !

فتصمت وهبت هى واقفة تتأفف .

— ياباى ! السرير ده ناشف بشكل ! دى الأرض أريح .

وكان هذا صحيحاً ، ولحسن الحظ كان الكوخ بلا أرضية من خشب أو غيره ، مجرد جدران أقيمت حول مساحة من رمال الجزيرة الناعمة .

— مافيش شك ان الأرض أريح ، قالت زازا وهى تجلس على الأرض فى شعاع القمر .

فجلست بجانبها باسماً .

— تسمح تدير وشك للحيطة وتنام ؟

— أدير وشى للحيطة ليه يا أبلا ، أنا عملت حاجة ؟

فابتسمت زازا ، وعندما تبتسم زازا أحس كأن الشمس قدطلعت بعد يوم مطير . أجمل ابتسامة على أجمل شفتين بين أجمل غمازتين ، ونور الجنة يرقص فى عينيها .

— أحبك يا زازا ، قلت لها بصدق .

— حبك برص ! أجابت فى غضب مصطنع .

وتناولت يدها فلم تعترض ، رفعتها إلى شفتى وقبلتها وقلت لها أحبك من جديد . فى عينيها تراءت نظرة حنان غمرتنى بسعادة رهيبة ، فأدنيت شفتى من وجهها ثم توقفت .

— خايف ابوسك يطلع لنا م البحر غريق تانى !

فضحكت زازا وقرصت خدى .

— ساعات يبقى دمك خفيف .

— ستات كتير قالوا لى كده ، أجبتها وهممت بالقبلة فأوقفتنى طرقة مفاجئة على الباب .

— يا أستاذ أحمد ! أتانى صوت الحاج طلبة من الخارج ، افتح يا أستاذ أحمد !

— الله يخرب بيتك ! قلت وأنا أغلى ، ده وقته يابن الكلب ؟

ووراء الباب وجدت الحاج طلبة وبجانبه كرشة .

— أى خدمة ؟ سألته ببرود .

— لا مؤاخذة يا أستاذ بس أصلى آه .. هاه .. هاه .. هاتشى !

أبعدت وجهى عن طريق العطسة فى اللحظة المناسبة .

— أصلى يظهر خدت برد من مية البحر ، قال الحاج .

— طب وانا اعمل إيه ؟ سألته بنفس البرود .

— طعمل ايه يعنى إيه ؟ بوأ فى كرشة ، تبيطه معاك فى الضفا !

— أبيت مراتى مع راجل غريب ؟ أجبته بغلظة .

فعطس الحاج ثانيا وثالثا ، وبين عطساته يعتذر لى عن هذا الاقتحام الذى لم يكن يجب أن يبدر منه لولا الظروف اللعينة . هو ضعيف الصدر — شرح لى — بسبب إصابته منذ شهور بالتهاب رئوى حاد ، فلو لم يعتكف بهذا الزكام الطارىء لتعرض للموت بردا .

— إن شالله اللى يكرهك يارب ! قال كرشة وهو يحملق إلى بعينين جاحظتين .

وأشار الحاج إلى السرير الخشبى الواطىء قائلا إنه من الممكن

وضعه على جنبه ليقسم العشة إلى قسمين ، كما أنه من الممكن تعليق جلباب كرشة فوقه ليكون بمثابة ستار بيننا .

— وعلى كل حال الأمر أمرك ، قال الحاج فى النهاية .

— الأمر أمره يعنى إيه ، جأر كرشة ، هو بيت أبوه ؟ بانيه ولا شاريه ؟

— من فضلك بلاش قلة أدب ! قلت له بحدة .

— لا يا شيخ ! زأر كرشة وهو يقتحم الكوخ .

جبينه وضعه على جبينى وأنفه على أنفى وراح ينفخ بتهديداته فى فمى .

— انت فاهم نفسك إيه يا أسطاز ؟ ده الحاج طلبة اللى بيكلمك ! ده لولا ظروفه كان رماك بره ونام مطرحك . أما طجرمة صحيح !

— سيبه يا كرشة ، قال له الحاج طلبة .

— والله العظيم الواحد يوضبه ! قال كرشة وهو يبتعد عنى .

— زازا ، قلت لها بحزم ، يالله بينا من هنا .

وجذبتها وغادرنا العشة فجذبنى الحاج طلبة من حمالة فانلتى .

— على فين يا أستاذ ؟

— نبات بره ، قلت له ببرود ، مالناش حتة هنا .

— ودى تيجى يا أستاذ ؟ بقى معقول اطرد راجل ومراته من بيتهم ؟ والله مايمكن أبدا .

— أما تخف ان شاء الله نبق نرجع بيتنا .

— والله مايمكن أبدا ، ياسلام ؟ أنا اللى ابات بره وزى ماتيجى.

— لأ ، احنا اللى حنبات بره ، يالله يازازا .

هو يجذبنى وأنا أجذبه فى مباراة فى الكرم والمروءة ، وأخيراً نفخ الحاج طالبة فى استسلام .

— ياسلام يا أستاذ احمد ، لو كنتش عنيد كده !

وعطس من جديد ثم أخرج من جيبه دفتر الشيكات .

— مادام ح تباتوا برة ، قال لى وهو يفتح الدفتر ، أنا ح آخد العشة بالإيجار .

فظننت أنه يمزح لكنه كان جادا ، إذ فتش فى جيبه حتى عثر على قلم من الرصاص ، ثم تهيأ لكتابة الشيك .

— عشرين جنيه فى الشهر كويس ؟ سألنى .

— خليهم تلاتين ، أجبته متهكماً .

— تلاتين ! زمجر فى غيظ ، لا هوانا بأجر فيللا مفروشة ؟ دى عشة فاضية كحيانة !

— ما تزعلش ، قلت ضاحكا ، هات اللى تجيبه .

فهم بالكتابة ثم بدا عليه التردد .

— ومع ذلك موش ح ازعلك ، خليهم تلاتين ! أجرة ما شحططتك م البيت .

وشرع يكتب الشيك .

— هو على بنك إيه ؟ سألته .

— الأهلى .

فالتفت إلى زازا .

— هو البنك الأهلى فاتح فرع هنا يازازا ؟

فضحكت زازا لكن الحاج لم يضحك .

— هو احنا ح نقعد هنا على طول يا أستاذ ؟ قال لى فى غيظ ، ضرورى ح تفوت مراكب وتاخدنا .

وناولنى الشيك .

— ويمكن تيجى مركب بعد يوم ولا اتنين ، أضاف بلهجة مازحة ، تبقى خدت إيجار شهر على يومين . حلال عليك ياعم ، تصبحوا على خير .

ودخل فأغلق الباب عليه .

— آل يبيطوا الحاج بره ! برطم كرشة وهو يحرقنى بنظراته .

فسحبت زازا وابتعدنا ، قصدنا إلى جذع الشجرة وجلسنا وراءه ننظر إلى البحر الذى يلمع فى ضوء القمر . لكننى لم أجد فى نفسى أية ذرة من الشاعرية ، كرهت كلا من البحر والقمر .

وفجأة سمعت زازا تضحك .

— فيه إيه يضحك ؟ سألتها فى غيظ .

— إنت ! أجابتنى وسط ضحكها ، لو كان كرشة مسكك كان فعصك فعص !

فسكت فى غيظ بينما أنهت هى ضحكها

— وريى الشيك كده ؟

فناولتها إياه .

— ده ع البنك الأهلى صحيح .

— هه ! نفخت ساخرا ، وايش عرفنا ان له رصيد ؟

— إنت وبختك بقى .

وطوت الشيك ودسته فى صدر فانلتى ، وأنا أواصل صمتى الكئيب .

— ياأخى فرفش بقى ! قالت زازا بعد حين ، ولا اقوم ادور على توتو ؟

فرأيت أن أفرفش ، ماذا تجدى الكآبة وما حدث قد حدث ؟ فابتسمت لأستدرج الفرفشة ، ومددت ذراعا أحطت به كتف زازا وطبعت قبلة على خدها . فإننى لموشك على أن أطبع الثانية إذ أتانى صوت كرشة الغليظ .

— عيب كده يا اسطاز ! قال كرشة الذى برز فجأة من وراء الجذع ، انت موش لوحدك .

وأمامى وقف نافشا عضلاته الغليظة وسط غابة من شعر الغوريلا .

— إنت قدامك رجالة يا اسطاز !

فى تحد سافر راح يحملق فى وجهى ، ويتمنى أن أرد على تحرشه فتكون فرصته للفتك بى . مكتوب على ألا ألتقى فى هذه الجزيرة المعينة إلا بالعمالقة والفتوات .

— إنت جاى تقف جنبنا وتقول لى عيب ؟ سألته بلهجة أردتها أن تكون لهجة غضب فطلعت لهجة عتاب .

— أنا حر اقعد مطرح ما يعجبنى .

وكنت أعرف أنه حر حقاً ، عضلات الحرية تصرخ فى كل سنتى من جسمه .

— قومى بينا يازازا ، قلت لها وأنا أنهض .

نهضنا وقصدنا إلى شجرة التفاح فجلسنا تحتها ، ماهى إلا لحظة حتى رأينا كرشة يأتى ويجلس بالقرب منا . فى حقد بالغ نظرت إليه ، وفى استخفاف مهين رد نظرتى بعينين تهدلت عليهما جفونه الغليظة المنفرة .

— أما والله ! قالت زازا وهى تفلت ضحكة .

وفى تلك اللحظة ظهر توتو ، أقبل فجلس أمامنا صامتا . كرشة نظر إليه فى كراهية ولم يقل شيئاً ، أحد منا لم يقل شيئاً . ثم تنخم كرشة وبصق واستلقى على جنبه متهيئاً للنوم ،ماهى إلا دقيقة حتى رددت شخيره القبيح أرجاء الجزيرة .

— زازا ! قالت توتو وهو يبتسم .

فأجابته زازا بابتسامة ، ورحت أنا أنقل بصرى بين الاثنين لحظة ثم نهضت فى صمت .

— على فين ؟ سألتنى زازا بنبرة استهزاء .



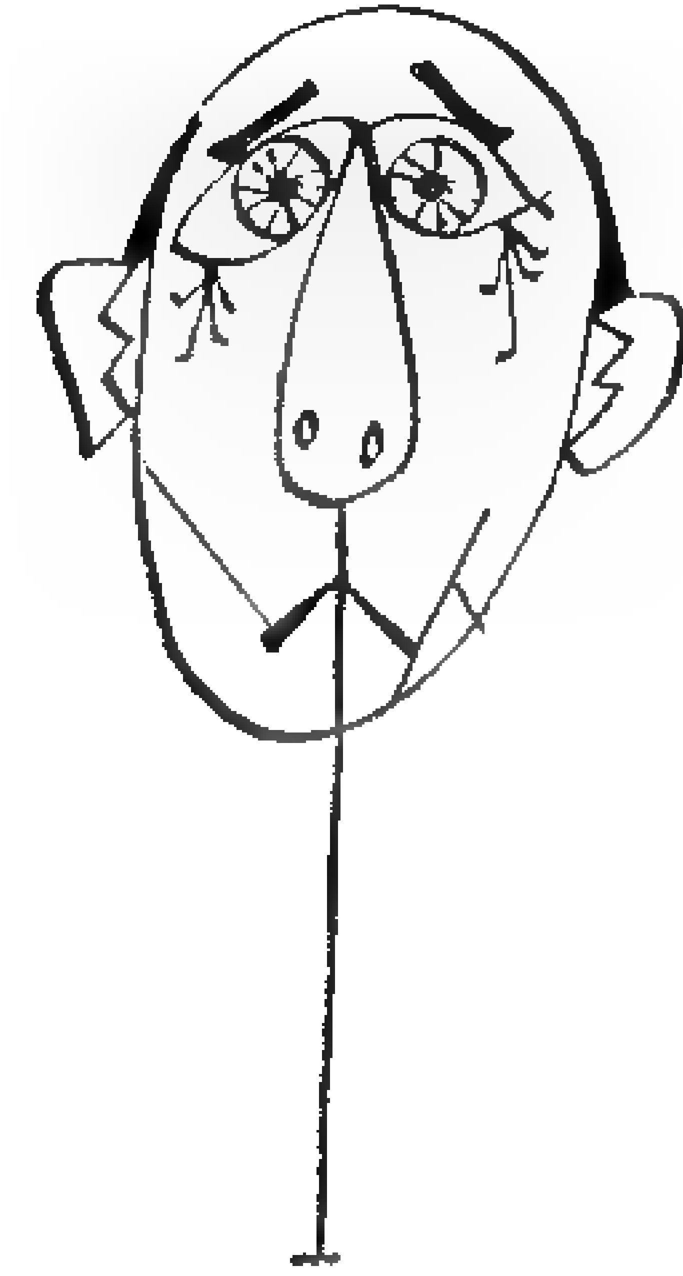
فلم أجبها . كنت أشعر بالمهانة وأريد أن أخلو لنفسى . قصدت إلى ماوراء الكوخ حيث توجد العظام ، جلست بالقرب منها ألوك أحزانى . أمامى ترقد الجمجمة صامتة صابرة خالدة ، فى ضوء القمر تصوب إلى ابتسامة لا أدرى لماذا خيل إلى أنها ساخرة .

الفصل الثامن



شدة همى وغمى لم أحاول عندما كبس النوم على أن أبتعد عن العظام بل نمت بينها ، وصحوت بعد حين فوجدتنى أضع يدى على الجمجمة فى حنان ، كأننى مرسوم فى صورة سيريالية . لكن لماذا صحوت بهذه السرعة ؟ يخيل إلى أن هناك ضجة غريبة أيقظتنى . نعم هناك ضجة بالقرب منى ، صوت أنفاس مضطربة وزمجرة وحشية وتلاطم أجسام عارية فيما يشبه المعركة . فنهضت على عجل ودرت حول الكوخ لكى أكتشف أنها معركة فعلا ، بين توتو والثور الآخر كرشة . كان الأخير حين وصلت مطوقا خصر توتو بذراعى أخطبوط كأنه يريد أن يعصره ، فى حين كان توتو مطبقاً بيديه على عنق كرشة لكى يخنقه . فلما أدرك كرشة أنه سيختنق ترك

خصر توتو ورفع يده إلى وجهه لكى يدخل إصبعاً فى كل من عينيه . فأخلى توتو سبيل عنق كرشة وأمسك بشعره ليشده منه إلى الوراء ، وفى الوقت نفسه صوب إلى بطنه لكمة عنيفة لوأصابت



جبلا لهدته ، فانثنى كرشة نصفين من الألم . لكنه لم يسقط ، بل هجم برأسه على توتو فنطحه فى بطنه نطحة جعلته هو ينثنى نصفين ، ثم طارت قبضة كرشة إلى وجه توتو بلكمة سفلية علوية ألقت به على الأرض . فإنه ليهم بالانقضاض عليه إذ طارت ساق توتو إلى وجه كرشة برفصة ولا رفصة البغل ألقته هو الآخر

على الأرض . وهناك التحم الاثنان وراحا يتمرغان على الرمال ، فم كل منهما ملتصق بكتف الآخر بما فهمت منه أنه يعضه .

لم أكن قد انتبهت إلى أن هناك متفرجا آخر على المباراة هو زازا ، إذ وقفت عن قرب وهى تعض إصبعها وترتعد . فقصدت إليها لأطمئنها .

— يظهر انهم بيتخانقوا ، قلت لها باسماً .

— بيتخانقوا ؟ ! صاحت زازا فى فزع ، دول ح يموتوا بعض!

— محتمل ، وافقتها ، وأرجو ان القتيل يكون كرشة .

— وانت واقف كده ليه ؟ موش تروح تفض الخناقة ؟

— أنا ؟ ! هتفت فى ذعر .

— إمال انا ؟

— يابنتى صلى ع النبى ، دنا خايف اتعور م الفرجة !

— طيب روح ساعد توتو .

— موش شايف انه محتاج لأى مساعدة .

— بقى بذمتك انت راجل ؟

— أنا طول عمرى عندى مبدأ ، أخبرتها ، إنى أحتفظ برجولتى لحاجات أنفع من الخناق !

فسكتت وهى ترمقنى فى ازدراء ، وعدنا نتفرج على المباراة .

كان الرجلان قد وقفا من جديد وعادا إلى الوضع الأول ، كل منهما يمسك برقبة الآخر محاولا أن يخنقه . وفى تلك اللحظة سمعت صرير باب الكوخ ، وبرز الحاج وهو يدعك عينيه من أثر النوم . راح يبربش حيناً نحو المتعاركين ، فلما اكتشف حقيقة الموقف أخرج المسدس من جيبه وقصد إليهما بسرعة . دار بالمسدس حتى صار وراء توتو ثم رفعه وأهوى به على رأسه بضربة شديدة ، فسرعان مارأيت توتو يترنح ويسقط على الأرض . فلم يرحمه كرشة ، بل انقض عليه وركب فوقه مطبقاً بيديه على رقبته لكى يكمل عليه.

— سيبه يا كرشة ! صرخ الحاج .

لكنه لم يتركه ، فأسرع الحاج إليه وشده من شعره .

— إنت مجنون ؟ عاوز تعمل لنا جناية ؟

فنهض كرشة وراح يتفحص الأرض حوله وهو يلهث كالثور المجنون ، ثم انحنى والتقط شيئاً تبينت أنه خنجر توتو الذى لابد أنه حاول استعماله فى بداية المعركة وفشل .

— ودينى أفتح كرشه ! زأر كرشة وهو يلوح بالخنجر فوق بطن توتو .

— هات الخنجر ده ! أمره الحاج ، هات باقول لك .

فناوله كرشة الخنجر ، وكانت عينه وارمة من أثر رفصة توتو،

ووجهه كله — مثل وجه توتو — قد أصبح شوارع .

— إيه الحكاية ؟ سأله الحاج مستفسراً .

— كله م المقطف ده ! قال كرشة وهو يشير ناحيتى .

نظرت خلفى أتلمس شخصاً آخر يقف هناك لكننى لم أجد أحداً ، ليس فى هذه الجهة أى مقطف آخر . وشرع كرشة يحكى الحكاية ، كيف أنه صحا من النوم ليأكل تفاحة ويشرب ماء ، فإنه ليسير إذ لمح أبشم منظر يمكن أن يراه إنسان ، منظر توتو وهو يضم زازا إلى صدره ويقبلها فى ضوء القمر .

— وصيادته نايم زى البرش ! أضاف مشيراً إلى من جديد . هو نايم والتانى ناطل فيها بوس !

فراح الحاج طلبة ينقل النظر بين زازا وبينى .

— صحيح الكلام ده يا هانم ؟ سألها أخيراً .

فتنمرت زازا .

— صحيح ولا موش صحيح انت مالك ؟ صرخت فى وجهه .

— بقى كده ؟

— آه كده .

— وإيه رأى سيادتكم ؟ قال ملتفتا إلى .

عند ذلك أدركت أننى يجب أن أصحح الوضع وأرد الأمور إلى نصابها . الكرامة .

— بقى صلى ع النبى ياحاج ، قلت له ، أنا كذبت عليك لما قلت إن زازا مراتى . أنا لا جوزها ولا هى مراتى ، آه .

فانفغر فم الحاج وجحظت عيناه .

— لا انت جوزها ولا هى مراتك ؟ سألنى بدهشة بالغة .

— آه .

— وواخدها جوه تبات معاها ليه ؟ سألنى فى ذهول .

— ما تدقش ، أجبته ببساطة .

فواصل الحاج حملقته إلى .

— تبقى ندل ! قال لى فجأة .

— لا ياحاج ، ما تطولش لسانك .

— لا ياشيخ ! تستغفلنى وتستكردنى وتقول لى ما تطولش لسانك ؟ إنت فاكرنا إيه يا أستاذ ... قوادين ولا إيه ؟

فلم أجب .

— أنا عارف انها كانت باردة منى ، قلت معترفا ، إنما الحكاية انتهت . من هنا ورايح زازا حرة فى نفسها ، تتصرف على كيفها.

فسكت الحاج مفكراً .

— إنتى بايت ! صرخ فى زازا فجأة .

— بت فى عينك ! صرخت هى فيه .

فراح يحملق إليها بعين تطلق شرراً ، وفجأة رفع يده وأهوى على وجهها بقلم شديد .

— لمى لسانك يا . . . ! جأر الحاج فى وجهها .

واضعة يدها مكان الصفعة رأيت الدموع تترقرق فى عينيها ، ذقنها ترتعد كطفل صغير يبكى .

— أما متاجة صحيح اهتفت أنا فى حنق ، تمد إيدك على واحدة ست ؟ هى مراتك ؟ تقرب لك إيه عشان . . . .

ولم أكمل كلامى بسبب أنى وجدتنى فجأة جالسا على الأرض ، على أثر لكمة شديدة فى صدرى من قبضة كرشة .

— ماتطولش لسانك على الحاج يالوح !

ورفع قدمه يهدد برفصى فسكت وأبصرت زازا تجرى نحو الكوخ وهى تبكى ، دخلت وصفقت الباب وراءها . وواصل الحاج الغاضب صياحه بصوته الذى زاد الغضب من بحته .

— ودينى وإيمانى إن شفت واحد منكو هوب عليها مافى غير دهه !

ولوح بالمسدس أمام وجهى ، ومشيرا به إلى توتو الذى مازال نائماً .

— ودينى لأربيكو ياولاد الكلب ! أضاف الحاج وهو يولينى ظهره ويبتعد .

لكنه توقف وقد ذكر شيئاً .

— هات منه الشيك ! صاح الحاج يكلم كرشة .

وقبل أن يصل كرشة كنت قد أخرجت المذكور من جيبى .

— هاط جطك البلا ! قال كرشة وهو ينتش الشيك من يدى .

وقصد به إلى الحاج الذى مزقه ونثره على الأرض ، ثم ابتعد ووراءه كلبه كرشة . والتفت لأرى توتو وقد بدأ ينتبه ، استوى جالسا وراح يهز رأسه ليفيق ، ثم رفع يده يتحسس ما فى وجهه من جراح .

— كان ضرورى م البوس الليلة دى ياسى زفت؟! قلت له بغيظ.

فلم يبتسم توتو ، لأول مرة واجهنى بوجه عابس . ثم نهض فى صمت واتجه إلى البحر ، انحنى ليغرف الماء براحتيه ويغسل به وجهه . قبيل الغروب رأيته يفعل ذلك ، قبل أن يجلس لينشد أغنيته الغامضة الجميلة . راحت عليك ياتوتو ، يا أيها التمثال البرونزى الجميل . ويبدو أنها راحت على أنا الآخر وعلى زازا .

فنهضت وجلست وراء الكوخ بين العظام ، تبادلت نظرة طويلة مع الجمجمة التى تأكدت أن ابتسامتها كانت ساخرة .

الفصل التاسع



فى الصباح جائعاً فقصدت إلى شجرة التفاح ، وجدت الحاج متربعاً تحتها والسبحة فى يده ، دفتر الشيكات منشور بجانبه فى الشمس لكى يجف . باب الكوخ مقفل على زازا التى يبدو أنها خاصمتنا ، وكرشة يتسكع فى آخر الجزيرة عند البحر ، وتوتو غير ظاهر ، لابد أنه فى مكانه المختار وراء جذع الشجرة .

مررت بالحاج متجاهلا إياه ، ومددت يدى إلى الشجرة لأقطف التفاحة . بالرغم من كل ما التهمه كرشة من التفاح مازالت الشجرة محملة بتفاح جديد بين أحمر وأخضر .

— صباح الخير ، قال لى الحاج فجأة .

فتظاهرت بأننى لم أسمع .

— صباح الخير يا أستاذ ! قال ملحا .

— صباح الفل ياسيدى ، أجبته بتريقة .

وهممت بأن أبتعد بالتفاحة فنادانى .

— يا أستاذ ! تسمح بكلمة ؟

— أفندم ؟ ؟ سألته ببرود .

فابتسم الحاج .

— أنا عارف انك زعلان منى لكن حقك على ياسيدى .

فلم أجب ، اكتفيت بأن نظرت إليه فى كبرياء .

— إنت غلطت ف حقى ، أضاف ، وأنا غلطت ف حقك والمسامح كريم .

وشرح لى كيف أنه كان مضطرب الأعصاب بسبب حادث الغرق ، وكيف أنه لا يصدق حتى هذه اللحظة أنه قد كتبت له النجاة ، بالإضافة إلى أننى قد ضاعفت من اضطراب أعصابه بالفصل الذى عملته فيه أنا وزازا ، إلى آخر هذا النوع من الكلام .

— خلاص ياسيدى ، قلت له لأريحه ، اللى فات مات .

وهممت بأن أبتعد فاستوقفنى .

— إلا بحق يا أستاذ ، هو شوك السمك ده جه منين ؟

فابتسمت فى سخرية .

— من السمك اللى كلناه امبارح .

— والسمك جه منين ؟

— م البحر .

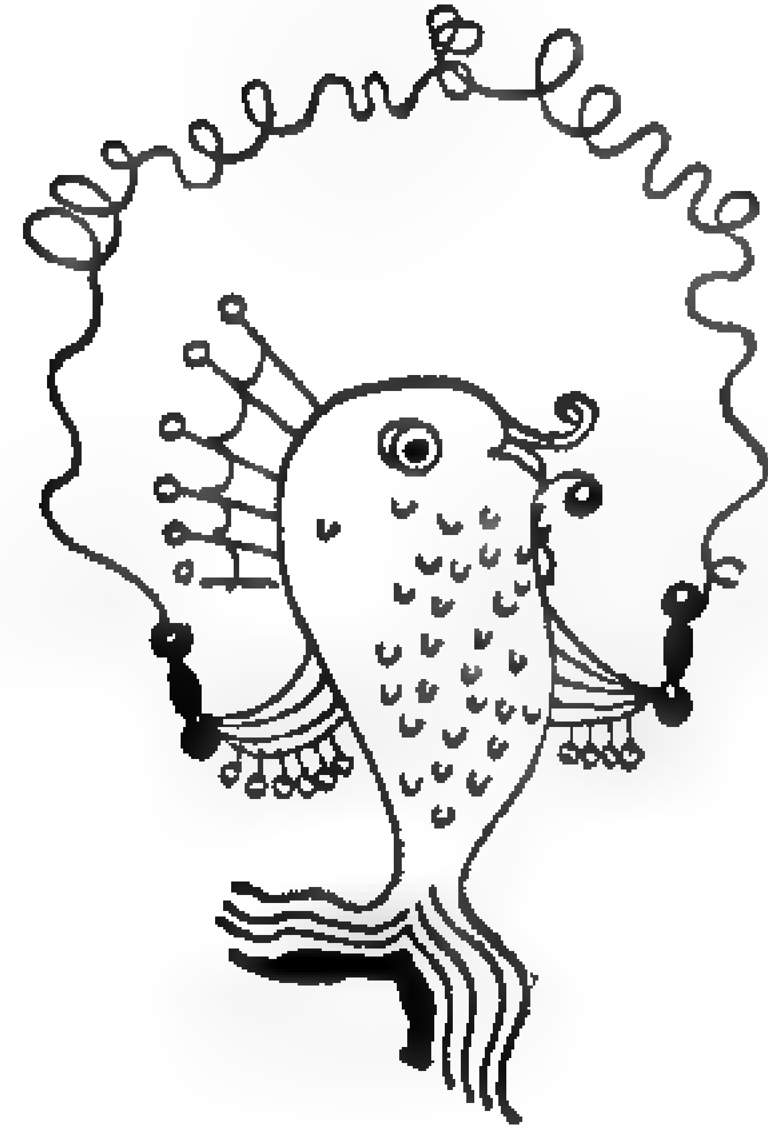
— ما أنا عارف انه م البحر ، قال محاولا كتمان غيظه ، لكن مين اللى اصطاده ؟

— توتو .

فسكت الحاج لحظة مفكرا .

— اصطاده بإيه ؟

— بالخنجر بتاعه .



فتفكر الحاج لحظة أخرى .

— كرشة ! صاح مناديا ، كرشة !

فالتفت كرشة نحونا ورأى إشارة الحاج فأقبل مسرعاً، غوريلا شنيعة المنظر تدب على الرمال نحونا .

— ما تنزل يا كرشة تصطاد لنا سمكتين ؟

— سمكتين ؟ واصطادهم بإيه ؟

— بالخنجر ده .

وأخرج الخنجر من جيبه .

— خنجر ؟ هو الخنجر يصطاد سمك ؟

— آه . الراجل ده بيصطاد بيه ، إنت اقل منه ؟

— عمرى ما سمعت ان السمك بنصاد بخنجر !

— روح جرب .

— أروح ، ، قال وهو يهز كتفيه فى غباء .

وتناول كرشة الخنجر واتجه إلى البحر . وصرير باب الكوخ وبرزت زازا بقميصها الوردى ، وقع بصرها علينا فانقلب وجهها ، وراح الحاج طلبة يتفحصها بنظرة غاضبة .

— ما لبستيش الجلابية ليه ؟ سألها الحاج بحدة .

فلم تجبه زازا ، نظرت إليه فى ازدراء من فوق لتحت .

— ما تردى على !

فأصرت على الصمت والازدراء .

— أنا لسه متوضى ! صرخ الحاج ، عايزه تدنك عريانة خليكى جوه العشة .

فراحت تزغر له حينا ثم بصقت ودخلت صافقة الباب خلفها . وأسرعت أصابع الحاج التى تداعب حبات السبحة ، واشتغلت شفتاه بالدمدمة . كانت لحيته قد تضاعف طولها ، فرفعت يدى إلى لحيتى التى حدث لها الشىء نفسه .

— ماحسستش على دقنك النهارده ياحاج ؟ قلت له .

فرفع يده إلى لحيته وسرعان مابدت عليه دهشة يمازجها الخوف .

— وبصيت لضوافرك ؟

فرفع أظافره يتأملها بعين تضاعف ما فيها من الحيرة والخوف ، فسرنى المنظر حتى ضحكت .

— بتضحك ليه ؟ سألنى .

— لا ولا حاجة .

— ليه صحيح ؟ سألنى بضعف ، انت مخبى على حاجة ؟

— لا ، بس حبيت أديلك فكرة عن الجزيرة دى !

وخطر لى أن أحكى له عن التفاح لكننى أمسكت ، حسبه اليوم هذه الجرعة من المعلومات . وكان الخوف مازال مرتسما فى عينيه اللتين راح يجيلهما حوله وهو يتشمم الهواء .

— يمكن الجو هنا فيه حاجة بطالة ؟ سألني في ارتباك .

— الله أعلم .

فصمت وزادت سرعة كل من أصابعه وشفتيه ، يستعيذ بالخالق من شر ماخلق .

— مافيش فايضة ، قال كرشة وقد وصل فجأة ، ولا صمكة راضية تنصاد .

فصوب الحاج إليه نظرة ازدراء .

— ما انت طول عمرك حمار ! قال بغيظ .

— ياحاج طلبة هو إيه .. حد صمع إن الصمك ينصاد بخنجر ؟

— والشمعنى هو صاده ؟

— لأنه ابن .. ! قال كرشة شارحاً .

فسكت الحاج على مضض ، ودقيقة من التفكير ثم التفت إلى بابتسامة سخيفة .

— ماتخلى أخينا ده يصطاد لنا صمكتين ! قال برقة غير لائقة عليه .

— حلوة دى ! أجبته ساخرا ، امبارح ترقعوه علقة والنهارده عايزينه يصطاد لكو سمك ؟

فالتمعت في عينه نظرة غيظ لكنه كبحها .

— كله يمكن يرضى ، قال مغريا ، نراضيه بقرشين .

— إنت معاك فلوس ياحاج ؟

— أكتب له شيك .

— والله معرفش إذا كان توتو يفهم في الشيكات ولا لأ .

— وشيك عشان إيه ؟ جأر كرشة معترضا ، هو موش ح يطفح معانا ؟

— أيوه لكن ح يشتغل ، قال الحاج بلهجة إباء ، وما دام ح يشتغل لازم ياخد أجرته .

ثم التفت إلى بظرف زائد .

— قوم كلمه والنبي ياسى أحمد !

سى أحمد ! وبالأمس — قبل أن يجوع الوغد — كنت نذلا وابن كلب ! وتناول الحاج دفتر الشيكات وبدأ يكتب .

— عشرة جنيه كويسين ؟ سألني .

— عشرة جنيه ! قال كرشة محتجا ، دول يجيبو طرناطة صمك .

فتفكر الحاج لحظة .

— طب والله لادى له عشرة ، قال بلهجة سخاء .

وكتب الشيك وناوله لي فنهضت قاصدا به إلى توتو ، أنا الآخر جعت واشتهيت السمك .

— تاخد ده و تصطاد لنا سمكتين ؟

فرفع إلى نظرة بلهاء من حيث جلس مستندا إلى جذع الشجرة ، وأحسست أنا الآخر أن سؤالى بالغ السخافة .

— عاوزين ناكل يابنى ، قلت له مناشدا ، جعنا .

وأشرت إلى البحر وإلى فمى وإلى بطنى الخاوية ، فلم يزد الوغد عن أن هز رأسه وابتسم . أدركت بعد حين أنى أنفخ فى قربة مقطوعة.

— أما ابن كلب صحيح ! قال الحاج فى غيظ حين عرف نتيجة مسعاى .

ثم التفت إلى بنظرة يمتزج فيها الرجاء بالخجل .

— ماتكلم اسمها إيه ، قال مشيرا برأسه نحو الكوخ .

— زازا ؟

— آه ، يمكن تقدر تقنعه !

فواجهته بابتسامة صفراء ، صفراء إلى الدرجة التى جعلته يغض النظر .

— بقى بعد ماضربتها امبارح ، قلت له ساخرا ، عايزها النهارده تتوسط لك ؟

— وهى موش ح تاكل معانا ؟ سألنى فى غيظ ، وهو انا ح اشغلها ببلاش ؟ هى رخره ح ادفع لها قرشين .

فأدركت أنها فرصة لكى أرى مشهدا لطيفاً .

— زازا ! صحت مناديا ، زازا !

فلم ينفتح باب الكوخ .

— زازا ! أعدت النداء ، تعالى عايزينك فى كلمة .

فانفتح الباب عن زازا ، واضعة يدها على خصرها تنظر إلينا متحدية .

— ممكن تيجى لحظة ؟ صحت أكلمها ، الحاج عايز منك حاجة.

فوقفت حينا ترمقنا فى ازدراء ، ثم بدأت تتقدم منا متقصعة ويدها مابرحت على خصرها . نُمرة متحفزة تقترب منا ، روح التحدى تتناثر من كل هزة فى كل جزء من جسمها تحت القميص الوردى . الحاج ثبت بصره عليها لحظة ثم أشاح عنها بوجه مكفهر .

— أفندم ؟ سألتنا فى برود حين وصلت .

— الحكاية ومافيها ، أخطرتها باقتضاب ، إننا جعنا وعايزين توتو يصطاد سمك .

— طب وانا مالى ؟ قالت أخيراً ، شأنى إيه أنا ؟

— أصلى كلمت توتو فى حكاية الصيد مارضيش ، شرحت لها ، والحاج طلبة شايف يعنى ان لكى دالة عليه ، فبيقول يعنى لو أمكن يعنى تروحى له انتى وتحاولى تقنعيه .

— بقى كده ؟ نطقت آخر الأمر بلهجة تقطر سماً ، سى الحاج جاع وعايزنى اكلم له توتو ؟

وسكتت لحظة ثم استرسلت .

— واشمعنى انا اللى اروح اقنعه ؟ ماتعرفش تقنعه انت ياسى الحاج ؟ !

فاحمر وجه المذكور حيث جلس يتشاغل بالتسبيح .

— هو انتى ح تقنعيه ببلاش ؟ صرخ فيها فجأة ، ح اكتب لك شيك ! إنتى شيك وهو شيك ، الله !

— خلى شيكاتك لروحك يادلعدى ، أجابته وهى تخلع أمامه رقبة السخرية ، مابناكلش م الكلام ده ياسى الحاج !

وبنظرة ازدراء أخيرة أولتنا ظهرها وعادت إلى الكوخ ، وقفت عند الباب ترمينا بنظراتها .

— آل اقنعه آل ، ههىء !

ضحكة خليعة ثم دخلت وصفقت الباب .

— أما بنط ... صحيح ! قال كرشة وهو يضرب كفاً بكف .

أما الحاج فلم يقل شيئاً ، وكلام كثير كان يمكن أن أوجهه إليه على سبيل الشماتة لكننى أمسكت .

— تسمح لى بالخنجر لحظة ياحاج ؟ سألت المذكور .

فتردد لحظة ثم ناوله لى .

— إيه ؟ تساءل كرشة بفرح ، ح تصطاد لنا سمك ؟

— لا ، أجبته ، ح احلق دقنى .

وأعملت الخنجر فى لحيتى بالتهذيب ثم فى أظافرى بالتشذيب ، ح يبقى لا أكل ولا عيافه ؟

— ياصلام ياصيدى ، الشياكة واخدة حدها قوى ! قال كرشة وبصق على الأرض .

وقبل أن أرد الخنجر إلى الحاج طلبة رسمت على جذع شجرة التفاح علامتين ، بعدد اليومين اللذين مرا علينا فى هذه الجزيرة اللعينة . إذا كنت سأبقى هنا حينا لجدير بى أن أعرف كم من الزمن بقيت .

وارتفعت الشمس فى السماء وبدأ الجوع يقرصنا ، هل يستطيع أحد أن يعيش على التفاح وحده ؟

زازا معتكفة فى العشة ، وتوتو مختبىء وراء جذع الشجرة ، والحاج طلبة يصلى الظهر . وكرشة نزل ثانية يحاول صيد السمك وعاد خائباً .

— بس لو تصيبنى عليه ياحاج ! قال كرشة للحاج بعد أن صلى ، والله مافى غير قلمين اطنين وينزل يصطاد زى الكلب !

فلم يجب الحاج ، وصرير باب الكوخ الذى خرجت منه زازا فجأة . على عجل مرت بنا دون أن تكلمنا ، مسحتنا وهى تمر بنظرة ازدراء شاملة . فراقبناها وهى تبتعد نحو جذع الشجرة ، دارت وراءه واختفت .

— إياك تكون جاءت وراحت تقنعه ، قلت للحاج طلبة .

ومرت دقيقة قبل أن تبرز زازا من وراء جذع الشجرة .

— يظهر انه موش راضى يقتنع ، قلت معلقاً .

— ياما نفسى اشوفها بتقنعه ازاى ! قال كرشة .

لكن الحاج لم يتكلم ، متشاغلا بالتسبيح يزغر لجذع الشجرة .

ثم برزت زازا وهى تجذب توتو من يده .

— لا والله ، قلت بفرح ، يظهر عرفت تقنعه !

لكن توتو لم ينجذب لزازا بل حدث العكس ، هو الذى جذبها فاختفيا حيث كانا وراء جذع الشجرة . ثم رنت من زازا ضحكة عالية ، وبرزت وهى تجرى وتوتو وراءها . فلما حصلها طوق بذراعه خصرها وراح يجذبها — وهى تقاومه ضاحكة — حتى اختفيا وراء الجذع من جديد .

الحاج طلبة راقب المنظر ـ أعنى تخيله ـ بعينين جاحظتين وفم مفتوح جمدت التسابيح عليه . ومن وراء الجذع وصلتنا من زازا صرخة ضاحكة نفرت لها عروق الحاج واحمرت عيناه .

— كرشة ! قال فجأة بصوت مختنق ، قوم له !

فما كاد كرشة يسمع كلمته حتى وثب يجرى ككلب الصيد ، وفى طريقه أخرج الخنجر من حزام سرواله .

— ده ح يقتله ياحاج ! قلت فى لهفة وأنا أنهض .

فلم يجب الحاج ونهض هو الآخر ، بتؤدة راح يسير نحو جذع الشجرة فى حين انطلقت أنا أجرى . الحمد لله ، وجدت أن الجريمة لم تقع — لم تقع بعد على الأقل . كان ذراع كرشة مرفوعاً إلى أعلى وقد قبض توتو على معصم يده الممسكة بالخنجر . صراع العضلات الرهيب بين الرجلين ، بين ذراع كرشة الذى يريد أن يهبط بالخنجر إلى جسم توتو ، وقبضة توتو التى تحاول إبقاء الخنجر بعيداً . لكن عضلات كرشة كانت أقوى ، أخذت يده الممسكة بالخنجر تهبط شيئاً فشيئاً ، وذراع توتو يرتعد محاولا إيقافها بلا فائدة .

— ياحاج حوشه ! هتفت فى فزع ، ده ح يقتله !

— حوشه ياحاج ابوس إيدك ! صرخت زازا .

فلم يجب الحاج ، اكتفى بأن أخرج المسدس من جيبه ووقف يرقب المشهد ، وكان الخنجر قد لامس عنق توتو .

— ياحاج حوشه انا ف عرضك ! صرخت يائساً .

لكن الحاج لم يحرك ساكنا ، فأدركت أننى يجب أن أتصرف بسرعة لإنقاذ توتو .

رفعت قبضتى وأهويت بها على يد الحاج بكل قوتى فإذا بالمسدس يسقط منها على الأرض . فانحنيت بسرعة البرق وخطفته وثبت به نحو كرشة .

— سيب الخنجر ده ! صرخت فيه مهدداً ، ارميه حالا !

رأى كرشة المسدس فى يدى فبدت فى عينيه دهشة يمازجها بعض الخوف . فلما رآنى أصوب المسدس إلى وجهه وأبدأ فى الضغط على الزناد صار خوفه رعباً واضحاً وترك الخنجر يهوى إلى الأرض ، فالتقطته وأصبحت أنا سيد الموقف . فرح وحشى جرفنى ، وإحساس مخيف بالقوة والسلطان .

— ما حدش يقرب منى ! صرخت فيهم جميعاً ، ابعدوا عنى !

يدى اليمنى تصوب المسدس واليسرى تشهر الخنجر ، تراجعت خطوتين لكى أكون على مسافة مأمونة منهم .

— جرى إيه ياسى أحمد ؟ سألنى الحاج بلهجة عتاب ، هو المسدس ده بتاعك ؟

— دلوقت بقى بتاعى ! صرخت فيه وأنا أتراجع خطوة أخرى .

— ياراجل ما تقولش كده ، قال بابتسامة صفراء ، ناولنى المسدس ناول !

وبسط يده واقترب منى خطوة .

— خليك عندك ! . صرخت وأنا أبتعد خطوة .

لكنه مابرح يقترب منى .

— ياراجل اعقل ، قال لى بنفس الابتسامة ، بلاش صغرنة !

وتقدم خطوة أخرى شجعت كرشة فبدأ هو الآخر يتقدم . الحاج طلبة باسط يده يبتسم وكرشة جاحظ العينين متدلى الفك ، كلاهما يقتربان منى ببطء كأنهما لا يبصران السلاحين اللذين فى يدى ، أو كأنهما يعرفان أننى لن أستخدمهما .

— ابعدوا عنى لاضرب ! صرخت بصوت مبحوح .

لكن صوتى لم يعجبنى ، وعرق بارد تصبب على جبينى ، فيبدو أننى لن أستخدم أسلحتى فعلا . رصاصة واحدة يمكنها أن تودى واحدا منهما وترهب الآخر لكننى فيما يبدو لن أطلقها . لم أطلق رصاصة واحدة فى حياتى ، لم أقتل ذبابة فكيف أقتل الآن إنسانا ؟ المسدس والخنجر فى يدى وأنا الذى أتقهقر أمامهما ، أمام الحاج الباسم والغوريلا اللاهثة . وكما يحدث لكثير من الناس الذين يسيرون إلى الوراء تعثرت قدمى فى شىء ما على الأرض فإذا بى أترنح وأسقط على ظهرى . وفى غمضة عين شعرت بشىء ثقيل يرتمى فوقى ، لم يكن صعباً أن أميز فيه جثة كرشة . بيده اليسرى سحب المسدس من يدى ، وبيده اليمنى سحب الخنجر ،

ثم استوى جالساً على بطنى وهو يزغر لى صامتاً . لم أعرف سر صمته إلا بعد لحظة ، عندما غمرت وجهى البصقة التى كان يحوشها فى فمه.

— أفتح كرشة ياحاج ؟! قال المذكور حيث جلس فوق .

— لا سيبه ، قال الحاج باسما ، ده راجل طيب !

فبدا الأسف على وجه كرشة .

— والله نفسى أوضبه ، قال وهو ينهض عنى .

المسدس عاد إلى يد الحاج طلبة والخنجر عاد إلى يد كرشة ، كلاهما بدآ يزحفان نحو توتو .

— انزل اصطاد يابن الكلب ! قال الحاج لتوتو وهو يشير إلى البحر ، ارمى له الخنجر ع الأرض يا كرشه !

فتردد كرشة لحظة ثم ألقى بالخنجر بالقرب من توتو .

— قولى له ينزل يصطاد ، قال الحاج لزازا ، ودينى ان مانزل لاسيح دمه !

تناولت زازا الخنجر بسرعة وقدمته إلى توتو .

— انزل والنبى ياتوتو ، قالت له راجية وهى تطبطب على ظهره، عشان خاطرى ياتوتو !

فتناول توتو الخنجر ، تقبضت يده عليه كما تقبضت كافة عضلاته ، فرفع الحاج المسدس وبدأ يضغط على الزناد .

— إنزل ياتوتو ! صرخت زازا فى يأس ، أبوس إيدك انزل ! فظل توتو يحملق لحظة إلى فوهة المسدس وقدبدا عليه الخوف، ومالبث أن أولانا ظهره واتجه إلى البحر فى صمت .

— اقف اتفرج عليه عشان تتعلم منه ، قال طلبة لكرشة .

وانتبهت أنا إلى أننى مازلت جالسا على الأرض فنهضت وأنا أمسح عن وجهى بصقة كرشة .

والتفت الحاج إلى ، ورمانى بنظرة قاسية وهم بأن يقول شيئاً ثم عدل . والمسدس وضعه فى جيبه وقصد إلى جذع الشجرة فجلس بجانبه ليرقب الصيد .

أنا نظرت إلى زازا التى راحت تنقل بين الجميع نظرات حائرة .

— متأسف يازازا ، قلت لها بالإنجليزية ، يظهر انى مقدرش اقتل أبداً .

فراحت ترمقنى بما خيل إلى أنه نظرة احتقار .

— على كل حال كتر خيرك انك أنقذت حياته ، قالت أخيراً .

— النبى هربى ياحضراط ! أخبرنا كرشة .

فسكتنا .

فى أقل من ساعة كان توتو قد صاد — بعددنا — خمس سمكات، ثم أعد الوقود وأشعل النار وجلس يشويها حتى نضجت .

— شيل السمك ده يا كرشة ! قال الحاج ، وديه لى هناك تحت الشجرة .

لحمل كرشة السمك وسط نظراتنا المندهشة واتجه به إلى شجرة التفاح ، أما الحاج طلبة فأخرج دفتر الشيكات والقلم وكتب شيكا .

— السمك ده يادو بك على أد غدايا ، قال لزازا ، ماوزين تاكلو خلوه يصطاد تانى . وآدى شيك بخمسة جنيه اديه لسى زفت ! آه ، أنا احب آكل بفلوسى .

لم تمد زازا يدها نحو الشيك ، وقفت تحرق الحاج بنظرة ازدراء . فألقى الحاج بالشيك على الأرض وانقلب نحو شجرة التفاح .

— شوف ابن الكلب ! قالت لى زازا ، شوف السافل !

فوجدتنى لجأة أضحك وأضرب كفا على كف ، ثم وجدت أنه لامناسبة للضحك فكففت .

— مكسوفة اقول لتوتو يصطاد تانى ، قالت زازا .

— والله لكى حق ، أجبتها باستسلام .

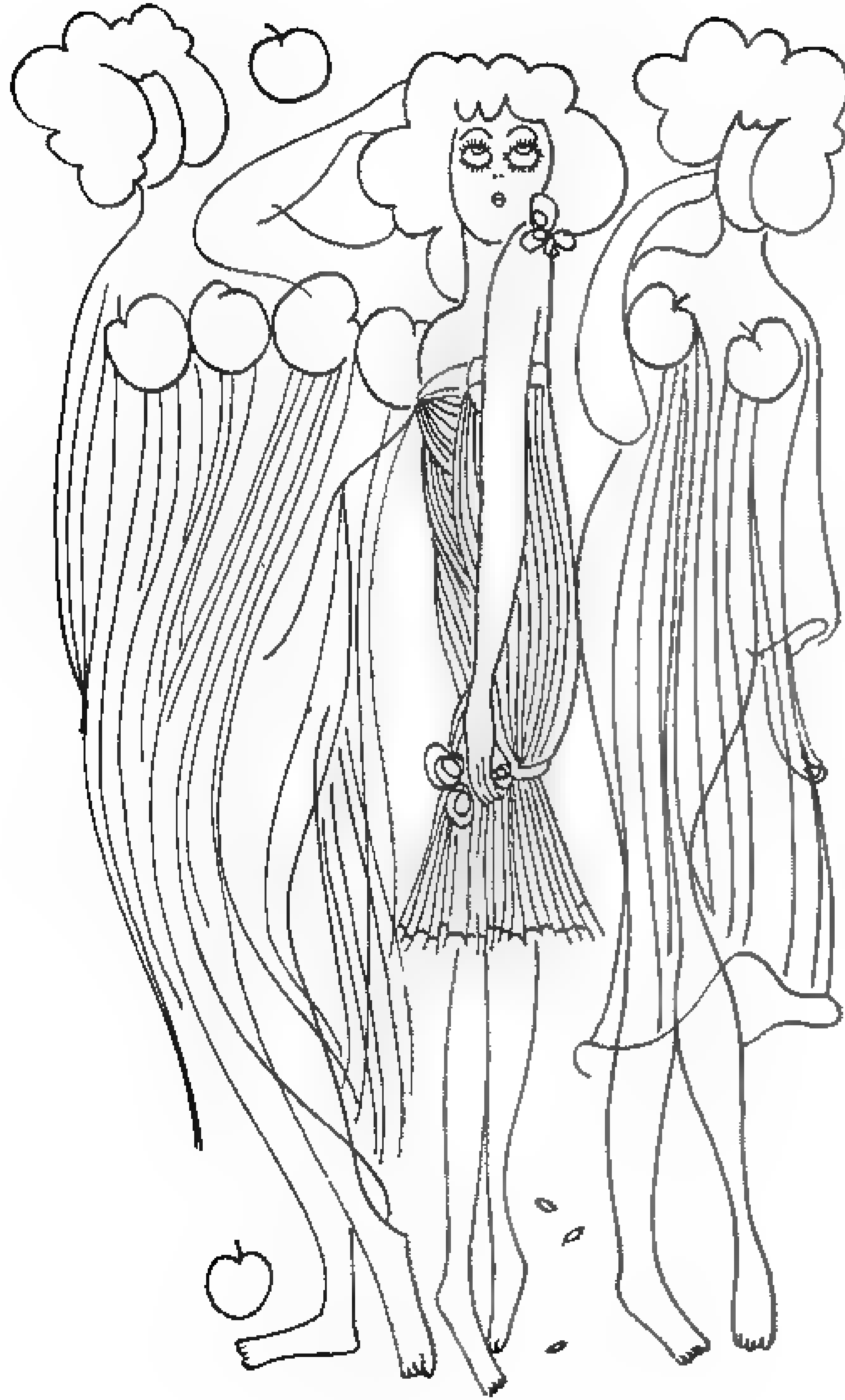
— تزازا ! قال توتو لجأة وهو يبتسم .

وبسرعة راح يجرى بالخنجر نحو البحر ،عاود الصيد من جديد .

الفصل العاشر



توتو ثلاث سمكات تشاركنافيهاهو وزازا وأنا ، أكلت سمكتى من فرط الجوع حتى ذيلها. والحاج طلبة كمافهمت أكل فى الغداء سمكتين وأعطى كرشة واحدة ، واحتفظ باثنتين للعشاء . زازا أكلت واعتكفت فى العشة ، وتوتو لاذ بمحله المختار وراء جذع الشجرة ، أما أنا فذهبت لأنام حيث تنام الجمجمة . نمت وصحوت عدة مرات ، فى كل صباح أضيف علامة جديدة على جذع الشجرة ، صارت العلامات كلها سبع علامات . وبالخنجر أهذب لحيتى أيضاً ، وأقص أظافرى التى تصر على أن تتحول فى اليوم الواحد إلى مخالب . ثم ينتقل الخنجر إلى توتو الذى صار كل يوم ينزل للصيد من نفسه ، جانب من السمك يأخذه الحاج وكرشة



فى مقابل شيك ، والباقى أتشارك فيه مع توتو وزازا . فإذا جلسنا مع زازا فعين الحاج طلبة دائماً علينا ، أو كرشة يحوم حولنا من بعيد ، لكى يستوثقا من أنه لايوجد فى جزيرتنا حب . ونسيت أن أخبرك أن زازا قد اضطرت إلى ارتداء جلباب كرشة ، وذلك بعد مشاجرة بينها وبين الحاج كادت تنتهى كالمشاجرة السابقة بالضرب . قصرت ذيل الجلباب لكى يناسبها وحولت الكم الطويل إلى كم قصير ، والجزء الذى قصته من الذيل صنعت منه حزاماً ربطته حول خصرها . بالرغم من فكاهة منظرها لم تزل شهية فاتنة .

ــ والله عال يا كرشة ، قال المذكور متصعباً ، عشط وشفط جلابيطك فسطان !

ورفعت زازا ذراعها لكى تهرش تحت إبطها .

ــ والنبى الجلابية دى ماهى خالصة ، قالت وهى تهرش بشدة ، ياريتنى جبت معايا دى دى تى !

وظللت مدة على خصام مع الحاج طلبة ، أتحاشاه ويتحاشانى ولا نتبادل حتى تحية الصباح .

ثم بدأ هو بإعادة العلاقات .

ــ اللى مافى مركب واحدة فاتت ، قال لى فى غيظ ، ولاجنس مركب توحد الله !

ورفع يده يتحسس لحيته المتدلية ، إذ كان لايهذبها كثيراً .
سرح بصره فى أرجاء البحر يبحث عن سفينة ، البحر العريض الصامت صمت القبور ، والأفق المستدير الذى يحاصرنا من كل ناحية كطوق من حديد .

— إنت موش بتقول انك مهندس مراكب ؟ سألنى لجأة .

— أظن قلت حاجة زى كده ، أجبته بجفاء .

فتجاهل جفائى وسكت لحظة يفكر .

— طب ماتبنى لنا مركب ؟ قال بتردد كأنه هو نفسه يستسخف الاقتراح .

— بس كده ؟ أجبته بتهكم ، بكره الصبح تكون المركب جاهزة !

— أنا موش باهزر ، قال وهو يحاول كتمان غيظه ، أنا باتكلم جد .

— طيب ممكن ولا مؤاخذة تدينى فكرة أبنيها بإيه ؟

فأشار إلى جذع الشجرة المقطوع .

— شوية هندسة ويبقى مركب ، أخبرنى .

رجل غويط ـ قلت فى نفسى ـ خطرت له نفس الفكرة التى خطرت لى مرة وأنا أهذب لحيتى ، لكن أين الأدوات التى تحول الجذع إلى مركب ؟

— فين عدة الشغل ؟ سألته .

— الخنجر والمنشار وشوية صبر !

تماماً كما خطر لى مرة وأنا أقص أظافرى ، وغد ماكر .

— شوية صبر ياحاج ؟ ! سألته لائماً .

— طولة البال تهد الجبال ، واحنا اربع رجالة طول وعرض !

ثم ضيق عينيه ورمقنى بنظرة خبيثة .

— تاخد كام وتبنيها ؟ سألنى بلهجة كريهة .

فرأيت أن أفكر قبل أن أجيب . هى فكرة لا تخلو من الوجاهة لمن يريد أن يغادر الجزيرة ، ومن منا لايريد مغادرتها ـ على الأقل بعد وصول سيادة الحاج وكلبه كرشة ؟ فإذا تم تحويل الجذع إلى زورق ونجحنا فى الخروج به إلى البحر العريض ، أليس من المحتمل أن نصل إلى أرض آهلة بالسكان ؟ وإذا نجحنا فى ذلك فلماذا لا أكون قد خرجت من هذه المحنة بمبلغ دسم ينفعنى فى مستقبل حياتى ؟ إننى فى جميع الحالات لن أخسر شيئاً .

فتنحنحت قبل أن أتكلم .

— ألف كويس ياحاج ؟ سألته ببساطة .

— ألف ! هتف الحاج ، ألف إيه ؟

— ألف جنيه طبعاً ، قلت بهدوء .

— ألف جنيه ! زمجر الحاج ، هى نهيبة يا أستاذ ؟ !

فرشقت إبهامى فى حمالة الفانلة .

— موش عاجبك شوف لك مهندس غيرى ،أنا تسعيرتى كده ، أجبته بكبرياء وأنا أنصرف عنه .

وعلامة ثامنة وتاسعة رسمتها على جذع شجرة التفاح ، صارت هناك عشر علامات . وزازا أقبلت لتقطف تفاحة ، ثم جلست على الأرض تأكلها وقد شرد بصرها إلى البحر .

— احنا لازم نشوف لنا حل ، قالت أخيراً ، شوف لازم يعنى إيه ؟

— حل لإيه ؟ سألتها باسما .

— للعيشة الهباب دى !

— عندك فكرة ؟

— المصيبة انى ماعنديش ، إنت اللى عامل لى فيلسوف .

— تنفع بإيه الفلسفة قدام مسدس وخنجر وغوريلا ؟

— أنا عارفة ليه ما غرقوش ؟ كانت ساعة نحس يوم ماطلعوا !

أى والله ، كانت شفتاى على شفتيها ، وكان توتو ينشد أغنية جميلة فى ضوء الشفق الأحمر .

— جبنا سيرة القط ! قالت زازا .

إذ أقبل الحاج طلبة علينا وراح ينقل بيننا نظرة فاحصة ليتأكد من أننا لانحب بعضنا ، ثم مد لى يده بورقة تبينت أنها شيك .

— خد ياسيدى ولا تزعل ، قال بسخاء ، آدى شيك بخمسميت جنيه .

فنفخت ساخرا .

— ياحاج طلبة أنا موش بتاع فصال ، أفهمته ، أنا عمرى ماخدت مقاولة باقل من ألف جنيه .

فرمقنى بغيظ يحاول أن يداريه بابتسامة صفراء .

— ياراجل ماتبقاش طماع ! هوات موش ح تركب معانا فيها؟

فرفعت يدى لأقفل الموضوع .

— أرجوك ياحاج ، ما تضيعش وقتك ووقتى .

وأوليته ظهرى فجذبنى من حمالة الفانلة .

— طب خليهم سبعمية ، قال مساوما .

— ألف يعنى ألف .

— طب تمنمية .

— ٩٩٩ لأ ، أجبته بحزم .

فملأ صدره بالهواء ونفخ ، ثم مزق الشيك الذى فى يده وشرع يكتب شيكا آخر .

— ياساتر ، دنت صعب بشكل ! قال وهو يناولنى الشيك الجديد بالألف .

تناولته ببساطة لكى لا يكتشف فرحتى بهذا المبلغ الذى لم أقبضه قط فى حياتى ، طويته ودسسته فى عبى . وكانت زازا تتابع حديثنا بعينين واسعتين .

— ألف جنيه بتوع إيه ؟؟ تساءلت فى دهشة ، إنت ح تعمل إيه؟

فرشقت إبهامى من جديد فى حمالة الفانلة .

— ح ابنى مركب ، قلت لها ببساطة وأنا أتجه نحو جذع الشجرة فى خيلاء .

لكننى كنت أشعر أن فرحتى بالصفقة ليست خالصة ، وخزة من الشك تفسدها على . فمن أدرانى — كما تساءلت مرة قبل ذلك — أن شيكات الحاج طلبة لها رصيد هناك ؟



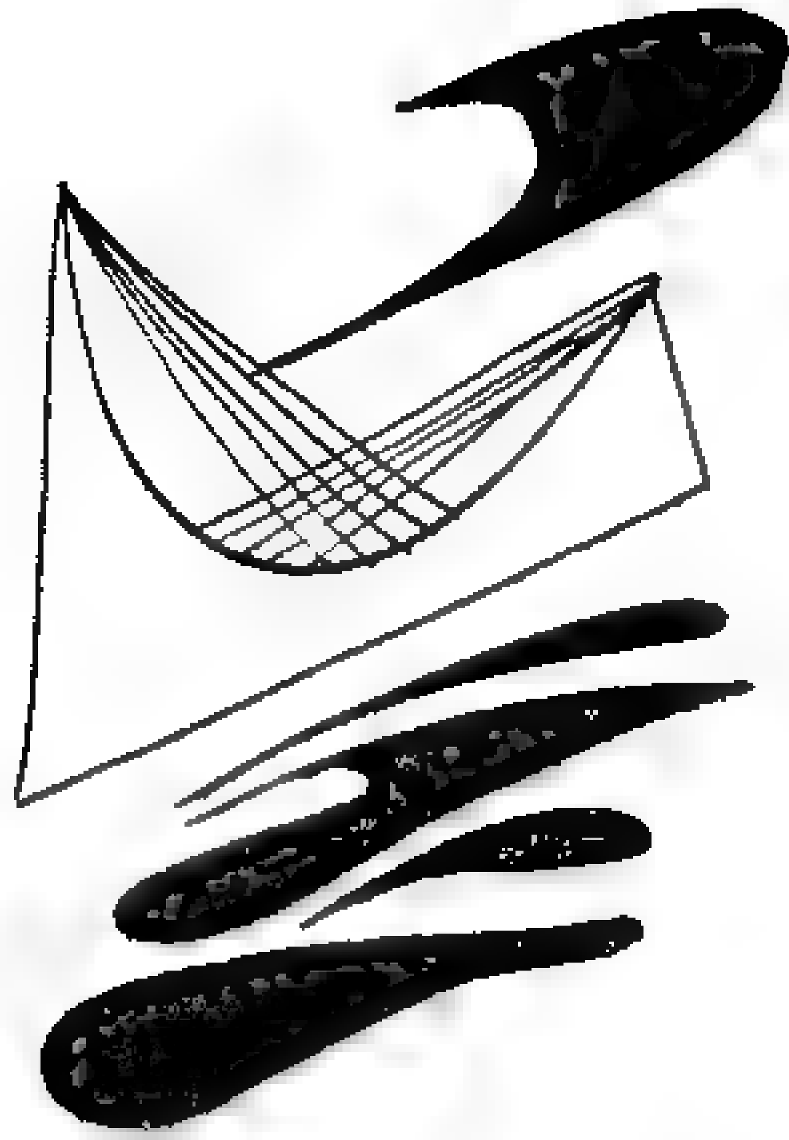
الفصل الحادى عشر



يكن إغراء توتو بالعمل صعباً ، كان توتو دائماً يحب العمل . وكان سريع الفهم لما أكلفه به ، بعكس كرشة الذى كان لايفهم الشىء إلا بعد أن يعاد عليه مرات . وأنا على أى حال لم أكلفهما بالكثير ، لاشىء غير الحك فى ظهر الجذع بالخنجر والأداة الصخرية الأخرى ، تلك العملية التى نرجو أن تؤدى على مر الزمن إلى تفريغ الجذع من الداخل وتحويله إلى زورق .

— موش ترسم لهم علامات على الخشب ؟ سألنى الحاج .

— لسه بدرى ، أجبته بإيجاز على .



لم أكن مجنوناً حتى أرسم لهم خطوط العمليـة الكاملة واكشف عن أوراق كلها مرة واحدة . أنا الآن مهم لأنى مسئول عن بناء المركب ، ولكن أحتفظ بهذه الأهمية يجب أن أقدم تعليماتى بالقطارة .

— اشمعنى سى طوطو يشتغل بالخنجر وأنا بالهبابة دى ؟ تساءل كرشة .

فجعلتهما يتناوبان استخدام الخنجر .

— وانتو ان شاء الله ح تقعدوا تتفرجوا عليهم ؟ ! تساءلت زازا ساخرة منى ومن الحاج طلبة .

— إزاى بق ؟ قال الحاج معترضاً ، لازم كلنا نشتغل .

وتناول الخنجر من كرشة وراح يعمله فى الخشب نحو ربع ساعة ، لم يتوقف إلا عندما تذكر فجأة أنه يجب أن يتوضأ ويصلى الظهر .

— خد ياباشمهندس ، قال وهو يناولنى الخنجر .

فرحت أشتغل بدورى نحو ربع ساعة ، لم أتوقف أنا الآخر إلا عندما خطرت لى فكرة هندسية تحتاج منى إلى ساعة من الحسابات على الورق .

— والنبى تاعبين نفسكو ع الفاضى ! قالت زازا وهى ترقب العمل .

— والله انا برضك باقول كده ، وافقها كرشة .

وكانت عملية خرافية حقاً ، محاولة تفريغ الشجرة بخنجر وقطعة صخر . والشمس قطعت رحلتها عبر السماء ومالت للغروب ولم يحدث فى الجذع أكثر من بعض الخدوش الشبيهة بما كان فيه من البداية .

— الصبر ياجماعة ، الصبر ! قال الحاج طلبة حيث جلس يسبح بعد صلاة المغرب .

وتعشينا مثلما تغدينا بالتفاح فقط ، لم يوافق الحاج على تضييع وقت توتو فى صيد السمك وشيه .

— آهه يوم سمك ويوم تفاح ، قال الحاج بعد أن صلى العشاء .

وبحلول الظلام كان ضرورياً أن يتوقف العمل ، الليلة ليست مقمرة والنار التى أشعلناها لم تكن كافية . خمستنا جلسنا حول النار فى صمت ، وهج النار يلقى على وجوهنا ظلالا متراقصة .

— مطهيألى الدنيا برضت شوية ، قال كرشة وهو يدعك بيده صدر الفوريلا .

وكان الجو قد تغير فعلا عن ذى قبل ، لم يعد جو الصيف الذى يستحب فيه نوم الخلاء . عشر علامات رسمتها على الشجرة ، أيمكن أن تكون كافية لانتهاء الصيف الذى لم يبدأ إلا منذ شهر واحد ؟

— تفتكر الشغلانة دى تاخد لها أد إيه ياباشمهندس ؟ سألنى الحاج طلبة .

— شهرين . . تلاتة . . أربعة . .

— قول خمسة ستة سبعة ! قال كرشة .

— قول تمانية تسعة عشرة ! قالت زازا ضاحكة .

ثم نهضت متهيئة للانصراف .

— تصبحوا على خير ياحضرات ! قالت وهى تبتعد .

تبتعد وهى تترنم بأغنية انجليزية ، تلك الأغنية التى تبينت بعد

قليل أنها ليست أغنية ، وإنما هى كلمات عادية لحنتها زازا موجهة إياها إلى شخص يعرف الإنجليزية .

— ألا يمكنك ، ترنمت ، بعد أن يناموا ، ترنمت ، أن تأتى إلى الكوخ قليلا ؟

فكاد قلبى — وقد فهمت — يقفز من حلقى ، فمن غيرى يعرف الإنجليزية حتى توجه إليه هذا النداء ؟ وابتعدت زازا وهى تترنم على إيقاع من دقات قلبى ، ستة عيون غيرى راقبتها وهى تتراقص نحو الكوخ فى جلباب كرشة .

— ماوزين تنام علشان نصحى للشغل بدرى ، قال الحاج طلبة حين أقفل باب الكوخ على زازا .

— آهه ده عز العقل ! أجبته وأنا أنطرح على الأرض .

وانطرح الحاج هو الآخر غير ناس أن يحكم ثنى جلبابه على جيبه ، وكرشة نام على ظهره كالقتيل . أما توتو فتركنا ومضى إلى ماوراء جذع الشجرة . فأغلقت عينى متظاهراً بأنى سأنام ، كأن رجلا يستطيع أن ينام وفى صدره هذا القلب المجنون . عقدت يدى تحت رأسى ورحت أحاول ترتيب أفكارى المحمومة . هل ألبى النداء وأذهب إلى زازا ؟ إنى أعرف أنى سألبيه حتما ، كيف بالله عليك لا أفعل ؟ لكن أليس جديراً بى أن أفكر فى العواقب ؟ رصاصة تستقر فى صدرى أو خنجر يغوص فى بطنى ،

أو على الأقل علقة حامية تحطم ضلوعى ؟ لكنهم من ناحية أخرى لا يستطيعون اليوم إيذائى بشدة ، أنا المهندس الذى فى يده خلاصهم . لا أظن أن أحدا سيقتلنى أو حتى يضربنى ، سيكتفون فى أغلب الظن بتهزيئى ، فمن الذى لا يغامر بالتهزىء تلبية لأغنية زازا ؟ ؟ من لا يفعل ذلك فلا شك أنه مهزأ من الأصل .

ارتفع غطيط كرشة فازداد خفقان قلبى ، وازداد أكثر عندما أجابه شخير الحاج طلبة . لكننى لم أنهض من فورى ، انتظرت حتى يغرقا فى النوم . نعم أنا المهندس الذى سيخرجهم من هنا ، جدير بى أن أستمتع ببعض الامتيازات . بأى حق يتحكم فى الحاج طلبة ويعلمنى مبادىء السلوك ؟ الشيك الذى أعطاه لى هو أجرى عن العمل ، أما حريتى فلا أذكر أنى بعتها لأحد .

غرق الرجلان فى النوم فنهضت بحذر شديد ، جثوت على يدى وركبتى ورحت أزحف نحو الكوخ . فى الظلام أسعى نحو الكوخ كالحيوان ، أليس غريباً أن يسعى الرجل إلى الحب وهو يسير على أربع — خاصة وهو رجل مهندس ؟

فلما بلغت باب الكوخ لم أطرقه وإنما نقرت عليه بأظافرى ، سرعان ما انفتح بصرير خافت .

— إنت فين ؟ أتانى صوت زازا .

— أنا اهه ! أجبتها هامسا من حيث جثوت .

— ومالك ماشى كده ؟ سألتنى فى دهشة حين رأتنى .

— هس ! قلت لها محذراً .

ودفعت الباب برأسى ودخلت ، مصراً لسبب لا أدريه على مواصلة السير على أربع . فلما أقفلت زازا الباب نهضت كالمحموم أتلمسها فى الظلام .

— إنت . .

— هس ! قاطعتها من جديد ، بلاش كلام ليسمعونا !

وألقيت ذراعى حولها وضممتها إلى صدرى ، بقوة نهلت من عطرها فى شراهة رجل عطشان ظمآن صديان وقعت يده — بعد أن كاد ييأس — على شوب بيرة مثلجة . وسمعت من تلاحق أنفاس زازا ما دلنى على أنها لا تختلف عنى كثيراً . لحظة من النشوة ما كان أمتعها ، وما كان للأسف أقصرها . إذ شعرت بشىء يرتطم بظهرى حيث وقفت ، باب الكوخ الذى انفتح فجأة بعنف مع صوت الحاج طلبة .

— والله عال ياباشمهندس ! والله عال قوى ، عال قوى قوى !

فالتفت لأواجهه هو وكرشة ، كرهتهما كما لم أكره أحدا

من قبل . وكان كرهى مشوبا بثورة مدمرة ، قررت فجأة أن أطالب بحريتى .

— هو إيه اللى والله عال ؟ ! صرخت فى وجهه ، إنت مالك ومالى ؟ ! بأى حق تدخل علينا ؟ حاشر نفسك بينا ليه . .

— لا ياشيخ ! جأر الحاج طلبة ، ولك عين تتكلم كمان ؟ إنت فاكرنا إيه يا أستاذ ؟ فاكرنا قوادين والا إيه ؟

ومن صوته عرفت أنه لن يقبل ثورتى ، فرأيت أن أحاول حل المشكلة بالمنطق البارد — إذا كان للمنطق البارد يمكن أن يحل شيئاً .

فنفخت كل الهواء الذى فى صدرى وخرجت من الكوخ .

— بقى صلى ع النبى يا حاج ، قلت له بأهدأ صوت عندى ، أنا باحب زازا وعايز اتجوزها ، عندك مانع ؟

فسكت لحظة يستوعب كلامى .

— تتجوزها ؟ سألنى بعد حين ، تتجوزها ازاى بقى ؟

— زى كل الناس ما بتتجوز ؟

— وفين المأذون اللى يجوزها لك ؟

— هى الدنيا طول عمرها فيها مأذون ؟ الجواز ورقة نكتبها وانت وكرشة اتنين شهود !

فأُفحم الحاج لحظة ، لكنه لم ييأس .

— واحنا نعرف منين انه جواز بحق وحقيق ؟ ما يمكن الحكاية كلها نصب .

— با قول لك نكتب عقد .

فسكت الحاج طلبة ، ثم رفع يده ليهرش رأسه وهو يفكر .

— إن جيت للحق ، قال أخيراً بلهجة جديدة ، البت دى عايزه حد يلمها !

— بس ما تقولش بت ! قالت زازا .

— لكن تفتكر انك تقدر تلمها ياباشمهندس ؟ سألنى الحاج بابتسامة كريهة .

— مقدرش ليه ، صغير ؟

— افرض ان الطور اللى هناك ده ، قال مشيرا إلى جذع الشجرة حيث يوجد توتو ، جه اتهجم عليها تانى ، ح تقدر سيادتك تحوشه ؟

— ياسيدى ابقى حوشه انت !

— حاجة لطيفة قوى ! سيادتك تتجوز وانا اشتغل لك غفير ؟

— على كل حال ماتحملش هم ، أما يتهجم عليها ابقى اتصرف انا .

— وافرض انه قتلك ؟

— فى ستين داهية !

— والمركب يا أستاذ ؟ مين يبنى المركب ياباشمهندس ؟ إنت فاكر ان حياتك ملكك انت بس ؟

فأدركت أننا نتجادل فى الهواء .

— ماهو شوف بقى ياحاج ، قلت بحزم ، إما إنى انجوزها وإما إنى موش عامل لكو المركب . قلت إيه بقى ؟

— لا ياشيخ ! زمجر الحاج ، والشيك اللى ف جيبك يا أستاذ ؟

— اتفضل ، قلت وأنا أخرج الشيك من عبى ، بله واشرب ميته !

فما كدت أقولها حتى وجدت نفسى جالساً على الأرض ، على أثر زغد فى صدرى من يد كرشة . يبدو أننى سأقضى نصف وقتى فى هذه الجزيرة مبروشا على الأرض .

— ما تطولش لسانك على الحاج !

— سيبه يا كرشة ، قال الحاج ، قوم ياباشمهندس .

ومد يده يساعدنى على النهوض وبدأ يتكلم بهدوء .

— شوف ياسى أحمد ، قال الحاج طلبة ، احنا متفقين على إن البت دى لازم تتلم ، موش كده برضه ؟

— وباقول لك المها موش راضى .

— ما تضحكش على نفسك ، موش انت اللى تقدر تلمها !

فبدأت أفهم .

— ما تحطها على بلاطة وتريحنا يا حاج ، قلت له ساخرا .

— يعنى إيه ؟ سألنى .

— يعنى قول انك انت عاوز تتجوزها ، أجبته .

فسكت حينا يتفكر ، ثم تفشت فى وجهه بسمة حياء أبله .

— وحد يتأوصل لست زازا ؟ ! قال وهو يغض البصر .

فرت من زازا ضحكة صغيرة .

— ثم انت ح تتجوزك على إيه ؟ استرسل الحاج طلبة ، ماهيتك كام فى الشهر ؟ عشرين تلاتين جنيه ؟ الست زازا عايزه راجل مقتدر . راجل ملو هدومه ، يلبسها وينغنغها ويعيشها عيشة ملوك ، ولا انا غلطان يا ست زازا ؟

فلم تجب زازا من فورها ، راحت تنقل النظر بيننا حينا ثم بدأت تضحك . فى جلباب كرشة رأيت جسمها يترجرج من شدة الضحك حتى تهالكت على ركبتيها ، ورفعت يديها إلى وجهها لتستر بهما ضحكها . فلما رفعتهما بعد حين كان وجهها مبللا بالدموع .

— ماهو شوفوا اما اقول لكم ، قالت بصوت متهدج ، اتفقوا مع بعض وشوفوا لى عريس ! أنا عايزه اتجوز وخلاص !

وبسرعة نهضت وانطلقت تجرى نحو الكوخ ، دخلت وصفقت الباب خلفها .

— جالك كلامى ياباشمهندس ؟ قال لى الحاج طلبة ، البت عايزه راجل يلمها !

فأحسست فجأة أننى أريد أن أبكى .

— طب والله العظيم مانا عامل لكو المركب ! هتفت بصوت تخنقه الدموع .

فصوب الحاج إلى نظرة طويلة قاسية .

— طب إيه رأيك انك ح تعملها ؟ قال لى بهدوء .

— لأ مش عاملها ! قلت متحديا .

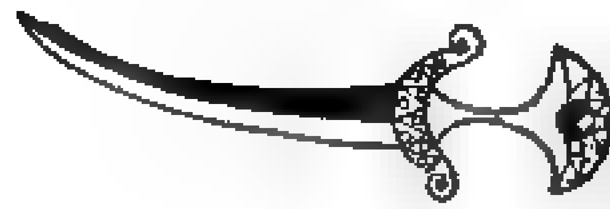
— لأ ح تعملها .

— لأ موش عاملها !

وهنا تدخل كرشة .

— الله انت لمض كده ليه ؟ الحاج قال لك ح طعملها يعنى ح طعملها ، آه !

وزغد جديد فوجدتنى مبروشاً على الأرض . يبدو أننى سأعملها .



الفصل الثانى عشر



يكتف الحاج طلبة ـ فى الصباح ـ بأن يتزوج زازا بدلا منى،وإنما طالبنى بأن أشهد على الزواج مع كرشة.

— سبحان الله ! قلت له فى مرارة ، بقى تخطف الولية منى وعايزنى اشهد على جوازكم ؟

فلم يجب الحاج .

— ح طشهض ، أخطرنى كرشة ، يعنى ح طشهض !

فشهضت .

وبينما أخذ الحاج يد زازا فى يده ليقرأ الفاتحة رأيت صدرها يهتز بضحكة مكتومة وقد تورد وجهها حياء.لم يتورد وجهها عندما قبلتها أو عندما قبلها توتو،فالخجل فيما يبدو لا يصيبها إلا من العقود

الرسمية . عقد الزواج كتبه الحاج على ظهر شيك سوف تجده بين هذه الأوراق إن هى وصلتك ، وعلى العقد وقع الحاج ووقعت زازا ووقعت أنا ، وكرشة بل إصبعه بريقه وبصم . ثم طوى الحاج عقده وأودعه فى جيبه مع السبحة والمسدس ودفتر الشيكات .

— مبروك ياحاج ، قال كرشة ، مبروك ياسط طاظا !

— الله يبارك فيك يا كرشة ، أجابه الحاج ، ومن هنا ورايح موش عايزك تقول ست زازا . هى اسمها الحقيقى إيه ؟

— عظيظة !

— خلاص ، تبقى تقول ست عزيزة .

— مبروك ياست عزيزة ، قلت ساخرا .

— يالله ياعزيزة اجرى ع البيت ، قال لها الحاج بلهجة الزوج الذى أصبح فجأة قواما .

فاهتز صدر زازا بضحكة صغيرة ثم نهضت متجهة إلى الكوخ ، لم تنس قبل إقفال الباب أن تلتفت نحوى وتخرج لسانها .

— عقبال البكارى ياحاج ! قال كرشة .

فتجاهل الحاج كلمته .

— إحنا ليه قاعدين من غير شغل ؟ تساءل الحاج طلبة مشيرا إلى جذع الشجرة.

— ح نشتغل فى يوم فرحك ياحاج ؟ قال كرشة معترضاً ، أنا باقول ناخد النهارده أجازة .

فتفكر الحاج لحظة .

— زى بعضه ياسيدى ، قال متساهلا ، خدوا النهارده أجازة .

وتفكر لحظة أخرى ثم أشار إلى توتو الذى راح يتسكع بعيدا .

— وخلى الجدع ده يصطاد لنا سمكتين .

— وجب ياحاج .

وسكت الحاج طلبة حينا ثم تثاءب وتنحنح ، ثم بسط ذراعيه يتمطع ، وأخرج السبحة ونهض متثاقلا ، بدأ يتحرك نحو الكوخ على مهل . ببطء وتؤدة يسير ، طويلا عريضا حافيا يداعب حبات السبحة المتدلية من يده ، آل يعنى ابن الكلب رايح يسبح ! أنا وكرشة تابعناه وهو يبتعد بنظرات تقطر حسدا ، لأول مرة تشاركت مع كرشة فى شعور واحد . فبينما راقبت الحاج متجها إلى الكوخ ساورنى مع الحسد شعور آخر غريب ، شعور بالراحة لأننى لست أنا الذى يتجه إلى ذلك الكوخ ! لم يكن فى إمكانى أن أحتمل على ظهرى هذه النظرات الحاسدة ، كأن الحاج كان مصيبا حين قال أننى لا أستطيع أن أحمى زازا . هو وحده الذى — بالمسدس وبعضلات كرشة — يستطيع أن يحميها ، إذا صح أنه من الممكن لزازا — أو من اللازم — أن تحمى .

— هع ! قال كرشة حين دخل الحاج وأقفل الباب ، أما حكاية ياولاض !

وبفم مفشوخ بابتسامة كريهة ، وجفون متهدلة على عيون الغوريلا ، راح يحدق فى الباب الذى أغلق على الحاج وزازا . وشعور غريب آخر دهمنى فجأة ، أننى لست أكره كرشة كما يجب أن أكرهه . هو ضربنى وأذلنى وقد يضربنى ويذلنى فى أية لحظة ، ومع ذلك لا أكرهه . بل يخيل إلى أنه كان من الممكن لو تغيرت الظروف أن أحتمل شيئاً من الميل إليه .

— صلامات ياسطاز ! قال فجأة بلهجة تريقة ، إنت آنصتنا قوى !

— الله يآنصك ! أجبته بنفس اللهجة رافعاً يدى إلى جبينى بالسلام .

— طب والنبى انط راجل طيب ، أضاف كرشة مستهزئاً .

— ده بس من أصلك .

— هع ! تقصع كرشة ، هع !

فرحت أتفرج عليه حينا لكى أستوعبه .

— إيه ؟ سألنى ، بتشبه على ؟

— ممكن أسألك سؤال ؟ قلت له بهدوء .

— إصأل ، احنا ورانا حاجة ؟

— إنت ولامؤاخذة ما لكش غية فى الدنيا غيرضرب الناس ؟

فلم يجب من فوره ، راح يتفحصنى من تحت جفونه المتهدلة بنظرة مستريبة .

— يعنى إيه بقى ؟ سألنى أخيراً .

— يعنى من يوم ما شرفت هنا ، شرحت له ، ما شفتكش بتعمل حاجة غير يا تضربنى ياتضرب توتو . إحنا أذيناك فى حاجة ؟

— يعنى إيه ، انتو موش بتطلعوا الحاج ؟ أجابنى بنبرة تحرش .

— زعلناه فى إيه ؟ ؟ سألته ببرود .

— يا سلام ، كل ده وما زعلتوهش ؟

فأصررت على برودى .

— كل ده يبقى إيه ؟

فأخذ كرشة يفكر ، نحوا من دقيقة يبحث عن تهمة يلصقها بنا .

— ناظلين بوص فى البت قدامه ، هى دى شوية ؟ قال أخيراً .

— طب وهو دخله إيه ؟ هى مراته ولا بنته ؟

— الحاج مابيحبش المصخرة ، أجابنى ، ولا انا احبها كان، آه !

— والجوازة دى موش مسخرة ؟ إشمعنى هو اتجوزها ؟ ؟ ليه ما اتجوزهاش أنا ؟ .

— عشان ما تعرفش تلمها .

فتريثت لحظة .

— طب وانت ؟ سألته ، إنت ما تعرفش تلمها ؟ ليه ما تتجوزهاش انت ؟

فسكت لحظة مفحما .

— وانا إيش أوصلنى للحاج يا اسطاز ؟ قال بعد حين ، الحاج ده مربينى من صغرى . جابنى م الشارع وعملنى بنى آدم . أنا لحم كتافى من خيره يا اسطاز .

وكانت لهجته قد أصبحت عدائية سافرة نصحتنى بأن أكف ، لكننى يجب أن أكمل مهمتى .

— لكن هى مستظرفاك انت ، قلت مغامراً ، مرة قالت لى انها شايفة فيك حاجة جذابة !

فارتفعت جفون كرشة بينما تدلى فكه الأسفل ، وتركزت عينه على الكوخ وقد طفحت على وجهه ابتسامة حقيرة .

— هع ! قال كرشة أخيراً وهوينهض ، أما نروح نصطاد الغدا !

وتركنى واتجه نحو توتو ، من بعيد رأيته يلقى له بالخنجر ويشير إلى البحر ، فتناول توتو الخنجر ونزل للصيد بالطاعة التى اعتاد عليها فى العهد الأخير . وأنا قصدت إلى شجرة التفاح ورسمت عليها بالمنشار علامة جديدة .

الفصل الثالث عشر

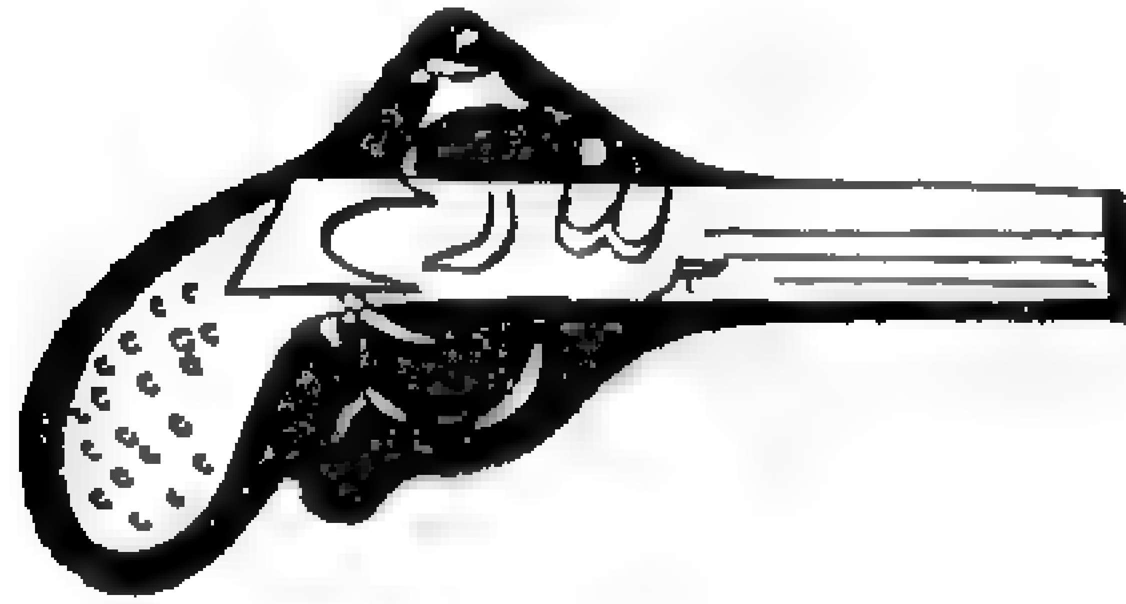


علامات جديدة وأصبح عندنا مشروع زورق حقيقى. بالخنجر والمنشار أعملنا النحت والكحت فى جذع الشجرة حتى ظهر لنا تجويف عميق يبشر بالخير . أنا وتوتو وكرشة نعمل والوغد طلبة لابد فى الكوخ يلعق العسل ، فإذا خرج من الكوخ فذلك لكى يستحم فى البحر ويصلى ، ثم يعود وهو يحمل نصيبه ونصيب زازا من السمك الذى صاده توتو . مرة واحدة أقبل ليلقى نظرة على الزورق ، رأى التجويف الكبير فبدا عليه السرور .

— بارك الله فيكم ، قال لنا مهنئاً ، شدوا حيلكو يا جدعان !

ولكى يكافئنا على نشاطنا أخرج دفتر الشيكات وكتب لكل

منا شيكا بخمسين جنيها . غير أننى فقدت فيه ذلك الاهتمام الشديد بسير العمل فى الزورق ، لم يعد يتطلع بشوق بالغ إلى مغادرة الجزيرة . ولكى يهذب لحيته وشعره وأظافره بالخنجر تسبب فى تعطيل العمل أكثر من ساعة . وكانت اللحية التى يهذبها قد أصبحت نصف بيضاء ، وأكاد أقسم أنه لم تكن فى وجهه منذ أيام تلك الغضون والكراميش .



— إوعوا حد يروح ناحية العشة ، قال لنا مرة ، الست بتستحمى وراها !

فاتجهت عيوننا إلى العشة تريد أن تخترقها إلى ما وراءها ، ثم ظهرت زازا فى جلباب كرشة وهى تعصر القميص الوردى الذى غسلته ، ثم ضربت به الهواء ونشرته على غصن من شجرة التفاح وهى تغنى .

— إوعى تقول ممنوع الحب ، زقزقت زازا ، إوعى تزعل م اللى يحب . كل شىء ممنوع فى الدنيا إلا الحب ، إلا الحب !

وبينما غنت راحت تهز رأسها الفاتن على إيقاع النغم .

— عزيزة ! ناداها الحاج زاجرا ، بلاش غنا وادخلى العشة !

زوج حمش أطاعته زازا وعادت إلى الكوخ . هى فى الكوخ معظم الوقت ، ليس عند الحاج طلبة نساء يغادرن البيت ويتسرمحن أمام الأغراب بلا لزوم . فلما رأى أنظارنا لا تترك القميص المعلق إلا لكى تعود إليه ،ذهب فنزعه عن الشجرة واختفى به فى الكوخ . حتى قميص زازا يعتبره الحاج حراما علينا .

— تزاتزا ! تزاتزا ! تزاتزا !

هكذا راح توتو يردد بغير شعور وهو يعمل الخنجر فى لحاء الشجرة .

— هو إيه ياخويا اللى تطاتطا تطاتطا ! قال له كرشة ، ماتنشطفل وانت ساكت !

فسكت توتو . وعلامتان جديدتان على شجرة التفاح وبدأنا نرتعد من البرد ليلا . فى هذا الجو الجديد لم يعد من السهل علينا أن تنام عراة فى الخلاء ، النار التى نشعلها تزودنا بشىء من الدفء ثم لا تلبث أن تنطفىء فنبرد .

— اتفرج يا سيدى ، قلت لكرشة متأففاً ، هو نايم دفيان واحنا بنتكتك .

فلم يجب كرشة من فوره ، كأن يفكر .

— عارف انا ح اعمل إيه ؟ قال بعد حين ، ح اقول له يرجع لى جلابيطى .

— طب وانا وتوتو ؟ سألته .

فأجابنى ببصقة على الأرض .

— والست تمشى عريانة ؟ قال الحاج فى غيظ عندما طالب كرشة بجلبابه فى اليوم التالى .

— ياحاج خليها جوه البيت ، برطم كرشة ، أنا باباط طول الليل اطكطك !

— هو يطكطك ، قلت للحاج ، وانا وتوتو نرد عليه .

فسكت الحاج مفحما .

— ممكن ولا مؤاخذة اعرف انت لا بس تحت الجلابية دى إيه ؟ سألته بعد لحظة .

فوخزنى بنظرة حادة .

— يعنى إيه ؟ سألنى بغيظ .

— يعنى باقول ما دام انت نايم جوه دفيان ، تبقى تسلفنى جلابيتك بالليل !

— والله عال ! قال الحاج وهو يضرب كفا بكف ، واحد عاوز جلابية الست والتانى عاوز جلابيتى !

— ما هو انت يا حاج لو تجرب البياط برة كنت تعطرنا ، قال كرشة .

— وما تنساش يا حاج ، قلت أنا ، إننا لازم نحافظ على صحتنا . إذا عيينا مين اللى يعمل المركب ؟

فسكت الحاج لحظة مفكرا ، ثم ابتعد عنا دون أن يجيب . لكنه بالليل نادى كرشة إلى الكوخ ، ومن خلال الباب الموارب ناوله الجلبابين .

— ربنا ما يحرمنا منك يا حاج ، قال كرشة داعياً .

هو لبس جلبابه وأنا لبست جلباب الحاج طلبة .

— والله عال يا كرشة ، قال للذكور ، عشت ولبصت بنص كم !

وكان منظره نكتة حقا فى ذلك الجلباب الذى حولته زازا فستانا ، مثل منظرى أنا فى جلباب الحاج الفضفاض الذى يتهدل حولى على الأرض . لكنه أدفأنى أثناء النوم ، إذ تهت فيه كأننى أنام فى خيمة . فتذكرت توتو الذى يبيت بالمايوه وراء جذع الشجرة ورثيت له ، وربما تناوبت معه ارتداء الجلباب إذا اشتد البرد عن ذلك . لكن اشتداد البرد صنع بى العكس ، جعلنى أنسى

كل شىء عن توتو . بل إننى طالبت الحاج ذات صباح بأن يترك لى جلبابه خلال النهار أيضاً .

— لا ياشيخ ! جأر الحاج فى وجهى ، والنبى صحيح ! ماتاخد القائلة وملحقاتها !

— ما هو أصل يا حاج . . .

— لا أصل ولا فصل ، دنا لو مشيت وراك ح تقلعنى عريان ! إقلع الجلابية يا باشمهندس !

خلعتها .

— وعلى فكرة الست ابتدت تبرد بالليل ، قال الحاج لكرشة منذراً ، يعنى ما نتش واخد الجلابية الليلة .

— يا نهار اصوض ! جمر كرشة ، دنا اموط م البرض يا حاج .

— إنت راجل وتستحمل لكن هى ست ، قال الحاج بحزم . وطلب الخنجر لكى يهذب لحيته التى كاد الشيب أن يشملها كلها ، وسط طائفة جديدة من الغضون والتجاعيد . لكننا عملنا فى ذلك اليوم كما لم نعمل فى أى يوم آخر ، العمل من ناحية يشيع الدفء فى أجسامنا العارية ، ومن ناحية أخرى يقربنا من يوم الخلاص . كرهنا الحياة فى هذه الجزيرة اللعينة حيث لا غذاء ولا كساء ولا نساء .

وزازا أيضا تبين أنها كرهت حياتها .

— دى ما بقتش عيشة ! أتانا صياحها من الكوخ المقفل ، إنت ح تدفنى بالحيا ؟!

فلا ندرى بماذا أجاب الحاج طلبة .

— أنا طهقت خلاص ! عاد صوتها الصارخ ، إعتقنى يا أخى !

فلم ندر برضه بماذا أجابها .

— طب والله ما نا قاعدة لك ! ح اخرج يعنى ح اخرج !

وانفتح باب الكوخ بعنف وخرجت منه زازا ، يد الحاج حاولت أن تستوقفها ففشلت. خرجت زازا مسرعة والحاج وراءها ، فلما أوشك على اللحاق بها بدأت تجرى ، والحاج يلهث وراءها ولا يستطيع أن يمسكها .

— كرشة ! صاح الحاج مناديا ، إمسك البت دى !

فناولنى كرشة الخنجر وانطلق يعدو ، غوريلا قبيحة تطارد الغزال الشارد . ووقعت زازا بين ذراعيه ، خيل إلى أنه احتجزها هناك لحظة زائدة عن الحاجة . ثم جذبها من يدها وقصد بها إلى الحاج طلبة الذى أهوى على وجهها بصفعة قوية .

— أنا ما حدش يضربنى ! صرخت زازا بصوت مختنق ، موش عايزه اقعد معاك ! زهقت من خلقتك ! طلقنى وريحنى منك !

فناولها الحاج صفعة ثانية وجذبها داخل الكوخ وهى تبكى .

— زازا ! زازا ! زجر توتو بغير شعور وهو ينظر إلى الكوخ بمرارة .

علامة جديدة على جذع الشجرة وخرجت زازا من الكوخ تصرخ فى فزع .

— إلحقوا الحاج ! إلحقوا الحاج !

فأسرعنا إلى الكوخ لكى نجده ملقى على الأرض وهو يتلوى من الألم ويزمجر كحيوان جريح .

— ماله يازازا ! سألتها .

— موش عارفة . مرة واحدة بصيت لقيته بيقول يابطنى ، وراح واقع من طوله .

— مالك ياحاج ؟ قال له كرشة ، صلامتك .

لكن الحاج لم يجبه ، راح يجيل بينه وبينى نظرة زائغة وهو يتأوه .

— هاتى له يشرب ، قلت لزازا .

فلما سقيناه أخذ يسعل ويسعل ، فاحترنا هل الوجع فى بطنه أو صدره أو فى الاثنين معا . هناك رقد يلهث ويجيل فى السقف نظرة تائهة ، ثم ثقلت جفونه وبدا أنه سينام . وقبل أن ينام رأيت يده تمتد إلى جيبه لكى تحكم إقفاله على المحتويات الثمينة .

— سخن زى النار ! قالت زازا وهى تتحسس جبينه .

ونزعت قطعة من ذيل قيصها ، بلتها بالماء ووضعتها على جبينه بصفة كمادة . فلما تأكدنا من أنه قد نام غادرنا الكوخ وعدنا إلى العمل .

— لاحول الله يارب ، قال كرشة متوجعا ، صحيح المؤمن منصاب .

فلم أعلق ، رحت أنحت فى المركب وأنا أقول لنفسى ماذا لو مات الحاج طلبة ؟ لست أخاف عليه بالطبع — فليمت فى ستين داهية — وإنما أخاف من الموقف الذى سيعقب وفاته . المسدس المحشو بالرصاص ، من الذى يرثه من الحاج وكيف يستخدمه ؟ الحق يقال أن الحاج لم يستعمل مسدسه حتى هذه اللحظة إلا فى حفظ النظام ، فماذا يحدث إذا وقع السلاح الخطير فى يد وحش ككرشة أو مأفون كتوتو ؟

وقطعت زازا خواطرى ، إذ خرجت من الكوخ وأتت ترقب العمل فى صمت .

— سبتيه ليه يا ست ظاظا ؟ قال لها كرشة معاتبا .

— ح اعمل له ايه ؟ آهه نايم .

فسكت كرشة ، ونظرت زازا إلى .

— على الله يموت ! قالت لى بالإنجليزية .

— والله موش متأكد ، أجبتها بنفس اللغة .

وهممت بأن أروى لها خواطرى عن المسدس لكن كرشة سمعنى .

— النبى عربى يا أسطاز ! قال وهو يضربنى كتفا كاد يوقعنى .

فسكت صاغرا . لكنه اضطر بعد حين إلى أن يبتعد عنا إلى ما وراء الكوخ لحاجة عرضت له فوجدت فرصتى للكلام ، رويت لها خواطرى عن المسدس ، تلك الخواطر التى لم يكن من العسير على امرأة ذكية مثل زازا أن تقتنع بوجاهتها .

— طب والعمل ؟ سألتنى حائرة .

— موش عارف ، أجبتها مترددا فى مصارحتها بالفكرة التى تراودنى .

— تيجيش اسرق منه المسدس وهو نايم وارميه فى البحر ؟ قالت هامسة بعد لحظة .

فتفكرت فى الأمر .

— لأ ، قلت لها ، المسدس ضرورى لحفظ النظام . من غيره ح ينزلوا ضرب ف بعض بالخنجر .

فسكتت مقتنعة ، وعند ذلك غامرت بإطلاعها على فكرتى .

— ايه رأيك نسرق الرصاص من المسدس ؟

فاتسعت عيناها .

— أسرق الرصاص ؟ سألتنى فى دهشة .

— آه ، هو المسدس له قيمة من غير الرصاص ؟

— طبعا لأ .

— الحاج بيفتح المسدس يشوفه فاضى ولا مليان ؟

— لأ .

— خلاص ، إسرق الرصاص .

وشرحت لها كيف أن المسدس الفاضى سيظل صالحا لحفظ النظام مثل المسدس الملآن طالما أن أحداً لا يعرف من الأمر شيئاً ، وفى الوقت نفسه لن يستطيع الحاج طلبة أن يستخدمه فى القتل إذا سولت له نفسه ذلك . فإذا ما تمكن كرشة أو توتو من اختطاف المسدس من الحاج — بسبب موته أو اشتداد المرض عليه — فإنما يكون قد اختطف سلاحا لا قيمة له .

— طب والنبى فكرة ! قالت زازا بسرور ، تعرف انك لئيم قوى ؟

فاكتفيت بابتسامة صغيرة وأنا أسبل جفون التواضع ، واضطررنا إلى قطع الكلام بسبب عودة كرشة .

وبينما انشغل المذكور بالنحت تبادلت وزازا عبر جذع الشجرة نظرة تفاهم عميق ، فى عينيها رأيت نظرة احترام وتقدير أطربتنى .

ثم خفق قلبى وغمرتنى نشوة بالغة ، عندما رأيتها تزم شفتيها وتمدها نحوى فى شكل قبلة صامتة ، حبيبتى زازا .

انتهينا من العمل فى المساء فرحنا نعود الحاج طلبة ، وجدناه كما تركناه نائما يلهث بصوت كالحشرجة . كلمته فلم يسمعنى ، وجسست جبينه فوجدته ما زال يلسع ، أسخن حاج جسسته فى حياتى .

— لا حول الله يارب ، قال كرشة وهو يضرب كفا بكف ، صحيح يا عالم المؤمن منصاب .

سمعت منه تلك الكلمة مائة مرة خلال النهار ، ليته كان هو الآخر مؤمنا .

— تاخذ الجلابية دى ؟ سألتنى زازا مشيرة إلى جلباب كرشة الذى ترتديه ، موش معقول نقلع الحاج الليلة .

— طب ماخدهاش انا ليه ؟ نعر كرشة ، هى موش جلابيطى ؟

فراحت زازا تلسعه حيناً بنظراتها ثم ابتسمت فجأة .

— لك حق يا كرشة ، قالت له بظرف غريب ، خد جلابيتك ، إنت أولى بيها يا غلبان !

وخلعت الجلباب عن القميص الوردى ، تلقفه كرشة منها فى فرح .

— ربنا مايحرمنا منك ياسط ظاظا ، ربنا يشفى لك الحاج يارب .

وبينما اختفى رأسه فى الجلباب وهو يلبسه واجهتنى زازا بأعذب ابتساماتها ، أسبلت جفونها فى دلع وزمت شفتيها ، أهدتنى قبلة صامتة كقبلة الصباح . كأننى أفقت من تلك القبلة ، كأنها لم تمشش فى دماغى من الصباح إلى المساء . فلما غادرنا الكوخ كنت أرتعد ، كما ارتعدت طول النهار كلما ذكرت تلك القبلة . لأنها ستكون الليلة وحدها تقريباً مع ذلك الرجل الغائب عن الوعى ، فهل أسمعك تقول أنه عمل غير أخلاقى ؟ ربما ، فهل كان عملا أخلاقيا من الحاج طلبة أن ينتزع زازا منى ويستأثر بها دونى ؟ وإزاء تلك الرعدة الجامحة التى شملتنى ، كيف تتوقع منى حاسة أخلاقية مرهفة ؟ فلما انفردت بكرشة فى الخارج رأيته يرفع صدر الجلباب إلى أنفه لينهل من رائحة الجسم الذى كان فيه من قبل .

— الله ياولاض ، الضفا حلو !

وفرك كرشة كفيه ثم تثاءب وتمطع ، وتمدد على ظهره لينام .

— موش حطنام ياباشمهندس ؟

— دنا نمت تقريباً ، قلت وأنا أتصنع التثاؤب .

وعاقدا يدى تحت رأسى حيث تمددت رحت أنظر إلى النجوم اللامعة فى السماء المظلمة ، ترتر لامع على فستان سهرة أسود ، يرتعد

مثل ملايين الخلايا المرتعدة فى جسمى أنا . حبيبتى أسبلت جفونها فى بداء ، زمت شفتيها وأهدتنى قبلتين . زازا تنادينى لأنها تريدنى ، زازا الجميلة العزيزة ، زازتى أنا .

وشخير كرشة شق سكون الليل ، رن فى أذنى فى تلك الليلة موسيقيا منغما ، كآلة نحاسية فى مقطوعة لسترافنسكى . نام الحمار كالقتيل ولم يشعر بشىء مما يحتدم فى صدرى ، لم يخطر له أننى قد أجترىء على اقتحام بيت الحاج المريض . لأنه لم ير القبلتين ولا رأى كيف أسبلت زازتى جفنيها . فليهنأ برائحتها الجميلة فى جلبابه ، ولأنهض أنا إلى الجميلة نفسها .

وكانت الجميلة فى انتظارى ، فتحت الباب بعد نقرة واحدة . فى الظلام لم أرها لكننى شممتها ، ومددت يدى لمست يدها .

— أنا سرقت الرصاص ! قالت هامسة .

— والله ؟ همست فى فرح ، فين هو ؟

— رميته فى البحر !

— إيه ؟ أنا موش قلت . .

— هس ! قاطعتنى بيد وضعتها على شفتى ، بعدين الحاج يصحى !

فأنصت لحظة إلى أنفاسه الثقيلة المنتظمة ثم نسيت كل شىء

إلا زازا ، ضممتها إلى صدرى بقوة وقلت لها أحبك . وخزة فى الضمير مازجت حبى، لكن ليس للحاج طلبة أن يلوم إلا نفسه، انتزع منى زازا بعد أن كانت زازتى أنا .

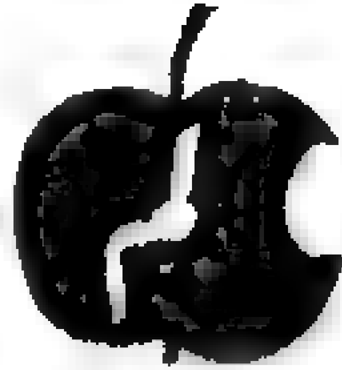
— ضميرك موش بيأنبك ؟ سألتها هامساً .

— حد قال له يتجوزنى ؟ أجابت ببساطة .

وضمتنى إليها وهى تلهث ، غبنا للمرة الأولى فى عناق طويل .



الفصل الرابع عشر



أضع الماء على يدى طوال اليوم التالى ، حرام أن تضيع منهما رائحة زازا . واشتغلت فى الزورق بحماس وأنا أصفر مائة لحن .

— إنت مفرفش قوى النهارده ، قال لى كرشة بحسد .

فأجبته بأغنية وأنا أترقص .

— إوعى تقول ممنوع الحب ، إوعى تزعل م اللى يحب .

— كل شىء ممنوع فى الدنيا ، اشتركت زازا ، إلا الحب ، إلا الحب !

— بتغنى يا ست عظيطة والحاج عيان ؟ قال لها كرشة لائماً .

— الحقيقة مالكيش حق أبدا ياست عزيزة ! عقبت على كلامه ساخراً .

ترى هل أجد الليلة فرصة لمعاودة المغامرة ؟ يكون موقفاً طريفاً حقاً لو حاول الحاج طلبة أن يقتلنى بالمسدس القاضى . ألا ليت الخنجر لم يكن ضروريا للصيد والنحت ، إذن لتحايلت على سرقته هو الآخر . عند ذلك يمكننى وتوتو — بالمظلات وحدها — أن نصمد أمام طلبة وكلبه كرشة .

— والله خسارة ترمى الرصاص فى البحر ، قلت لزازا بالإنجليزية .

— قلنا النبى عربى يا أسطاز ! قال كرشة وضربنى كتفا .

وفجأة رأيت زازا تحيط صدرها بذراعيها وترتعد .

— الدنيا ساقعة ! هتفت متأففة .

إذ هبت فى تلك اللحظة نسمة باردة نفذت فى عظامى أنا الآخر ، خيل إلى أنها نزوة عابرة من هواء البحر . لكنها لم تكن كذلك ، نسمة أخرى تبعتها أسقع منها ثم بدت النسمات تتحول إلى رياح سافرة . رياح شديدة تهاجمنا من كل ناحية ، وفى البحر ظهرت الأمواج لأول مرة ، أمواج تفور وترتفع وتلتوى ثم تنقلب على الشاطىء بقسوة .

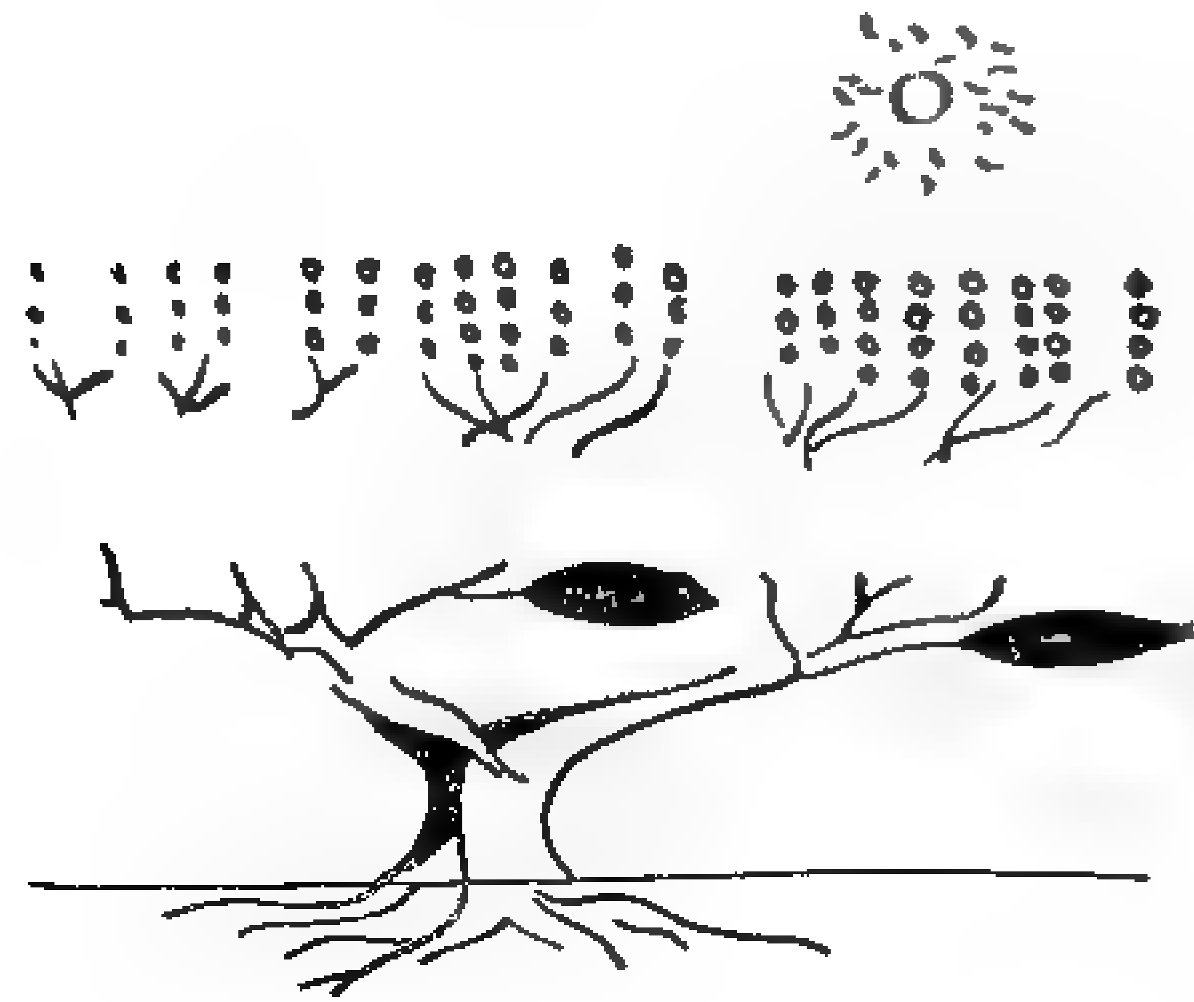
— موش معقول أبداً ! هتفت زازا ، مرة واحدة كده ؟

فأجابتها الرياح بهبة شديدة أطارت ذيل قميصها عند رأسها ، مشهد هم كرشة مثلما همنى .

— أحب العواصف ! قلت لزازا مداعباً .

فراحت تضحك وتضغط القميص على فخذيها كيلا يطير ثانياً .

غيوم كثيفة سوداء برزت هناك عند الأفق ، بسرعة تزحف عبر السماء مدفوعة برياح مجنونة ، ما هى إلا دقيقة حتى حجبت الشمس وحبست الكون فى شبه خيمة قاتمة كئيبة . فلما صارت الغيوم فوق رؤوسنا لا أفهم كيف توقفت فجأة كأنها كانت تبحث عنا وما خرجت إلا من أجلنا . وفى لحظة واحدة فتحت السماء أدشاشها ووجدنا أنفسنا تحت سيل غزير من المطر ، أغزر مطر نزل فى أى يوم على دماغى . فسرعان ما كنا نجرى نحو الكوخ وقد وضعنا أيدينا فوق رؤوسنا ، نتصايح أثناء الجرى ونضحك كالعيال .



أقفلنا علينا باب الكوخ ووقفنا نرتعد ، نحواً من خمس دقائق قبل أن أذكر أمراً خطيراً جعلني أفتح الباب ثانيا .

— إلحقوا المركب اصرخت بجنون .

إذ كان قد حدث لها ما توقعت ، وصلت الأمواج الهائجة إلى جذع الشجرة وبدأت تلطمه بعنف ، فأخذ يتقلقل ويتمايل ويوشك أن ينسحب إلى البحر مع الأمواج العائدة . فانطلقت وتوتو وكرشة نجري إليه ، تعاونا على دفعه ودحرجته بعيداً عن الشاطىء ولم نتركه إلا بالقرب من الكوخ نفسه .

— الحمد لله انك افتكرته ، قالت زازا .

— لازم واحد فينا يفكر ، أجبتها بالأنفة المناسبة .

ودوى الرعد وعصفت الريح واهتز الكوخ اهتزازا .

— صبحانك يا رب ، قال كرشة ، دى القيامة قامط !

— ده موش بعيد الجزيرة نفسها تغرق زى المركب ! قالت زازا .

— وماله ؟ سألتها باسماً ، ما تحبيش تنقذيني تاني ؟

ساعة بحالها والعاصفة تزمجر وتعربد حولنا ، ثم أخذت تهدأ . شيئاً فشيئاً لانت الريح وبدأ صوت المطر يخف على أخشاب الكوخ

ففتحنا الباب ونظرنا ، رأينا الماء وقد أكل نصف الجزيرة بالراحة ، مياه تترجرج حولنا من كل ناحية وقد كساها الزبد الأبيض كأنها تغلى . والغيوم السوداء تبتعد فى السماء مواصلة رحلتها المشئومة جهة الجنوب. ثم طلعت الشمس علينا ، أحسست كأن زازا تبسمت .

شيئاً فشيئاً تنسحب المياه إلى موطنها الأصلى ، تترك وراءها رمالا مبتلة تبقلل . لكن طلوع الشمس لم يخفف من حدة البرد ، وقفنا نرتعد كأننا فى ثلاجة .

— شوفوا الشجرة ! هتفت زازا مشيرة إلى شجرة التفاح .

غسلتها مياه المطر وجعلتها خضراء زاهية ، أخضر وأزهى شجرة رأيتها فى حياتى . والحمد لله أن العاصفة لم تسقط أكثر من نصف تفاحها ، وماذا لو أسقطته كله ؟ لعلها أسقطته وطرحت الشجرة غيره وهو يسقط .

— يانهار اسود ! هتفت زازا ثانية وهى تشير إلى الأفق الشمالى .

فتابعت إشارتها لكى أرى ذلك الفوج من السحب الكثيفة السوداء ، بسرعة تزحف نحونا على طبول رعد جديد . يبدو أن الطبيعة لم تفرغ من أمرنا بعد .

— أستغفر الله العظيم يارب ، قال كرشة ، إحنا لسه لحقنا ننشف ؟

بسرعة مذهلة أقبلت الغيوم نحونا ، وكالغيوم السابقة توقفت فوق رؤوسنا . فنظرنا لنرى سحابة بيضاء تنفصل عن كتلة الغيوم السوداء ، بخار كثيف أبيض يتلوى ويهبط نحو الأرض . هو البرد كما اكتشفنا بعد لحظات ، ثلوج بيضاء كالقطن المندوف بدأت تتساقط حولنا ، خفيفة أول الأمر ثم غزيرة ، سرعان ما غطت أرض الجزيرة كلها ببساط أبيض . فأسرعنا إلى الكوخ نحتمي به ، ومن خلال الباب الموارب رحت أرقب المنظر . البرد الذي يتساقط ويتراكم على الجزيرة ، وشجرة التفاح التي أصبحت كرة كبيرة بيضاء .

— ما تقفل الباب ده يا باشمهندس ، قال كرشة متأففاً .

فأقفلته ووقفت أفرك كفي . ولما فتحناه بعد ساعة لنأخذ فكرة عن الموقف لم نجد الجزيرة التي نعرفها ، وإنما وجدنا بدلا منها كتلة من الثلوج البيضاء .

— طب واحنا بقى ح نباط الليلة دى ازاى ؟ تساءل كرشة .

— نبات هنا طبعاً ، أجبته ببساطة .

— نباط مع الحاج وست ظاظا ؟ قال مستنكراً .

— إمال يعنى تموتوا فى التلج برة ؟ قالت زازا .

وتبادلت وإياها نظرة وابتسامة ، قلبي يحدثني بأنها ليلة تنطوى على كثير من الاحتمالات .

فى الظلام تكدسنا جميعاً داخل الكوخ ونحن نرتعد كأطفال صغار خائفين ، ولكى نخفف من البرد القارس أشعلنا ناراً صغيرة فى ركن من الكوخ والتففنا حولها . أصابعنا تتلاقى ونحن نمد أيدينا إلى الشعلة الراقصة ، سعداء بدفئها وحتى بلسعتها .

— اللاه ! هتفت زازا ، نار حلوة بشكل !

وراحت تسخن يديها وتمسح بهما خديها وأذنيها وعنقها ، فرحة الأطفال ترقص فى عينيها .

— موش ناقصنا غير وقة ابو فروة ، اقترحت أنا .

— قول وقة صمك ! تدخل كرشة .

— تزاتزا ! قال توتو باسماً .

— الجدع ده ح يفقع مرارطى ، قال كرشة .

— حقنا نوطى صوتنا شوية عشان مانقلقش الحاج ، قلت لهم .

فلو أن الحاج طلبة نام نومة الأمس لكان ذلك أحسن ، وليت كرشة تسطله النار فينام هو الآخر نومة الأمس . أما أنا فسأكون قطعاً آخر النائمين .

— مصكين يا حاج طلبة ، قال كرشة وهو يتصعب .

— والمصيبة ان ما فيش عندنا ولا قرص اسبرين ، قلت له .

— بس اياك ما يكونش مرض معدى ، قالت زازا .

— هى غالباً نزلة شعبية ، قالت لها ، موش سامعة صوت نفسه ؟

وتقلب الحاج طلبة وبدرت منه أنة .

— عاوظ حاجة يا حاج ؟ سأله كرشة .

فلم يجبه الحاج إلا بأنة أخرى .

— لكن احنا ح نام ازاى بقى ؟ تساءلت زازا فجأة .

فأسرع كرشة بتقديم الإجابة التى يبدو أنه كان قد حضرها .

— حضرتك طبعاً تنامى جنب جوزك ، واحنا نطلقح مطرح ما حنا قاعدين !

هو يرى فيما يبدو أنه بمرض الحاج طلبة قد أصبح رئيساً بالنيابة ينظم أمرنا كما يشاء .

— واتفضلى حضرتك بقى عشان تنام ،أضاف مشيراً إلى ناحية الحاج وهو يتثاءب .

فتثاءبت زازا بدورها ونهضت ، لكنه كان تثاؤبا ظاهر الاصطناع . وقبل أن تفارق النار سخنت يديها ومسحت وجهها ، ثم انتقلت إلى جوار زوجها .

— هه ، قالت وهى تستلقى ، تصبحوا على خير .

استلقت على جنبها وأولتنا ظهرها ، تكورت على نفسها كقطة صغيرة ، فاتنة شهية حيث تاهت فى جلباب كرشة . كذلك استلقى توتو على جنبه دون أن يغمض عينيه ، مسنداً رأسه على ساعده

ونظرة فى عينيه ترسم نحو زازا خطاً مستقيما . أما كرشة فأسند رأسه إلى الحائط ، وسرحت إلى السقف من خلال جفونه المتهدلة نظرة بلهاء . بذراعى الغوريلا استند على الأرض حيث اضطجع ؛ أنفاس ثقيلة تتردد من صدره المغطى بالشعر والعضلات ، منظر بشع حقاً .

— ما بطناموش ليه يا باشمهندس ؟ سألنى فجأة .

— وانت ما بطنامش ليه ؟

— أنا حر يا أسطاز ، أخطرنى .

— ربنا يديم عليك الحرية !

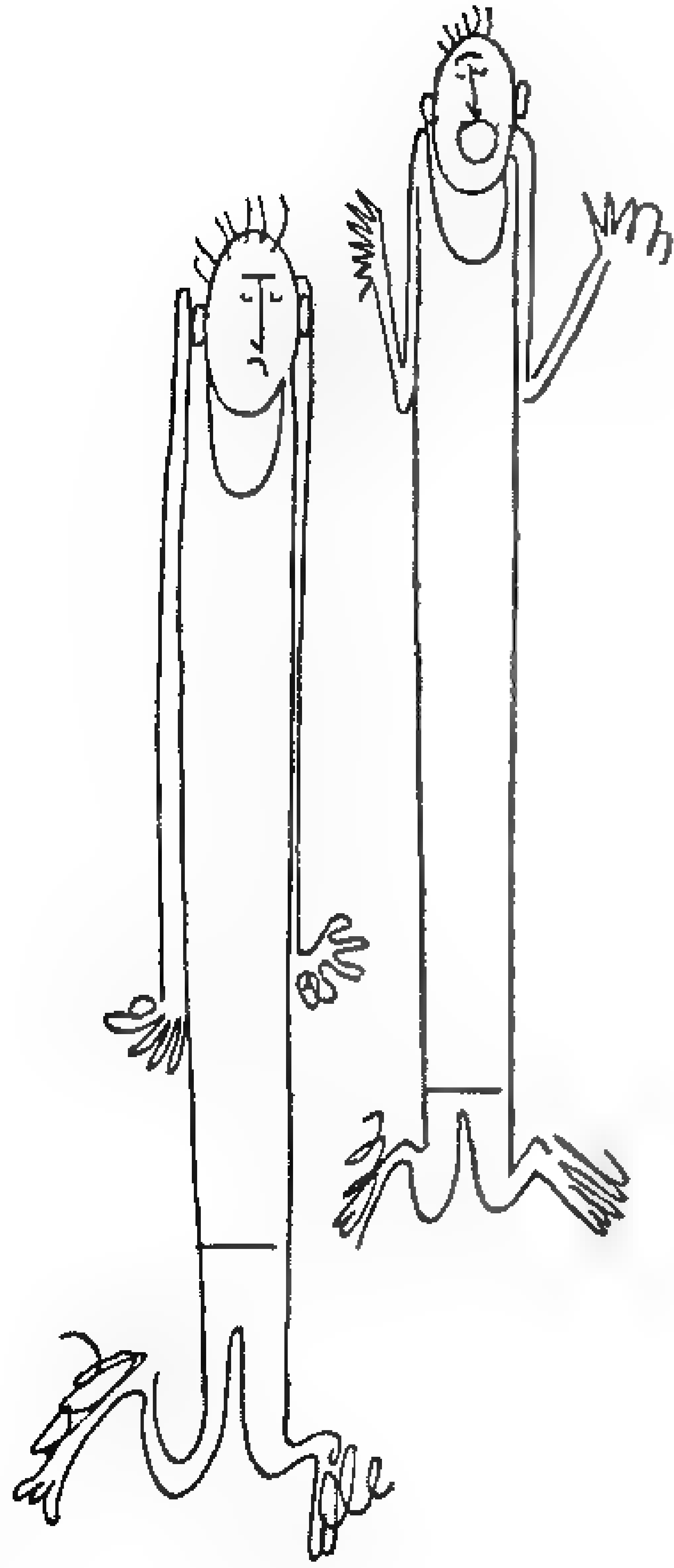
واستلقيت على جنبى وغطيت عينى بساعدى ، تاركا لهما ثغرة صغيرة أرقب الموقف من خلالها . عين كرشة تركزت على كأنما يريد أن يستوثق من أمرى ، ثم حادت إلى توتو الذى انتظمت أنفاسه وبدا من أمره أنه نام . ثم تحولت عين كرشة إلى زازا ، بعد أن مرت بى لتتأكد من أننى لا أراه . نظرة طويلة إلى زازا من خلال جفونه المتهدلة ، وفك الغوريلا تدلى وكاد يلامس صدره . نظرة طويلة ثقيلة لزجة حقيرة ، أحقر نظرة رأيتها . وأخيراً تنهد كرشة وتصعب ،ومسح وجهه براحته وهو يتثاءب بفم ولا فم سيد قشطة . ثم نقل بينى وبين توتو نظرة فاحصة ، بعين حمراء متعبه ، عين كلب الحراسة الذى كبس عليه النوم . ويبدو أنه اطمأن إلى الموقف

فانزلق إلى الأمام ليتمدد على ظهره ، ماهى إلا دقيقة حتى ارتفع شخيره مذكرا إياى بالعاصفة . شخير كرشة وغطيط توتو،مع فحيح الحاج طلبة وحشرجته ، مزيج من الأصوات لو سمعه أحد من الخارج لظن أن الكوخ يحتوى على وابور طحين . فرفعت ساعدى عن رأسى بحذر ، ثم رفعت رأسى نفسها و نظرت إلى كرشة ، رأيت فمه مفتوحاً تتصاعد منه الأبخرة كفوهة بركان . فاستويت جالسا واستندت إلى الحائط ، عينى استقرت حيث يجب أن تستقر عند زازا . أقرب ماتكونين إلى ياحبيبتى وأبعد ماتكونين أيضا . لن يتاح لليلة أن تكون مثل ليلة الأمس ، تلك الليالى لا تتاح للمرء كثيراً . تقلبت زازا كأنما أيقظتها نظرتى ، لكنها لم تكن نائمة . رفعت هى الأخرى رأسها وتلفتت ، ثم جلست وواجهتنى بابتسامة عريضة صاحية. كانت مثلى تنتظر ، فأى شىء ياحبيبتى يمكننا الليلة أن ننتظره ؟ وجهها فاتن على ضوء الشمعة الراقصة،ورفعت إلى شفتيها إصبعا رشيقة قبلتهاثم لوحت بهانحوى . فحذوت حذوها ، أرسلت لها على الهواء قبلة مماثلة . هى مابرحت تبتسم ، كالشمس بعد العاصفة تلك ابتسامة زازا. أمجنونة هى لكى توجه إلى تلك النظرة المنادية ؟ وسط ثلاثة وحوش تريد منى أن أنهض وأقصد إليها ؟ فإذا كانت تريد ذلك فلماذا لا تدعونى إليها بإشارة ؟ تريد منى أن أثبت رجولتى من تلقاء نفسى ؟ العضلات والشعر الكثيف

ترتفع وتنخفض على صدر الغوريلا ، يجب أن أعبر فوق ساقيه الممدودتين لكى أصل إلى المرأة الباسمة . صراع عنيف دار فى نفسى المحمومة ، بين مغناطيس الابتسامة ودواعى الحذر من الغوريلا التى قد تصحو فى أية لحظة . فوجدتنى فجأة أرتعد ، بقوة أرتعد وأمد يدى إلى النار أصطليها . لكن علاجى لم يكن لدى النار ، لن أجد دفئى إلا عند زازا . وزازتى مابرحت تبتسم ، أسبلت جفنيها بين الظلال الراقصة على وجهها . فوجدتنى أنهض وأنا أرتعد،ترنحت فاستندت على الحائط . ورفعت قدمى اليمنى بحذر شديد لأضعها على الأرض عبر الساقين الممدودتين ، رأيت فى سروال كرشة ثقباً صغيراً . ثم نقلت قدمى اليسرى وصرت فى الناحية الأخرى من الغوريلا النائمة ، فرحت أسير على أطراف أصابعى نحو زازا ، ثلاث خطوات وصرت عندها . جثوت على ركبتى ورحت أنظر فى عينيها لاهثاً ، نظرة حنان سبحت فى بحيرة عينيها . فمددت يدى إلى كتفها ، أجفل كتفها من برودة يدى .

— إرجع ليسمعونا ، قالت هامسة .

لكننى لم أكن لأرجع ، بردان يبتعد عن النار ؟ فضممتها إلى وقبلتها ، للجسور وحده تفتح أبواب السعادة . لحظة من الدفء ثم زمجرة مفاجئة خلفى مصحوبة بشتمة بذيئة ، وفى كتفى الأيسر من الخلف غاص نصل بارد مسنون .



الفصل الخامس عشر



الرمل فى أنفى كرائحة الدماء وإن كنت لا أذكر أنى شممت أى دماء ، لماذا أنا نائم على بطنى ووجهى فى الرمل ؟ رمل العجمى ناعم جداً وأبيض ، حمام شمس ثم غدوة سمك فى كازينو المكس . أو فى أبى قير مع زجاجة بيرة ساقعة . أو فى تافرنا مع كوز رتسينا وطاجن لسان عصفور. لكن بعض الناس يشربون بوظة ، وفى المساطب يأكلون كرشة . أنقلب على ظهرى يوجعنى كتفى ، خلينى على وجهى ، والجمجمة كانت مقلوبة فعدلتها زازا . تزاتزا ، كانت تلك ليلة خالدة ، وحدنا مع الرجل المريض . متمدداً على ظهرى هبطت زازا برأسها وقبلتنى . ثم رفعت رأسها لتنظر إلى ، ثم هبطت فقبلتنى من جديد . كأنى

ماء وهي طائر يشرب مني . من الطيور مايمنع صيده مثل أبي قردان ، لأنه يأكل الدود الذي سوف يأكلنا . ياحبيبي سخن زي النار ، هل سمعت صوتاً أو أنا مريض أهذي ؟ بعض الناس يهذون ولايعرفون أنهم يهذون ، لكنني لست من ذلك النوع . أنا أهذي وأعرف أنني أهذي ، أنا أهذي إذن أنا مريض . كرشة طعنني من الخلف في كتفي ، الخنجر يصيد السمك لكنه يقتل أيضاً . الصحة تاج على رؤوس الأصحاء يلمع في الشمس ويغيظ المرضى . والشمس مؤنثة بعكس القمر . مونلايت سوناتا وكروتزر أيضاً ، وتولستوي كانت له لحية كثيفة كالحاج طلبة . فتك بفلاحة روسية تحت شجرة البرتقال وكتب البعث . برتقال كثير في روسيا ولكن ليس بقدر مافي فلسطين . أرض الأنبياء حيث صلب المسيح أو شبه لهم . من كان منكم بلا خطيئة فليرجها ، لابد أن كرشة بلاخطيئة . الزنا كان فاحشة وساء سبيلا ، فلعلك قبلتها أو عانقتها أو فاخذتها . ياخسارة فاتتني الجنة . لاحور ولا ولدان ولا نهر نبيذ ، وكان لسان العصفور حادقا نوعاً . وسيجارتي أسقط ولعتها فستان سيدة عابرة ، زغر لي زوجها وكان بشنب . حضرتك تتجوزها وأنا أعمل لك غفير ؟ فاكرنا إيه يا أستاذ ، قوادين ؟ وقال الرجل النحيف يلزم خدمة يابيه ؟ وامرأة سمراء خلعت فستانها بسرعة كفلاح يخلع جلبابه لينزل الترعة . وعلى السكة الزراعية حقل ذرة ، من بين

العيدان المتكاثفة أطلت فوهة موزر . ليت زازا لم تلق الرصاص فى البحر ، كأنه كان ينفعنى . كان الوغد ساكتاً لأنه يحوش بصقة ، وكان يمكن يومها أن يطمنى لولا الحاج طلبة . ومع ذلك خنته مع زازا ، وقالت زازا حد قال له يتجوزنى ؟ فى التبت تتزوج المرأة عدة رجال ، والتبت هضبة كم هى عالية . وقمة إيفرست كم هى باردة . واقفاً على الثلوج تنزلق قدمى وأهوى من القمة العالية ، أهوى . لكننى لا أرتطم بالأرض ، أنحدر نحوها برفق حتى أستقر على الرمال . وفى الرمال رائحة الدماء ، دمائى أنا . هل سمعت أحداً يقول أن عندى غرغرينة ؟ اسمها جانجرين ولكنهم لا يعلمون . لكن فى دمى كرات كثيرة بيضاء سوف تأكلها . لحسابى تأكلها ياترى أو لحسابها ؟ كل الأجسام العضوية تحب الأكل ولذلك قال شوبنهور أن الحياة شر . لكن هذا لا يهم بالطبع مادام الكون آخذا فى التمدد ، خصوصاً وهو فى الوقت نفسه آخذ فى الانكماش . فقاعة صابون كبيرة حمراء تطير كالبالون فى ضوء الشفق الأحمر . بلون دمى . بلون التفاحة التى تنمو مع كل دورة عقرب . لماذا أجد فى فمى طعم التفاح ؟ أمى ماتت فمن ذا الذى يسقينى وأنا مريض ؟ وسألتها مرة هو الحب حرام يانينة ؟ قالت كلا إذا كان شريفاً . وأمى كانت فلاحة مثل أبى ، فخلعت جلبابى يوماً ونزلت إلى الترعة . فلاحة عجوز مرت على السكة الزراعية

تحمل حطباً كثيراً . وبجانب الزراعية غابة من عيدان الذرة . الذرة العويجة والبنادق الموزر ورائحة الدم فى أنفى . لماذا لاتعدلنى زازا كما عدلت الجمجمة ؟ إن كان هذا لأن الشمس مؤشة . . .

* * *

لعلك استنتجت من واقعة كتابتى لهذه السطور أننى لم أمت ، وأن الحمى التى أصابتنى بسبب الطعنة لم تكن من النوع القاتل — القاتل لى أنا على الأقل . كم من الزمن رقدت أهذى ، وماذا حدث فى الجزيرة طوال تلك المدة ، كل هذه أشياء عرفتها فيما بعد من زازا عندما عاودنى الوعى . لذلك أكتفى بأن ألخصها لك على عهدة زازا لا عهدتى أنا ، واثقا من أن زازا لم تبذل أى محاولة لتشويه الحقيقة — لماذا تفعل ؟ ما كدت أتلقى طعنة كرشة فى ظهرى — روت زازا — حتى صرخت بقوة وسقطت على الأرض مغشياً على ، صرختى أيقظت توتو الذى وثب فى اللحظة المناسبة لكى يمنع كرشة من توجيه طعنته الثانية إلى ، تلك الطعنة التى تؤكد زازا أنها كانت لا محالة قاضية على . وبينما أنا ملقى على الأرض دارت بين توتو وكرشة معركة عنيفة ، كل منهما يحاول أن يحصل على الخنجر لنفسه . ثم رفسة طائشة من قدم كرشة أصابت الحاج طلبة فى جنبه فهب من النوم مذعوراً . فلما تبين ما يدور حوله قام متحاملا على نفسه ومد يده إلى جيبه ليخرج المسدس ، لكن زازا

أسرعت إليه لتمنعه ، لا يجوز لأحد كما أوصيتها أن يكتشف سر المسدس القاضى . فلما رآها تعترض طريقه صفعها صفعة شديدة ألقت بها أرضاً ، وكاد يخرج المسدس لولا نوبة السعال الشديد التى اعترته فجأة . راح يسعل ويسعل وفجأة ترنح وانكفأ على وجهه والزبد يسيل من فمه .

— إلحقوا الحاج ! إلحق يا كرشة ! صرخت زازا .

فالتفت كرشة إلى الحاج الساقط وكف عن العراك ، ولم يعترض على ذلك توتو الذى لم يطلب العراك أصلا . فلما خفت نوبة السعال واستطاع الحاج أن يسترد أنفاسه وقف كرشة يتفحصنى حيث رقدت فاقد الرشد ، يده تداعب الخنجر المعلق فى حزامه كأنه يفكر فى ضربى من جديد . ثم غير فكره لا تدرى زازا لماذا ، والتفت إلى توتو صارخا فيه إطلع بره يا ابن الكلب ! فلما تردد توتو فى الخروج لوح له كرشة بالخنجر مهدداً ، ومد يده إلى الباب ففتحه بقوة ، تلك الحركة التى كانت كلها بركة . إذ أنه ما كاد يفتح الباب حتى حدث آخر شىء كان يتوقعه ، طن من الثلوج على الأقل تدفق فجأة من الباب الذى انفتح ، هوى فوق كل من كرشة وتوتو ودفنهما تحته . فما برحا يجاهدان حتى خرجا ، وقضيا ساعة يحاولان كسح ذلك الثلج إلى الخارج . لكنها كانت محاولة عديمة النفع ، كلما دفعوا

إلى الخارج كمية من الثلج دخلت بدلها كمية أكبر . وحتى الخروج من الكوخ أصبح متعذرا لانسداد الباب بأكداس الثلوج . فكفا عن المحاولة ووقفا يلهثان ، صارت الدنيا برد موت . فأشعلوا نارا ثانية بجانب الحاج وكانت ليلة . من شدة البرد لم يغمض لها جفن ، شأنها فى ذلك شأن توتو وكرشة . إذ جلس الرجلان حول النار يتبادلان نظرات التربص ، كل منهما يصبو وتتدلى رأسه على صدره فيسارع برفعها مجفلا ، وحشان يتوقع كل منهما أن يروح الآخر فى النوم فيثب عليه ويبطش به . وهكذا عاشوا يومين كاملين ، مهددين بالموت بردا وجوعا . فكيف يخرجون من الكوخ للحصول على التفاح أو السمك ؟ وفجأة شعروا بالشمس تشرق فى الخارج ، وبدأ الثلج يذوب شيئاً فشيئاً . الثلج يتحول إلى ماء يسيل على أرض الكوخ ويهدد بالغرق كلا منى ومن الحاج الذى يرقد على الأرض مثلى . فحمل كرشة سيده وأرقده على السرير الخشبى ، أما أنا فتولت زازا وتوتو كسح الماء بعيداً عنى . ولما كانت أرض الكوخ لحسن الحظ منحدرة بعض الشىء إلى الخارج فقد أخذت المياه تصرف نفسها ، سرعان ما انحسرت عن الكوخ توطئة لانحسارها عن الجزيرة كلها . فخرجوا إلى الشمس كالمجانين يلتمسون الدفء والتفاح والسمك . يومان آخران وبدأ الحاج طلبة يتماثل للشفاء ويتساءل عن سر ما حدث .

— تصور ياحاج ، قال كرشة ، إنى اصحى م النوم الاقى ابن اﻟ..
ده بيبوصها ؟

— والله ياحاج ماحصل ! هتفت زازا بحرارة ، والله ماحصل!
ده كرشة كان بيحلم !

واستخدمت كل ذكائها فى تدبير الكذبة المناسبة ، وكل مهارتها التمثيلية فى إدخال الكذبة على الحاج . إذ روت له كيف أنه — الحاج طلبة — أخذ فجأة يئن ويتوجع ، لم يسمعه أحد سواى أنا فخففت إليه . جثوت بجانبه أسأله مالك ياحاج ، سلامتك ! فبينما أنا جاثة هناك إذ استيقظ كرشة فجأة ، وبسبب كل من محوه المفاجىء والظلام رأى المسألة بالمقلوب ، ظن أنى هناك بسبب زازا لا بسبب زوجها المريض ، فبادر بدون أن يتحقق من الأمر إلى توجيه طعنته الشريرة إلى .

— والله ياحاج شفته بيبوصها ! قال كرشة يائساً ، والله كان بيبوصها !

— والله كذاب ! والله ماحصل !

ومن عيون زازا طفرت الدموع ، دموع الزوجة التى يتهمونها

فى شرفها زوراً وبهتاناً . والحاج طلبة يستمع إلى الطرفين وهو ينفخ من الغيظ ، ولا يعرف من يصدق منهما .

— ده يتجرأ ويقرب منى فى وسط تلت رجالة ؟ ! قالت زازا فى ازدراء وهى تشير إلى حيث رقدت فاقد الرشد ، ده جبان يخاف من خياله !

— والله العظيم طلاطة شفطه بيبوصها ! قال كرشة متمسكا .

— إخرس يا مجرم ! أنا بتاعة كده ؟ طب والله العظيم يا حاج لو صدقته لا انت جوزى ولا اعرفك ! آل بيبوسنى آل .

وبصقت على الأرض وانصرفت غاضبة تبرطم .

— مثلت لك الدور ده يا بنى تمثيل ! تحكى لى زازا ، والله العظيم الآخر كنت حاصدق نفسى !

كل هذا وأنا ملقى على الأرض ساخناً كالنار محموماً أهذى . وكانت زازا قد عمدت بعد انفضاض معركة توتو وكرشة إلى تضميد جرحى لإيقاف النزيف بقطعة من ذيل قميصها الوردى ، وذلك بعد أن كبست الجرح بالشىء الوحيد المتاح لها وهو الثلج . فلما ذابت الثلوج وتمكنوا من مغادرة الكوخ بدأت تحضر الماء لتسكبه فى فمى ، وتحايلت على عصر التفاح وإضافته إلى الماء . لم يحاول الحاج منعها من تمريضى لأنه مال فى النهاية إلى تصديق قصتها أو هكذا

أظهر، كما أن إسعاف المريض وإغاثة المنكوب أمر تقضى به الأخلاق، والضرب فى الميت كما قال مرة حرام .

كذلك حرص الحاج على حياتى بسبب المركب، فمن يصنعها لهم إذا أنا مت؟ فلما طال مرضى رأى الحاج أن يجرب مواهبه الهندسية، راح يأمر توتو وكرشة وهما يشتغلان .

— إكحت هنا ! إنحت هنا ! لأ موش هنا ! نعم هنا شوية . دوس هنا كان !

وهكذا حتى تم تفريغ جذع الشجرة وبدأ يتحول إلى ما يشبه المركب، فراحوا يعملون الأدوات فى جوانبها من الخارج لكى تستريح وتصلح لاعتلاء الماء . ثم نظر الحاج إلى نتيجة عمله ذات صباح وقال خلاص، نزلوها يا جدعان ! وبينما تعاون توتو وكرشة على دفع المركب إلى الماء وقف الحاج يتلو ما حضره من الأدعية والصلوات المناسبة للمواقف البحرية .

— أما كت فرجة يا بنى ! تحكى لى زازا ضاحكة، والله ولا والت ديزنى !

إذ ركب الرجال الثلاثة فى المركب وساروا بها خطوتين، ثم فوجئوا بها تميل إلى اليمين وتوشك أن تنقلب، فمالوا جهة اليسار حتى يعدلوها . لكنها لم تعتدل، مالت معهم إلى اليسار حتى كادت

تنقلب، فمالوا يميناً فمالت يميناً، ومالوا يساراً فمالت يساراً . أينما مالوا تميل معهم، وأخيراً قررت أن تميل جداً، فإذا بالرجال الثلاثة فى الماء وهى فوقهم .

فقلبوها واعتلوها من جديد، خمس مرات يعيدون التجربة ويحظون بنفس النتيجة . كلما ركبوها قلبتهم فى البحر، ثم يريدون أن يركبوها وهى تريد أن تركبهم . وزازا واقفة على الشاطىء تتفرج وتكاد تموت من الضحك، حتى أنها زعلت عندما يئسوا من التجربة وأقلعوا عنها .

— كان لازم يعنى تضربه يا بن الكلب ؟! صرخ الحاج فى كرشة وهو يغلى من الغيظ .

— هه ؟ قال كرشة فى بلاهة .

— المهندس اللى ح يبنى لنا المركب، شرح له الحاج، تضربه ليه ؟ راجل محمنى بالنازع وجاى يطمن على، تضربه ليه يا بن الكلب ؟!

— وشرفك يا حاج كان بيبوصها ! وضينى وأيمانى كان . .

— إخرس يا طور ! موش عايز اسمع الكلمة دى تانى . جتك البلا ف غباوتك وزناخة مخك ؟

فانصرف كرشة يضرب أخماساً بأسداس، ومن تلك اللحظة

صار همهم الوحيد هو انتظار شفائى ، حتى أن الحاج كان يدعو لى بنفسه بعد كل صلاة .

— توتا توتا فرغت الحدوتة ، قالت زازا فى النهاية باسمة ، حلوة ولا ملتوتة ؟

فلم أجبها لفورى ، رحت أنظر إليها طويلا ، طويلا جداً رحت أنظر إليها .

— زازا ، قلت لها أخيراً .

— ههم ؟ سألتنى .

— أحبك ، أجبتها .



الفصل السادس عشر



يخيل إلى حيث رقدت أننى سأخرج لأجد كل شىء متغيراً ، لكن أبداً . خرجت فوجدت كل شىء على حاله ، شجرة التفاح التى تتوسط الجزيرة مثقلة الغصون بالتفاح الأحمر والأخضر ، وبئر المياه والجرة بجانبها ، والبحر الذى عاد صامتاً كما كان ، والأفق المستدير الذى يحصر المياه حولنا من كل ناحية . لكننى اكتشفت اختفاء الجمجمة والعظام ، جرفتها الأمواج فى أثناء العاصفة . فلو كنت ممن يهتمون بتلك الأمور لقلت أنه فأل حسن ، لكن شعورى كان عكس ذلك . افتقدت تلك الجمجمة التى تعلمت أن أحبها .

شىء واحد تغير فى الجزيرة وهو وجوه سكانها ، إذ نظرت

إليهم فكأنما فارقتهم منذ سنوات . الكراميش فى وجه الحاج طلبة أصبحت أخاديد ، ومن لحيته وشعره كاد يختفى كل أثر للشعر الأسود . فى عشرة أيام أصبح الحاج عجوزاً ، وكاد الشىء نفسه يحدث لتوتو وكرشة . إلا زازا التى يبدو أنها لا تتغير أبداً .

— ألف حمد لله على سلامتك يا باشمهندس ، قال لى الحاج طلبة بشوق وهو يقبلنى على خدى الأيمن .

فى وجهه عليه اللعنة رائحة من زازا .

— والله ما تعرف كنت مخضوض عليك أد إيه ؟ أضاف وهو يقبلنى على خدى الأيسر .

طبعاً تخض على يا وغد ، ألست أنا الذى فى يده خلاصك ؟

— صدق اللى قال ادى العيش لخبازه ، قال وهو يقودنى نحو جذع الشجرة ، الهندسة برضه لها أهلها .

وكانت المركب مقلوبة فتعاونوا على عدلها ، نظرت إليها ورفعت حاجب السخرية الأيسر .

— دى ، سألتهم ، مركب ؟

فقالوا آه .

— أنا باحسبها موتوسيكل !

فتضاحك الحاج طلبة ، وابتسم كل من توتو وزازا .

— موطوسيكل ؟ إلا موطوسيكل دى ! قال كرشة .

فتلفت حولى متظاهراً بالبحث عن مصدر الصوت .

— أنا سمعت حد بيقول حاجة ؟ تساءلت بازدراء .

— إسكت يا كرشة ، قال له الحاج .

فوقفت — أنا المهندس المنتظر — أجيل بينهم نظرات ساخرة لاسعة حرافة .

— إنتو طبعاً منتظرين انى اصلح لكم ا .. ا .. المركب دى ، موش كده برضه ؟

— طبعاً يا باشمهندس ، فيه مين غيرك ؟ قال الحاج فى تواضع لا بأس به .

— عشان اصلحها لى شوية شروط .

فسكتوا فى انتباه ، عيونهم تطوقنى فى لهفة .

— أولا ، قلت ثم سكت لكى أزيد من لهفتهم ، لازم البأف ده ييجى يبوس إيدى ويستسمحنى .

وأشرت ناحية كرشة الذى راح يتلفت حوله فلم يجد فى الناحية أى بأف سواه .

— بأف ؟ أنا بأف يا باشمهنضس ؟

— تستاهل يا كرشة ، قال له الحاج طلبه، وزى ما ضربته لازم تستسمحه .

— أصطصمحه ؟ !

— وتبوس إيده زى ما قال ، أضاف الحاج بحزم .

— أنا ابوس إيده ؟ ! قال كرشة فى ذهول .

— آه ، موش كنت ح تقتله ؟ موش عارف انه يقدر يوديك محكمة الجنايات ؟

فراح كرشة يحملق فى وقد انفغر فمه ، بينما بسطت نحوه ظهر يدى لكى يقبلها ، مسبل الجفون أنظر إلى الناحية الأخرى فى كبرياء .

— بوس ! قال الحاج آمراً .

فتصبب كرشة وضرب كفاً بكف .

— اصطغفر الله العظيم يا رب ، قال بحرارة ، عشت يا كرشة وبصت الإيضين !

وتناول يدى فطبع عليها قبلة لزجة مقززة شائكة كأنها عضة لا قبلة .

— اسمحوا لى بقى بشوية مية ، قلت للحاج .

— هات له مية يا كرشة .

وبينما أحضر الجرة ظللت باسطاً يدى أبعد ماتكون عن جسمى ، توطئة لأن أسكب عليها من الجرة لأطهرها .

— شوف ابن الـ . . ! صاح كرشة .

— كرشة ! قال الحاج ناهراً .

— ده يفكرنى بالشرط التانى ، قلت للحاج طلبة ، إذا الجدع ده وجه لى أى كلمة ح ابطل شغل .

— من هنا ورايح مالكش أى دعوة بيه يا كرشة ، قال له الحاج ، وأى حاجة يقولها لك تعملها على طول ، سامع ؟

— سامع ، قال كرشة فى استسلام .

— يا لله يا باشمهندس ، قال الحاج ، إحنا ضاع منا وقت كتير .

— أولا ناولونى الخنجر .

فناولوه لى ، أعملته فى لحيتى وشعرى بالتهذيب ، وفى أظافرى بالتشذيب ، ثم قصدت إلى شجرة التفاح ورسمت عليها عشر علامات بعدد الأيام التى يقولون أننى رقدتها ، ثم قطفت تفاحة واتجهت إلى المركب وأنا أقرشها .

— موش مصدق أبداً ان دى مركب ، قلت لهم ، ده نعش بس ناقصه الكسوة !

وبدأنا العمل ، إكحت هنا وانحت هنا ، نعم هنا دوس هنا ،

أصلح ما أفسدوه بجلافتهم الهندسية . ساعتان وأنا أعطى الأوامر حتى تعبت .

— عاوز اتغدى ، أخطرتهم .

فصاد توتو السمك وشواه ؛ كانت ست سمكات أكلت منها ثلاثاً وحدى .

— أنا موش واخدهم طمع ، أفهمتهم ، لأ ، بس عشان الفوسفور مفيد للتفكير .

وكان الحاج يريد أن أواصل العمل بعد الغداء لكننى اعتذرت .

— ما تنساش انى لسه قايم من العيا ، ولازم ادخل اقيل شوية .

واتجهت بجلال نحو الكوخ ، دخلته وأقفلته على لأنام . فلما أخذت حقى من الراحة نهضت وقصدت إلى المركب من جديد .

— هاها ، ضحكت وقد وقع بصرى عليها ، طب والله لولا قلتولى إنها مركب كنت افتكرتها عربية كارو !

فضحك الحاج طلبة ضحكة صفراء ، وتصعب كرشة فى صمت .

— أنجر ! قال توتو فجأة وهو يناولنى الخنجر .

— الله ! هتفت ، ده نطق !

— ح يقعد المدة دى كلها ما ينقطش منا كلمة ؟ تساءل الحاج ، ده لو حيطة كان اتعلم .

— الخنجر أنجر ، قالت زازا شارحة ، والمركب أركب ، والشجرة أجرة !

وضحكت زازا فضحكت وضربتها برفق على ظهرها ، زغر لى الحاج وقال إحم .

بالخنجر والمنشار واصلنا العمل ، خمس علامات جديدة رسمتها على جذع شجرة التفاح ونحن نعمل . كلنا نعمل بما فينا الحاج طلبة ، ولعله كان أشدنا حماسة للعمل ، معذور وهو يحمل فى وجهه كل تلك الغضون والأخاديد . بالخنجر والمنشار ننحت ونكحت ، شيئاً فشيئاً بدأ الموتوسيكل يتحول إلى مركب . فوقفت ذات صباح أفحص نتيجة عملنا ثم ابتسمت .

— أفتكر يا ولاد ، قلت لهم باسماً ، إنها بقت مركب .

فتهلل وجه الحاج طلبة .

— يعنى ننزل نجربها ؟ سألنى بلهفة .

— ما فيش مانع ، قلت له بسماحة علمية ، تقدر تنزل .

— يا لله يا جدعان ، صاح وهو يشمر أكمامه ، يا لله !

— بس أنا موش عاوز اتبل ، أفهمتهم .

واعتليت المركب وهى ما تزال على الشاطىء داعياً زازا إلى مصاحبتى ، بينما راح الرجال الثلاثة يدفعون المركب وينزلونها إلى

البحر . فلما صار الماء عند ركبهم قفزوا ليركبوا ، أخذت بيد الحاج لأعينه على الصعود . وكنا قد نحتنا ما يشبه مجدافين كبيرين تناول أحدهما توتو وتناول الآخر كرشة وراحا يجدفان .

— دى مشيت يا جدعان ! هتف الحاج بفرحة طفل صغير ، مشيت ! والله ماشية !

ورفع يديه إلى السماء وراح يعطرها بالحمد والشكر .

— متهيألى يا حاج ، نبهته ، إنى انا استحق كلمة شكر .

— كلمة وبس ؟ دنت تستاهل بوسة !

وهجم على يغرق وجهى بقبلاته كأنه يأكلنى .

— ما كنتش عارف ، قلت له وأنا أصده عنى ، إن البوسة منك انت !

فنظر إلى بخبث ثم التفت إلى زازا .

— كافئيه يا عزيزة ، يستاهلها !

قالت زازا على وقبلتنى ، ولكى أعرب عن شكرى ملت عليها وقبلتها قبلة يبدو أنها تجاوزت حدود الشكر فقال الحاج إحم .

المقاديف تضرب الماء وسفينتى تسير باسم الله مجريها ومرساها. على الماء تنزلق برشاقة البجعة الحسناء ، بارك الله فى مخى الهندسى الفذ.

— بذمتكو صحيح ؟ سألتهم بعد حين .

— صحيح إيه ؟ سألونى .

— كنتو عايزين تنزلوا البحر بوابور الزلط ده ؟ !

فضحك الحاج ملء وجهه الذى يموج بالفرحة والأمل . على الماء تمشى سفينتى ، تنساب وتتهادى على إيقاع جميل من خفق الموج على جنبيها .

— من هنا ورايح ، قالت زازا ضاحكة ، حقنا نسميك احمد نوح !

— لكى حق والله ، قلت مصدقا ، ولو ان فيها من كل صنف واحد بس !

وأشرت إلى ركاب السفينة فضحكت زازا وضربتنى على ظهرى .

— متهيألى سرعتنا خفت شوية ؟ تساءل الحاج بعد حين بقلق .

— قول للطور ده يقدف زى الناس ، قلت مشيراً إلى كرشة .

— قدف كويس يا كرشة ؟

— ما انا باقضف اهه ، برطم كرشة ، إمال انا باعمل إيه ؟

لكن سرعتنا كانت قد خفت فعلا ، حتى بدأ القلق يساورنى أنا الآخر .

— على كل حال الحق موش ع المركب ، نبهت الحاج ، كل مابندخل جوه الموج بيتقل .

— كلام معقول ، قال مستعداً لقبول أى تفسير .

ثم بدأت المركب تحيد جهة اليمين .

— إعدل المقداف يا أخينا ، قلت لكرشة .

— ماهو معضول آهه .

وكان فعلا معدولا ، وكذلك مجداف توتو ، لكن المركب ظلت تحيد إلى اليمين . كنا نسير والجزيرة خلفنا فأصبحت الآن عن يميننا ، رقعة أرض صغيرة على مسافة تقرب من الكيلو .

كنا نسير مبتعدين عنها والآن نسير بمحاذاتها .

— حاجة غريبة خالص ، قلت فى غيظ ، ناولنى المقداف .

تناولت مجداف كرشة على أمل أن أعدل من سير المركب ، إذ كانت لى خبرة بالتجديف أيام الجامعة . جدفت كما يجب أن يكون التجديف ، وجعلت توتو يحذو حذوى ، لكن هذا لم يغير من الأمر شيئاً . المركب مصرة على أن تسير بمحاذاة الجزيرة بدلا من أن تبتعد عنها ، كأنها تنوى أن تدور حولها . فلو لم تكن تدور حولها فلماذا هى طول الوقت عن يميننا ؟

— عندى فكرة ، قلت .

— إلحقنا بيها ياصى نوح ! قال كرشة ساخراً .

حولت حركة الجدافين بما يجعل المركب تتجه نحو الجزيرة

عمودياً لكى أرى إن كانت ستطيعنا أو تظل تدور حول الجزيرة . فأطاعتنا المركب ، أخذت تقترب من الجزيرة وبسرعة أكبر مما نطلب . فعكست الوضع ، أدرت المركب كما كانت جاعلا الجزيرة خلفنا ورحنا نجدف ، أطاعتنا المركب أيضاً . راحت تبتعد عن الجزيرة كما حدث من قبل ، حتى وصلت إلى نقطة معينة فحادت إلى اليمين وبدأت تسير بمحاذاة الجزيرة . من جديد رفضت المركب أن تبتعد عن الجزيرة وأصرت على أن تدور حولها .

— حاجة موش مفهومة بالمرة ، قلت معلنا حيرتى .

— حاجة تجنن ! قال الحاج وهو ينفخ .

— طب والنبى فسحة حلوة ! قالت زازا .

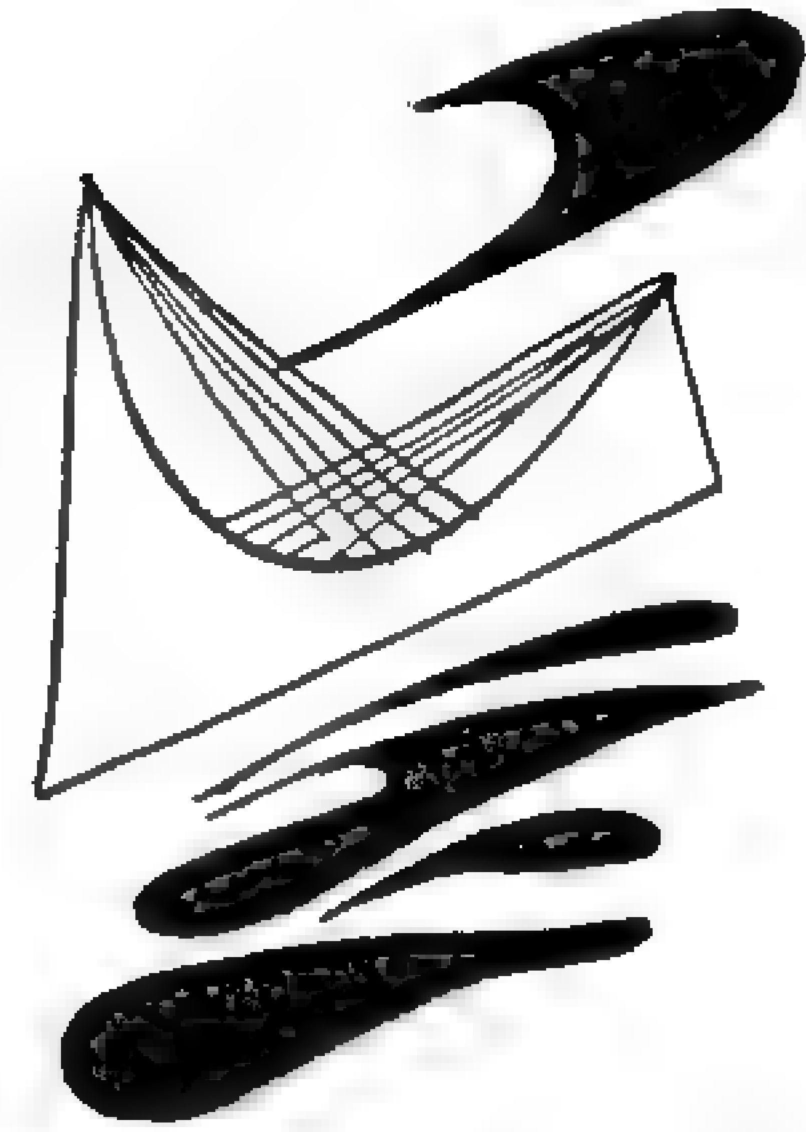
— فسحة ؟! قال كرشة وبصق فى البحر .

عاودت تجربة العودة إلى الجزيرة فأطاعتنا المركب ، وعاودت تجربة الابتعاد عنها فأطاعتنا ، لكننا ما كدنا نبلغ نقطة معينة حتى عادت تدور حول الجزيرة . وفجأة حدث ما هو أغرب من ذلك .

فجأة بدأت سرعة المركب تزيد بالرغم من أننا توقفنا عن التجديف ، شيئاً فشيئاً أخذت تزيد حتى أصبحنا نجرى لا نسير ، كأننا فى لنش بخارى حديث .

— ياساتر يارب ! هتف الحاج فى فزع ، ياساتر يارب !

بسرعة شديدة تدور المركب حول الجزيرة ، وبالطبع تتقلقل وتمايل وتضطرنا إلى التشبث بحافتها بكل قوتنا مخافة أن تنخلع منها. صوت الماء تحتنا أشبه بصوت شلال يتدفق ، والأفق يدور حولنا ويدور حول مركز واحد هو الجزيرة .



— ياستار ! ياستار ! ياستار ! ردد الحاج طلبة .

— دحنا كإننا ف لونا بارك ! هتفت زازا .

ولاحظت أنا ظاهرة جديدة ، أننا فى دوراننا حول الجزيرة

نقترب منها فى الوقت نفسه ، كأن المركب تدور فى خطوط حلزونية تدنينا من الجزيرة ولابد أن تنتهى بنا إليها .

— إحنا بنقرب م الجزيرة ! صاحت زازا مبتهجة .

شيئاً فشيئاً تضيق الدوائر حتى أصبحنا على بعد خطوات من الجزيرة ، درنا حولها دورتين أخيرتين ثم انتهينا إلى الشاطىء . صدمة عنيفة ومقدمة المركب تنغرس فى الرمال فكدنا نندلق منها على الأرض .

— حمد الله ع السلامة ! قالت زازا بضحكة صغيرة .

لكن أحداً لم يجبها . الحاج طلبة يدمدم بصلوات لم أسمعها ، وتوتو قابض على المجداف يتفحصه فى بلاهة ، وكرشة التفت إلى وراح يتفرس فى نحوا من دقيقة كاملة ، لو أن النظرات تقتل لقتلتنى نظرته . وأخيراً نطق .

— اطفوا عليك مهندس ! قال وهو يغمر وجهى ببصقة .



الفصل السابع عشر



مرات فى خلال يومين كررنا تلك التجربة اللعينة — تجربة الخروج بالمركب من الجزيرة ، وفى كل مرة تتكرر المأساة نفسها . المركب تدور حول الجزيرة كأنها مشدودة إليها بحبل ، ثم تعود إليها فى تلك الدوائر الحلزونية الفاجعة . فوقف كرشة يشوينى بنظراته الحاقدة ، ثم بسط ذراعيه كأنه سيرقص . راح يتقصع فى وقاحة ويقلدنى وأنا أسوق إليهم تعليماتى الهندسية .

— إكحط هنا ، إنحط هنا ! خفف هنا ، طقل هنا ! نعم هنا ، خشن هنا . دى موطوسيكل ! دى عربية كارو ! دى وابور زلط ! آهى بقت مركب يأروح امك ، عملنا بيها إيه ؟ ياخى جتك سطين نيلة ع اللى علمك الهنضسة !

فدارت فى ذهنى تعليقات كثيرة ، لكننى احتفظت بها لنفسى بالطبع . ورمقه الحاج طلبة فى امتعاض .

— وهو ذنبه إيه يأخى ؟ سأله لائما ، هى المركب موش مشيت بينا ؟ هى موش عامت بينا ؟

— طب وبطرجع طانى هنا ليه ؟ سأله كرشة وهو يضرب براحته اليمنى ظهر يده اليسرى .

فتريث الحاج فترة قبل أن يجيب .

— البحر ده فيه حاجة ، قال الحاج طلبة بنبرة خوف ، الجزيرة دى كلها فيها حاجة . أنا احلف انها مسكونة ولا معمول لها عمل !

فلم أعلق على هذا الكلام أيضاً ، لا أظن أنه يستحق التعليق .

— أنجر ! قال توتو مشيرا إلى الخنجر .

فناولناه إياه وقد ظننا أنه سيصيد السمك ، لكنه انطلق به إلى المركب وجثا بجانبها ، راح يتأملها حينا ثم بدأ يحك بالخنجر فى نقطة راقت له من مقدمتها .

— ياصلام ياصيدى ، تصعب كرشة ، قال دى يعنى اللى كط ناقصة ! ثم التفت إلى أنا .

— جطكو نيلة مهنضسين ؟

— جتك ستين نيلة انت ! أفلتت منى الكلمة .

— احطرم نفسك يأأسطاز !

أجابنى شافعاً إجابته بزغد .

— يخلصك كده ياحاج ؟ سألت المذكور من حيث انبرشت على الأرض .

— ماتحل عنه ياواد يا كرشة ! قال له الحاج زاجرا .

فوقف كرشة يصوب إلى الحاج نظرة طويلة متحدية من خلال جفونه الثقيلة المتهدلة ، نظرة لا أذكر قط أننى رأيته يصوب إليه مثلها .

— أناحر ف نفصى،نطق كرشة أخيراً، ماحدش له عنضى حاجة!

فاحمر وجه الحاج حيث جلس متشاغلا بالتسبيح ، بينما حافظ كرشة على وقفته المتحدية ونظرته المتحرشة . هل قرر الكلب فجأة أن يتمرد على سيده ؟

— إنت بتبوأ فى ياواد ؟ زجر الحاج طلبة غاضباً .

لكن كرشة لم يتأثر .

— طب بص ما تقولش واض ! أجابه بنفس اللهجة المتحدية ، أنا راجل ظبى ظبك ، آه !

فازداد وجه الحاج احمرارا ، وراح يحملق نحو كرشة فى غضب شديد تمازجه دهشة أشد ، ولمسة من الخوف تراءت فى عينيه

واضحة . ثم أشاح بوجهه فى صمت وامتدت يده بحركة لا شعورية تتحسس جيبه ، فما لبث كرشة أن أولانا ظهره وابتعد بعد أن بصق على الأرض تعبيرا عن شعوره بالموقف كله . نعم هو قرر أن يتمرد على سيده ، أمر ثبت لنا بوضوح فى اليومين التاليين . فإذا استثنينا تلكؤه الطارىء فى تنفيذ طلبات الحاج طلبة ، وتجاهله التام لها فى بعض الأحيان ، فهناك الطريقة الجديدة التى بدأ يتبعها فى التطلع إلى زازا . كان فيما مضى يغض البصر إذا واجه زوجة سيده ، أما الآن فهو ينظر إليها بصفاقة ويبتسم أيضاً . نظراته الوقحة تكاد تخترق جلبابه المحيط بجسمها ، وريالته تكاد تسيل من فمه . ثم تجاوزت جرأته حدود البحلقة ، إذ مرت به زازا يوما فإذا به يشرع فى الغناء .

— اتمخطرى ياحلوة ياظينة ، طرنم كرشة ، ياورضة من جوه جنينة !

هو طبعاً لا يوجه الأغنية مباشرة إلى زازا ، لكنه كما يقولون يريد أن يسمعها . ولم يكن الحاج طلبة موجوداً لحسن الحظ ، كما أنه لم يكن موجوداً فى المرة الثانية ، عندما جاوز كرشة بجرأته كل الحدود . إذ مرت به زازا فى طريقها إلى البئر وكان هو جالسا على الأرض ، فإذا به يرفع ذراعيه ويشرع فى طرقعة أصابعه وهو يترقص .

— هظ ياوظ ! هظ ياوظ ! هظ ياوظ !

هكذا ظفها — أعنى زفها — حيث سارت أمامه ، لم ترهبه نظرة الاحتقار التى رجمته بها زازا .

— صلاة النبي أحصن ! قال كرشة وهو يلعب حاجبيه ، ياأرض احفظى ما عليكى !

ولم ينس أن يواصل الزفة حين عادت زازا من عند البئر بالجرة المليئة .

— هظ ياوظ ! قال كرشة وهو يصفق ، هظ ياوظ !

وكانت زازا معذورة فى الضحكة التى أفلتت منها وهى تواصل رحلتها نحو الكوخ ، تلك الضحكة التى أثرت فى كرشة حتى جعلته يستلقى على ظهره ، رافعا ساقيه ومحركا إياهما فى الهواء كأنه يركب عجلة بالمقلوب .

— بظمتك ياباشمهنضس موش حرام ؟

— هو إيه اللى حرام ؟ سألته بازدراء .

— الحاج يطمطع بالجمال ده كله واحنا قاعدين نطفرج ؟

وبالرغم من موافقتى له على هذا الرأى فلم أصارحه به ، لا تعجبنى فكرة وقوع الجمال المذكور بين ذراعى الغوريلا . فلما كان اليوم التالى تبين لى أن الأمر أخطر بكثير مما أتصور ، وذلك عندما انتهزت زازا فرصة ابتعاد الآخرين وأتت تحدثنى .

— كرشة ده اتجبن خالص ، أخبرتنى ، تصور انه خلانى ماشية وقرصنى فى دراعى ؟ !

— يانهار اسود ! ده لو الحاج عرف كان يضربه بالرصاص .

— اللى رميته فى البحر ؟ سألتنى ساخرة .

— ماكانش حقك ترميه أبداً .

فلم تعلق على هذا الرأى ، ووقفت تتأملنى .

— إنما انت إيه حكايتك الأيام دى ؟ سألتنى بنظرة جانبية ماكرة .

— حكايتى ؟

— آه حكايتك . لا بتسأل على ولا بتكلمنى ، ولا كأنك تعرف واحدة اسمها زازا !

حقاً إننى أهملتها فى العهد الأخير بصورة وضيعة ، ولكن للضرورة أحكامها .

— لو حصل لك اللى حصل لى ، صارحتها وأنا أشير إلى كتفى الأيسر ، كنتى تعرفى إيه حكايتى .

— عزيزة ! أتى صوت الحاج طلبة منهياً حديثنا .

أما كرشة فقد رسم فى مساء اليوم التالى بداية عهد جديد تماما ، عندما رأى الحاج طلبة يدخل إلى الكوخ مع زازا فقال لنفسه هع ، توطئة لأن ينادى الحاج بصوت يقطر استهزاء .



— يا حاج طلبة ، صاح كرشة ، ما يلظمش خضمة !؟

فجمد الحاج طلبة فى مكانه ، سمع النداء ولكنه لم يلتفت إلى المنادى . وقف عند باب الكوخ يستوعب ما سمع ثم مد يده إلى جيبه حيث يوجد المسدس . نحواً من دقيقة جمد الحاج على هذا الوضع وهو يفكر ، فالحمد لله أنه انتهى من التفكير إلى تغليب الحكمة ، إذ دخل فى صمت وأقفل الباب وراءه . فعند ذلك خطر لى أنه قد يكون من الواجب على أن أخطره بأمر مسدسه القاضى ، خير له أن يعرف حدود قوته فى مواجهة كلبه الذى انسعر .

— هيع ! قال كرشة ، هيع هيع هيع !

فتركته وذهبت لأنام ، وقبيل الفجر صحوت مذعوراً . صحوت على صوت أذكر أننى صحوت على مثله من قبل ، صوت جسمين عاريين يتلاطمان بقسوة وعنف . فنهضت لكى أرى المنظر القديم نفسه على ضوء القمر الشاحب ، منظر توتو وكرشة وقد التحما فى معركة دموية بالبونيات والروسيات ، وبالمخالب والأسنان ، والخنجر ملقى على الأرض بالقرب منهما ، فأسرعت بالتقاطه وإخفائه وراء ظهرى . وانفتح باب الكوخ عن الحاج الذى أيقظته الضجة ، وقف يتأمل المنظر حيناً ثم التفت إلى .

— فين عزيزة ؟ سألنى بسرعة .

— زازا ! هتفت فى دهشة ، هى موش معاك جوه ؟

وقبل أن يجيب أتانا صوت زازا .

— ما نا قدامكو آهه !

وكانت فى الحقيقة خلفنا لا أمامنا، فالتفت الحاج إليها فى غضب وهم بأن يقول لها شيئاً ثم عدل والتفت نحو المتعاركين . ظل يرقبهما حيناً ثم اتجه إليهما وهو يخرج المسدس من جيبه .

— بس منك له ! صرخ فيهما ، بس يا كرشة ! سيبه يا ولة !

فصدع كرشة وترك توتو ليواجه الحاج .

— بدل ما تقل أضبك على ، قال له فى غيظ وهو يلهث ، إسألنى باضربه ليه .

وتوقف لحظة ليأخذ نفسه .

— باضربه عشان سيادتك نايم زى الجرضل ، شرح له ، وهو واخد مراطك ورا المركب و ناطل فيها بوص !

فتدلى فك الحاج فى بلاهة ، معذور والله إزاء هذه التشكيلة من الشتائم والمعلومات .

— كذاب فى أصل وشك ! صرخت زازا فى كرشة ، كذاب !

والتفتت إلى الحاج .

— هو اللى خلانى رايحة اشرب وجه يماكسنى ، جه توتو يحوشه عنى مسكوا ف بعض !

فازداد وجه الحاج طلبة بلاهة ، فى حين شرع كرشة يشد شعر رأسه بكلتا يديه .

— ياعالم ! ياهوه ! يا مصلين! أنا ماكصتك يا ولية ! أنا قربت منك خالص ؟ ماكانش واخدك ورا المركب وناطل فيكى بوص ؟

— بس يا كذاب ! هتفت زازا ، ماخلتنيش ماشية أول امبارح وقرصتنى فى دراعى ؟

فتردد كرشة لحظة ثم قذف بالاعتراف .

— آه حصل ! لكن احنا فى الليلة دى . مين فينا اللى كان واخدك وناطل فيكى بوص ؟

— بس يا كذاب ! أعادت زازا بصوت تخنقه الدموع ، بس يا خباص !

وفى عينيها ترقرقت دموع المظاليم ، بينما راح الحاج طلبة ينقل النظر بينها وبين كرشة عاجزاً — مثلى — عن تبين الصادق من الكذاب . وأخيراً ركز بصره على كرشة وأخرج السبحة من جيبه فقدمها إليه .

— إمسك ! قال له آمراً ، تحلف على السبحة دى ان كلامك صحيح ؟

فتناول كرشة السبحة وبدأ يحلف .

— وحياط الصبحة دى ! وحياط للمصحف الشريف ! وحياط الخطمة الشريفة ! وحياط ربنا ! وحياط النبى ! وحياط الصيدة ! وحياط الحصين ! أعضم عينى وعافيطى ! أنطس فى نظرى ! ينقطع ضراعى ! يفرمنى طرماى ! أبقى ابن سطين . . إن ما كنت شفطه واخدها ورا المركب وناطل فيها بوص !

وكان كرشة — لفرط حماسته — ياتى بأيمانه دون أن يأخذ بينها أى نفس ، فلما انتهى منها وقف يلهث وينهج كأنه خرج لتوه من مباراة فى الملاكمة . أما الحاج طلبة فقد احتقن وجهه وبرزت العروق فيه بدرجة تمكن طالب الطب — لو تصادف وجوده — من دراسة الدورة الدموية على الطبيعة . نحواً من دقيقتين وقف جامداً كالتمثال ثم التفت إلى توتو ، صوب إليه نظرة فيها من الحقد مالو عبىء فى مدفع لانطلقت منه قنبلة ، ثم صوب إليه المدفع الصغير الذى فى يده وتهيأ للضغط على الزناد .

— أنا ف عرضك يا حاج ! صرخت فيه يائسأ ، بلاش تضرب ! بلاش يا حاج انت راجل مؤمن !

غير أنه لم يحفل بى إن كان قد سمعنى أصلا ، بقوة ضغط على الزناد .

— تك ! قال المسدس .

تكة معدنية باردة أثارت دهشة الحاج فضغط على الزناد من جديد .

— تك ! قال المسدس ثانياً .

فازدادت دهشة الحاج مع بادرة من الخوف فى عينيه ، وضغط على الزناد ثالثاً .

— تك ! تك ! تك ! تك !

تكات باردة متعاقبة وما من رصاصة تنطلق ، الأمر الذى لم يكن غريباً معه أن يصبح وجه الحاج صورة مجسمة للدهشة والغيظ والرعب . وتوتو يتلقى تلك الرصاصات الوهمية بمزيج مماثل من العواطف ، وكرشة يرقب الموقف بأغبى نظرة فى أغبى وجه رأيته فى حياتى . وأخيراً فتح الحاج مسدسه وأخرج المشط ليفحصه ، خيل إلى مدى لحظة أنه — الحاج لا المشط — سوف ينفجر .

— ابن . . مين اللى سرق الرصاص ؟ جأر الحاج بحقد أسود ، ابن . . مين ؟ !

وألقى بالمسدس على الأرض وراح يجيل النظر بيننا باحثاً عن اللص ، ثم استقرت عيناه على زازا .

— ما فيش غيرك يا بنت الـ . . ! جأر فى وجهها .

ورفع يده ليصفعها ولكنها وثبت خطوة إلى الوراء ووقفت كنمرة متحفزة ، تدق بقبضتها اليمنى على راحتها اليسرى .

— أيوه انا اللى سرقته ! ورميته فى البحر كمان ! ومسدسك فاضى ! ما عندكش رصاص !

وشجعها ذهول الحاج على الاسترسال .

— وأبوه كان بيبوسنى ، عاجبك ولا لأ ؟ أنا حرة فى نفسى ! مالك ومالى ؟ طلقنى ! ما با حبكش ! جتك البلا !

فازداد ذهول الحاج ، راح يلتهمها بنظراته حيناً ثم انقض عليها كالوحش وأطبق على عنقها . كادت زازا تنتهى لولا يد توتو التى جذبت الحاج من قفاه وطوحته بعيداً ، وهى اللحظة التى انتهزها كرشة لكى ينقض على توتو من الخلف ويشل حركة ذراعيه ، فى حين هجم الحاج عليه من الأمام وبدأ فى كيل الصفعات واللكمات . كم صفعة ولكمة نالها توتو لا أذكر على وجه التحديد ، ولكنها كانت كافية لأن تجعله يتراخى بين ذراعى كرشة وينزلق إلى الأرض . وحتى بعد أن سقط لم يرحمه الرجلان ، واحد منهما يرفصه فى جنبه والآخر فى رأسه ، فغطى توتو وجهه بذراعيه وضم ركبتيه إلى صدره ليتلقى آخر الرفصات وأقواها فى ظهره ، فسكنت حركته ورقد على الأرض كالقتيل .

— قتلته يا مجرم ! صرخت زازا بصوت مجنون ، قتلته يادون !
وكرشة قرصني وسايبه . خايف منه ليه يا جبان ؟ !

فما كاد الحاج يسمع الكلمة حتى طارت يده — تلقائياً — إلى صدغ كرشة بصفعة ألية .

— مرة تانية ما تعملهاش ! صرخ الحاج طلبة فى كرشة .

صفعة شديدة تلقاها كرشة ببساطة وكأنها ذبابة حطت على وجهه ، ثم رفع يده الغليظة وإذا بها تستقر على صدغ الحاج بصفعة مماثلة .

— ما تمضش إيدك على !

وصفعة ثانية ألصقت الحاج بجدار الكوخ .

— أنا اقرص على كيفى ! تعا يا بط !

وجذب زازا من ذراعها وواصل الكلام .

— أقرص على كيفى وابوس على كيفى كمان ، آه !

وتناول رأس زازا بين يديه وألصق بخدها شفتيه ، سمعت قبلة أشبه بصوت فرملة طويلة حادة لسيارة مسرعة .

— قلط إيه بقى ؟ سأله كرشة وهو يترك زازا .

فلم يقل الحاج شيئاً ، بظهره ضغط على جدار الكوخ لكى يكتسب أكبر قوة ممكنة يندفع بها نحو كرشة . لكن كرشة

هو كرشة ، تلقى الحاج المندفع بيديه ودفعه دفعة ردته إلى حيث كان لصق الكوخ ، توطئة لأن ينقض عليه فيطبق على رقبته باليدين .

— إنط موش أضى ياحاج ، موش أضى ! أفطلك ؟ أخنقك ؟ لكن لأ ، أنا برضه عندى إنصانية !

ونزع يديه عن عنق الحاج لكى يصوب إلى فكه لكمة إنسانية شديدة تلقاها الحاج فى استسلام حيث استند إلى الكوخ ، ثم بدأ ينزلق ببطء حتى جلس على الأرض وقد مال رأسه على كتفه كرجل نعسان .

وكرشة راح يتلفت حوله كالمجنون .

— فين الخنجر ؟ ! فين الخنجر ؟ !

فشعرت بالمذكور يرتعد فى يدى ، وازدادت الرعدة عندما رأيت كرشة يركز بصره على كأنما قرأ خواطرى .

— مافيش غيرك انط ! صرخ كرشة فى وجهى ، ح طجيبه ولا اصيح ضمك ؟

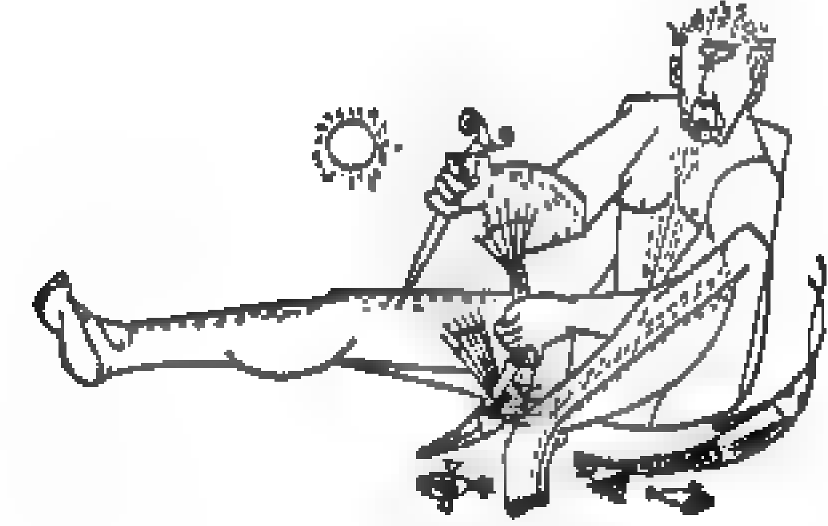
فوجدتنى أبرز الخنجر ببساطة من وراء ظهرى .

— آهه !

وقذفت بالخنجر نحو كرشة توطئة لأن أطلق ساق للريح ، فلما لم أشعر بصوت يلاحقنى توقفت والتفت إلى الوراء ، رأيت كرشة وهو يطبق بيده على ذراع زازا ويجذبها إلى الكوخ .

— أحمد ! صرخت زازا من بعيد ، أحمد ! إلحقنى يا احمد ! حوشه عنى يا احمد! إلحقنى يا احمد !

حلوة دى — قلت لنفسى — آل الحقها آل .



الفصل الثامن عشر



إلى الكوخ المقفل على زازا وكرشة أحسست بأننى أريد أن أبكى ، ثم بأنى أريد أن أضحك ، ثم وجدتنى أفعل الأمرين معاً . وكانت الشمس قد بدأت تشرق ، لا أدرى كيف سمحت لنفسها بالشروق فى تلك اللحظة . شعاع منها سقط على الجزيرة وأضاءها كما يضيئها كل يوم ، كأن شيئاً مختلفا ورهيباً لا يدور اليوم فى تلك الجزيرة . شعاع سقط على الحاج طلبة حيث جلس كالنعسان مستندا إلى جدار الكوخ ، وعلى توتو الذى ما برح طريحا على الأرض كالجثة الهامدة . فلو أننى كنت مكان الشمس لعدت من حيث أتيت ، لكن الشمس فيما يبدو لا تحفل

كثيراً بهذه الأمور ، رأتها أكثر من مرة حتى ألفتها واعتبرتها من روتين الوجود .

كان الحاج طلبة أول من أفاق ، رفع رأسه وأخذ يبربش حوله بعينين زائغتين . نظر إلى توتو الدائخ ثم إلى أنا محاولا أن يتذكر ما حدث ، فما كاد يتذكر حتى جحظت عيناه كعادته حين ينفعل .

— فين عزيزة ؟ ! سألني بصوت زادت اللهفة من بحته .

فاكتفيت بإشارة صامتة إلى الكوخ الذى يستند إليه ، لا شك أن الإشارة أرحم من الكلام .

— وكرشة ؟ سألني بنبرة خوف .

فأشرت إلى الكوخ من جديد ، شافعا إشارتي بابتسامة صغيرة رجوت أن تهون الأمر عليه . فما كاد يرى إشارتي حتى نزع ظهره عن الكوخ بسرعة كأنما لسعه ، وانتفض واقفا كأنه عفريت العلبة .

— يعنى . . ؟ سألتني عينه المذعورة .

— أيوه ، أجابته عيني المستسلمة .

فراح يتفرس فى الكوخ كأنه لا يصدق الأمر ، ثم امتدت يده إلى جيبه بحركة لا شعورية . لكن المسدس كان ملقى بجانب قدمه على الأرض ، فصوب إليه رفصة حاقدة أطارته بعيداً .

ثم التفت إلى الكوخ وتهيأ لإطلاق الصرخة الصادرة من أعمق أعماق أحشائه المعذبة .

— كرشاه ! دوى صوته كالرعد ، كرشاه !

فرت لحظة قبل أن يجيب كرشة ، تنحنح أولا ثم أجاب .

— أى خضمة يا حاج ؟ ؟ تساءل كرشة بصوت هادىء تشوبه نبرة سخرية .

— إفتح يا إبن الكلب ! زأر الحاج طلبة ، إفتح يا مجرم ! إفتح يا ابن الـ . . . !

فرت لحظة جديدة قبل أن يجيب كرشة .

— يا حاج طلبة ، قال المذكور بعد حين .

— إيه ؟

فصكت سمع الحاج شتمة بذيئة أعقبتها همهمة ماجنة ، والهمهمة تبعتها صرخة صغيرة من زازا ، فلا بد أنه ضربها على ظهرها ليلفت نظرها إلى ضمابته — أعنى دمابته . فما كاد الحاج طلبة يسمع تلك الصرخة حتى تحول وجهه إلى ما يشبه بالونا منتفخا أحمر ، وراح يلتهم الكوخ بنظرة أعجب كيف لم تشعله نارا . ثم ارتد إلى الوراء خمس خطوات ووقف يستجمع قوته ، فلما استجمعها هجم على الباب

وخبطه خبطة لو أصابت جبلا لهدته . لكنه لم ينفتح ، كيف ثبته كرشة من الداخل لا أدرى .

خمس مرات يهجم على الباب بتلك الصورة وما من نتيجة ، لا الباب ينكسر ولا كتف الحاج طلبة . فوقف الرجل ينفخ من الغيظ تومئة لأن يلتفت نحوى فجأة .

— واقف تتفرج على يا طور ؟! صرخ فى ، موش تيجى تزق معايا ؟

وكانت رذالة منى حقا أن أقف هكذا بلا عمل ، فسرعان ما انضممت إليه ورحنا نجاهد فى فتح الباب ، ندفعه بالأيدى والأكتاف وندق عليه ونرفصه بلا نتيجة .

— بلاش ضوشة منك له ! صاح كرشة من الداخل ، أنا موش فايق لكو دلوقط ! موش كده يابط ؟!

وصرخة جديدة — أو ضحكة هسترية — صدرت من زازا فزادت من احتقان البالون الأحمر فوق كتفى الحاج طلبة . ورأيته يرفع يديه إلى أذنيه ليسدها ، بينما يهز رأسه يمينا وشمالا وهو مغمض العينين كأنه فى حلقة ذكر .

— يا باشمهندس ! نادانى كرشة .

— أفندم ، سألته وأنا أتوقع شطمة .

— ما تقول لطوطو يصطاد لنا سمكتين !

فتريثت لحظة قبل أن أجيب .

— الخنجر معاك ، قلت بصوت هادئ ، إحدفه وإحنا نصطاد .

— هيع ! قال كرشة ، لا حدق يا واد ! طول عمرك حدق بس يا خسارة ، ما لكش فى صنعة المراكب ! هع هع ! حلوة دى يا بط ؟ !

وصرخة ثالثة من زازا فإذا بالحاج طلبة يتهالك فجأة على ركبتيه ، رفع يديه عن أذنيه ليغطى بهما عينيه ، وأخذ جسمه يهتز بالبكاء كأنه طفل عاجز صغير . فبينما أنا أنظر إليه شعرت بمزيج غريب من الرثاء له والشماتة فيه . عسير على الرجل — أى رجل — أن يخوض تجربة كهذه بخصوص زوجته ، وفى الوقت نفسه — كما قالت زازا مرة — حد قال له يتجوزها ؟ لو أنه تركنى أتزوجها لكان الآن يجلس هادئ البال ، ولكنت أنا الذى أهرى بدلا منه وأنكت .

وأخيراً رفع الحاج طلبة يديه عن عينيه ، خيل إلى أننى أنظر فى عينى رجل مجنون . لحظة من التفكير ثم نهض فى صمت واتجه إلى المنطقة التى كنا نصنع فيها المركب ، أخذ يجمع قطع الأخشاب الصغيرة مع النشارة المتبقية من عمليات النحت ، كدسها كلها فى حجر جلبابه وأقبل بها نحو الكوخ . فى دهشة صامتة رحت

أرقبه وهو ينثر تلك الأخشاب حول جدران الكوخ ، توطئة لأن يتناول حجرين ويجلس بهما القرفصاء بجانب الأخشاب . فبدأت أفهم ، وهى والله فكرة لا بأس بها أبداً . لا شك أن حريقا صغيراً يمكنه أن يرغم كرشة على الخروج من الكوخ — إذا كان خروجه أمراً مستحبا .

فماذا يحدث عندما يخرج كرشة والخنجر فى يده ؟ فى أى صدر كتب لذلك الخنجر أن يغوص من جديد ؟ ما برح الحاج يضرب حجرا بآخر حتى انقدحت الشرارة وأمسكت فى نشارة الخشب ، لسان نار بدأ يتلوى ويسرى فى سائر الأخشاب . والحاج يهوى على لسان النار بذيل جلبابه فيصبح اللسان ألسنا كثيرة ، سياج من النيران بدأ يحيط بالكوخ متمسحا فى جدرانه . فتلاعبت على فم الحاج طلبة ابتسامة غريبة وهو يدمدم بقراءات لم أسمعها ، لا بد أنها صلاة خاصة يحفظها لمناسبات الحريق .

ثم أخذ يتلفت حوله حتى وقع بصره على المركب فاتجه إليها مسرعا ، بدأ يجذبها على الأرض عائداً بها إلى الكوخ . فى دهشة بالغة رحت أرقبه وهو يرفع مقدمة المركب إلى أعلا ، ولا يبرح يرفعها حتى صارت واقفة على بوزها مستندة إلى باب الكوخ . سدت المركب الباب وأصبحت بمثابة باب آخر للكوخ ، والحاج

نفسه أسند ظهره إلى المركب غارسا قدميه فى الرمال بقوة ، يعنى أنه . .

— يانهار أبوك اسود !

هكذا صرخت وقد فهمت مايرمى إليه فسرعان ما انطلقت نحوه أجرى .

— إنت اتجننت ياحاج ؟ ! صرخت فيه بلهفة ، موش عارف ان زازا جوه ؟ !

فلم يجبنى إلا بالدمدمة وهو يحملق إلى بعين زائغة لا أظن أنها تبصرنى أصلا . والنار قد بدأت تنتقل من أخشاب الوقود إلى جدران الكوخ نفسه ، أخذت الجدران تطقطق وينبعث منها دخان كثيف أسود .

— ياحاج اعقل ! زازا جوه ياحاج !

فأصر على تجاهلى وزاد من تثبيت قدميه فى الرمال ، ضاغطاً بظهره على المركب بقوة . وصرخة مفاجئة من داخل الكوخ .

— حريقة ! صرخ كرشة ، حريقة !

ويبدو أنه فتح الباب فوجد المركب قائمة تسده ، بدليل أنه بدأ يدق عليها بجنون .

— افطحوالى ياولاد الكلب ! افطحوالى !

ورأيت المركب تتململ تحت ضغط كرشة عليها لكنه لم ينجح فى زحزحتها ، جن الحاج طلبة والمجنون كما يقال فى قوة عشرة عقلاء . فمددت يدا إلى صدره أريد أن أجذبه من جلبابه ، لكنه سبقنى بأن رفع ساقا رفصنى بها رفصة أوقعتنى أرضاً . فنهضت وأعدت التجربة ، ثلاث محاولات بثلاث رفصات كأننى أواجه بغلا لا إنساناً . وصوت سعال شديد من زازا التى توشك أن تختنق من الدخان الكثيف الأسود .

— أحمد ! أحمد ! صرخت وسط سعالها ، إلحقنى ياأحمد ! أحمد !

جن جنونى وهجمت على الحاج لكى أحظى بالرفصة الرابعة .

— توتو ! صرخت زازا ، توتو ! أحمد ! توتو ! أحمد ! توتو !

فأسرعت إلى المذكور بالجرة بعد أن ملأتها بالماء ، سكبتها على وجهه حيث رقد على الأرض . ثم جثوت بجانبه ورحت أهزه بعنف وأرقع له أصداغه .

— إصحى ياتوتو ! ، إصحى أبوس إيدك ! توتو ! توتو ! إصحى يابن ستين كلب !

صوتى شبه ضائع وسط طقطقة النيران وجعير كرشة وطرقه على الباب ، لكنه نجح آخر الأمر فى تنبيه توتو . فرحة وحشية غمرتنى حين رأيته يتقلب ، وحين رفعته لأجلسه فجلس . فتح عينين

ضيقتين وسط وجهه المليء بالكدمات وراح يتلفت حوله فى بلاهة .

— إلحق ياتوتو ! زازا جوه ! زازا ح تتحرق ! إفهم ياتوتو ! زازا !

— تزاتزا ؟ ! سألنى بدهشة .

— أيوه يالوح ، زازا جوه مع كرشة !

فوثب توتو على قدميه ، ترنح لحظة ثم اعتدل . راح ينظر إلى الكوخ المشتعل وإلى الحاج طلبة الذى يسد الباب بالمركب ، بدأ يفهم الموقف . فلما تم له الفهم وثب كالنمر نحو الحاج الذى رفع ساقه ليرفصه بها كما رفصنى ، لكن قيمة الرفصة تتوقف بالطبع على شخص المرفوص . تفادى توتو الرفصة وقبض على قدم الحاج ، جذبه منها فانجذب وهو يتقافز على ساق واحدة . وفى الوقت نفسه رأيت المركب تميل إلى الأمام تحت ضغط كرشة من الداخل ، كادت تسقط على دماغ الحاج لولا أن طوحه توتو بعيدا ، فسقطت على الأرض مثيرة حولها عاصفة من الرمال . فما كاد الباب ينفتح حتى رأيت ماهيأ لى أننى فى إسبانيا ، عندما يفتحون باب العرين فيندفع منه الثور المجنون . هكذا اندفع كرشة والخنجر فى يده ، كالثور الهائج يجرى هنا وهناك بغير هدف واضح وهو يضرب الهواء بالخنجر ، فلو أننى رأيته يتشمم الأرض وينفخ لما دهشت. حظه سيء لأنه لم يولد فى إسبانيا ، كان يمكنه أن يجمع

ثروة هناك . ووراء كرشة خرجت زازا وهى تسعل وتسعل ، لكن أحد لم يلق إليها بالا . كف كرشة بعد لحظات عن الجرى هنا وهناك ووقف أمامنا بالخنجر المرفوع ، كل عضلة فى جسمه تصيح أين الدماء .

— مايظين طحرقونى ياولاد الكلب؟! زأر كرشة بصوت كالرعد.

وراح يقلب النظر بيننا باحثاً عن الرأس المدبر للحريق ، فيبدو أنه عرفه بدليل أنه اتجه إلى الحاج طلبة . أمامه وقف متباعد الساقين متحفزا ، قلت فى نفسى أن الحاج طلبة راح .

— ماوظ طحرقنى يابن الـ ..؟ زمجر كرشة فى غل رهيب .

ونقل كرشة قدمه اليمنى خطوة إلى الأمام ، فنقل الحاج طلبة قدمه خطوة إلى الوراء .

— ماوظ طحرقنى يابن الـ .. ؟ كرر كرشة سؤاله مختتما إياه بشتمة جديدة .

ونقل كرشة قدمه اليسرى خطوة إلى الأمام ، فنقل الحاج قدمه اليمنى خطوة إلى الوراء .

— ماوظ طحرقنى يابن الـ . . ؟ كرر كرشة سؤاله مختتما إياه بشتمة جديدة .

عشر مرات كرر كرشة سؤاله مختتما إياه بشتمة ، أشهد له

أنه لم يكرر أى الشتائم مرتين . هو يتقدم ببطء والحاج يتراجع ببطء ، عينه طول الوقت مركزة فى رعب أليم على النصل اللامع . يستطيع كرشة أن يقتله فى أية لحظة ، لكنه يريد أن يتلذذ بتعذيبه حيناً .

— ماوظ طحرقنى يابن الـ . . ؟

وللمرة الأولى كرر كرشة شتمة سابقة ، الأمر الذى يبدو أنه أقنعه بوجوب إنهاء المهزلة ، فرفع الخنجر إلى أعلى وأهوى به على الحاج طلبة ، ضربة شديدة تكفى لقتل الرجل لو أنها وصلت إليه لكنها لم تصل . ذلك أنه بينما كان كرشة يزحف نحو الحاج طلبة ، كان هناك شخص آخر يتسلل وراءه من حيث لا يشعر . كان ينقل قدمه اليمنى إلى الأمام فينقل توتو — مثله — قدمه اليمنى إلى الأمام. وكان ينقل اليسرى فينقل توتو يسراه مثلها ، يتتبعه فى كل خطوة كأنه خياله . فما كاد كرشة يرفع الخنجر ليصوب الطعنة حتى طارت يد توتو اليمنى وأطبقت على معصمه ، بينما اندفع ساعده الأيسر وطوق رقبته من الخلف . بكل قوته حاول كرشة أن يتخلص من ساعد توتو لكنه كان ساعدا من حديد . أسنان توتو تلمع بين شفتيه المتقلصتين ، يجز على أسنانه ليستجمع كل قوته . بقبضته يلوى معصم كرشة وبساعده يعصر رقبته ، مالبثت أن رأيت الخنجر ينفلت من يده ويسقط على الأرض .

فأخلى توتو سبيل كرشة دافعاً إياه بعيدا ، وبسرعة البرق انحنى والتقط الخنجر .

وقف كرشة يتحسس عنقه الذى كاد يتحطم ، ناظراً فى غباء إلى الخنجر الذى انتقل من يده إلى يد توتو . فلما استوعب الموقف طفح الغل من عينيه وفاض على وجهه ، وبدأ يزحف نحو توتو مثلما كان يزحف نحو الحاج طلبة . ببطء يتقدم نحو توتو مفترسا إياه بنظراته ، وتوتو ثابت فى مكانه كنمر متحفز . فلما صار كرشة على بعد خطوات من توتو وقف ينظر إلى الخنجر ويدرس الموقف . دقيقة مشحونة برائحة الموت المختلطة برائحة الحريق ، ثم وثب كرشة فجأة على توتو . يداه حين وثب كانتا تقصدان يد توتو الممسكة بالخنجر ، لكن يد توتو كانت أسرع . كالبرق الخاطف طار النصل اللامع إلى بطن كرشة وارتد عنها وقد غمرتها الدماء . لم تكن طعنة ثاقبة وإنما خدشاً طولياً على السطح ، تحسسه كرشة ثم راح يحملق فى ذهول إلى يده الملطخة بدمه . فلابد أن منظر الدم أطار مابقى من عقله ، وإلا فلماذا وثب على توتو من جديد ؟
وثب عليه وهو يقصد هذه المرة عنقه ، لكن الخنجر كان فى الطريق . سنه المسنون غاص هذه المرة فى بطن كرشة ، اخترق الجلد وغاص فى اللحم وخرج منه أحمر دامياً . فعاد كرشة يتحسس مكان الطعنة ، بدا من أمره أنه لايصدق مايدور

حوله ، يقول لنفسه إن شيئاً كهذا لايمكن أن يحدث لكرشة . وكان توتو قد تراجع خطوة إلى الوراء ووقف متحفزا ، كأنه يقول لكرشة أنه لايريد أكثر من طعنتين . لكن كرشة فيما يبدو كان يريد الثالثة .

إذ استجمع كل قوته لكى يثب على توتو من جديد ، وصلت يداه إلى رقبة توتو وأطبقتا عليها ككلابتين من حديد . فترنح توتو وكاد يسقط لكنه تماسك ، وبكل قوته غرس الخنجر فى بطن كرشة . ولم تكن هذه الطعنة مجرد طعنة ، إذ رأيت الخنجر يدور فى بطن كرشة ويمزق لحمه تمزيقاً — يقوره كما قد يقال . فتراخت يداه عن عنق توتو ووقف يترنح ، ومن الحفرة التى من بطنه أطلت كرة حمراء هى فى أغلب الظن معدته .

دماء غزيرة تتدفق من بطنه على السروال وتصبغه باللون الأحمر القانى ، وذراعاه تدلتا حوله بينما رفع رأسه إلى السماء وراح يجيل فيها نظرة زائغة . وفجأة مال إلى الوراء كما يميل لوح من الخشب ، سقط على الأرض مترامى الأطراف وسط عاصفة من الرمال .

كانت هذه أول مرة أشاهد فيها معدة بشرية ، فليس غريباً أن أشعر بالغثيان وأريد أن أتقيأ . لكننى لم أفعل ، لست فيما يبدو وجوديا إلى درجة القىء . والحاج طلبة وقف جامداً كالتمثال يرقب



المنظر ، فى حين سقطت زازا على ركبتيها مخفية وجهها بيديها وهى تشهق شهقات هستيرية .

وتوتو وقف يلهث ويطيل النظر إلى الرجل المذبوح ، وجهه اكتسى بقسوة لم أعرفها فيه قط من قبل . لايبدو عليه أى شعور بالإثم بسبب الجريمة التى ارتكبها ، قسوة عجيبة شاعت فى وجهه الملىء بالجروح والأورام . ثم أشاح بوجهه وهو يدس الخنجر فى جيبه ، لم يفكر فى أن يغسل عنه الدماء . وأخيراً دبت الحياة

فى التمثال الذى يدعى بالحاج طلبة ، ببطء تحرك نحو زازا التى ركعت باكية ، أمامها وقف لحظة صامتاً ثم بدأ يصرخ .

— إنتى طالقة ! طالقة ! طالقة !

فرفعت زازا بصرها إليه ، مزيج نادر من الاحتقار والسخرية والبغض تراءى فى عينيها الدامعتين .

— ياخى ينعل أبوك ابن كلب ! قالت له زازا .

— وبتشتمى كمان ؟ !

وطارت يداه إلى عنقها وشرع يخنقها ، كان ليخنقها لولا اليد التى امتدت إليه من الخلف لجذبته من قفاه ، يد توتو التى تحولت إلى قبضة طارت إلى فك الحاج بلكمة عنيفة يمنى ، ثم لكمة مثلها يسرى ، ثم ثالثة يمنى طرحته على الأرض صريعاً .

ونظرت إلى الكوخ لكى أكتشف أنه لم يعد هناك كوخ ، انتهزت النار فرصة العراك والتهمته عن آخره ، لم يبق منه سوى أخشاب قليلة مبعثرة والنار تأكل عليها ، ألسن صغيرة حمراء تتلوى، مثل ألسن مجموعة من القطط بعد وليمة مشبعة . يكون جميلا جدا لو عاد الشتاء وليس فى الجزيرة كوخ .

فعادت عينى بالرغم منى إلى معدة كرشة ، وكانت قد خرجت نهائياً من بطنه ومعها جزء من مصران ربما كان الاثنى عشر . دماء غزيرة تتسرب من جوفه ، تسيل على جنبه وتنفرش على الرمال ملونة إياها باللون الأحمر . فمن ذلك فهمت لماذا يصاب الناس بالأمراض المعوية ويموتون قبل الأوان ، هذا شىء طبيعى جداً ماداموا يعتمدون فى غذائهم وبقائهم على مثل هذا الجهاز التعس .



الفصل التاسع عشر



الملوث بدماء كرشة نزل توتو إلى البحر ليصيد السمك ، لأول مرة فى المدة الأخيرة نزل للصيد مختاراً . فنظرت عن يمينى إلى كرشة الذى ينام ومعدته فوق بطنه ، ونظرت عن يسارى إلى الحاج طلبة الذى ينام كالقتيل ، ثم مررت بينهما قاصداً إلى زازا التى مابرحت جالسة تصوب إلى الأرض نظرة فارغة .

— زازا ، قلت لها بلهجة من يريد أن يبدأ حديثاً .

فرفعت بصرها إلى منتظرة كلامى لكننى لم أجد ما أقول ، ويدى التى مددتها نحو شعرها رددتها قبل أن تصل إليه .

— معلهش يا زازا ، معلهش .

هذا كل ما استطعت أن أقوله لها ، فارتعدت زاوية فمها بابتسامة صغيرة مريرة ولم تقل بدورها شيئاً . وكانت زازا هي زازا لم يطرأ عليها أي تغيير ، ونحن الذين كنا نظن أنها ستخرج من الكوخ مشرحة .

— تزاتزا ! أتى صوت توتو مناديا من بعيد .

فالتفتنا لنراه خارجا من البحر وفي يديه سمكتان تتلعبطان .

— تزاتزا ! نادى بلهجة آمرة وهو يشير إليها داعياً .

فقصدت زازا إليه ، وأشار إلى الأرض آمراً إياها بالجلوس فجلست ، ثم بدأ عملية إشعال النار . وسمعت أنا سعلة خلفي فالتفت لأرى الحاج طلبة قد أفاق وجلس يتحسس مكان اللكمات في وجهه . نظر إلي في غيظ كأنني أنا الذي ضربته ، ثم نقل بصره إلى زازا وتوتو حيث جلسا بعيداً . في غل شديد راح ينظر إلى توتو ، فوقف هذا نافشاً عضلاته كأنه يقول هل من مبارز ؟ لكن الحاج فيما يبدو قد عرف آخر الأمر قدر نفسه ، إذ اكتفى من المعركة بزغرة طويلة لتوتو ثم التفت إلي .

— قوم بينا ، قال لي آمرا .

ونهض فنهضت دون أن أعرف ماذا يريد . وبعد حين عرفت ، عندما وجدتني أحفر بجانبه قبرا لكرشة .

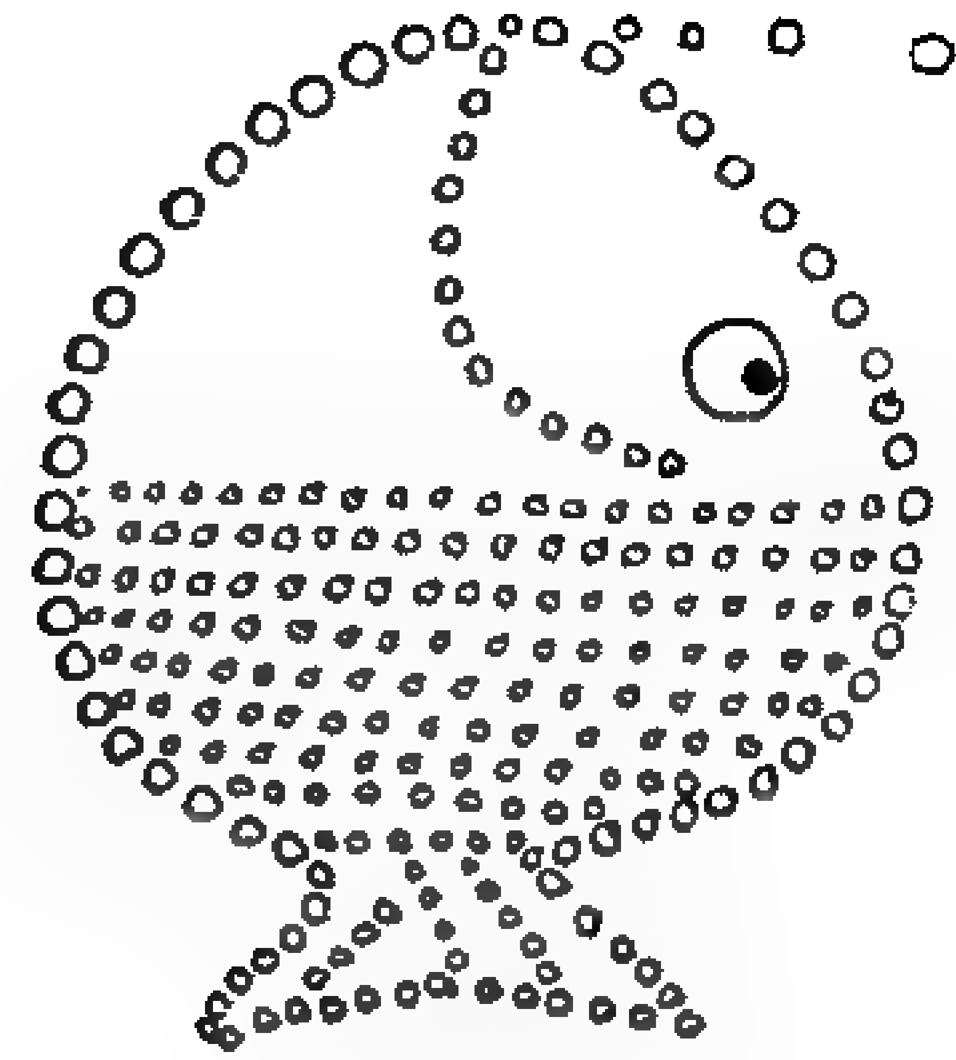
فلما انتهينا من الحفر قصدنا إلى كرشة وحملناه ، الحاج يرفعه من تحت الإبطين وأنا من ساقيه . ما كدت ألمسه حتى سرت في بدني رعدة شديدة ، الساقان اللتان دب عليهما منذ حين ليقتل كلا من الحاج طلبة وتوتو . في الحفرة أودعناه وردمنا عليه ، ثم وقف الحاج طلبة ليتلو صلاة الميت . فبينما هو يتلوها رأيت دمعة تترقرق في عينيه ، كأن الوغد لم يكن منذ قليل يريد أن يحرقه حياً .

من بعيد وصلتني رائحة السمك المشوي فالتفت نحوها ، رأيت توتو يناول زازا سمكة سمينة . فابتلعت ريقي وبدأت أتجه نحوهما ، شابكا يدي خلف ظهري وأنا أسير على مهل كأنني أتمشى بغير هدف . بل إنني بدأت أصفر لحناً زيادة مني في إظهار حسن نيتي ، مختلساً إلى السمك نظرات خاطفة .

— ماتيجي تاكل ؟ قالت لي زازا وهي تمضغ .

— الله ! قلت بلهجة من فوجيء ، هو الغدا جاهز ؟ !

وفركت كفي في سرور وجلست أمامها ، وهممت أن أمد يدي إلى السمكة لكي أفاجأ بشيء غريب نوعا . ما كدت ألمس السمكة حتى امتدت يد توتو فوضعت على وجهي كالسلطانية ، ضاغطة على أنفي ودافعة إياي إلى الوراء ، فسقطت على ظهري وقد ارتفعت ساقاي في الهواء . في هذا الوضع ظننت أنه يريد مداعبتي ، لكنني



حين اعتدلت ونظرت إلى وجهه أدركت أنى مخطىء جدا . ليس مازما صاحب هذا الوجه القاسى الكئيب ، الذى يرفع قبضته ويلوح بها أمام عينى مهددا .

— قومى ! زمجر توتو ، قومى !

وأشار بإصبعه بعيدا ، الأمر الذى فهمت منه أنه يطردنى .

— جرى إيه ياتوتو ؟ تساءلت زازا فى دهشة ، ماتسيبه يا كل .

فزمجر توتو من جديد وهو يشير إلى السمكة ثم إلى البحر ثم إلى نفسه ، حكاية صامتة إلا أنها بليغة جدا .

— طب ندى له حتة صغيرة ، قالت زازا راجية .

ونزعت قطعة من سمكتها ومدتها نحوى ، فإذا بالوغد يضربها

على يدها ضربة قاسية أسقطت قطعة السمك على الرمل . وبينما تحسست زازا يدها مكان الضربة رأيت فى عينيها نظرة جمعت بين الدهشة والخوف ، كأنها تتساءل ـ مثلى ـ أهذا هو نفس توتو القديم؟

— قومى ! زمجر توتو ، قومى !

فقمت . وقفت لحظة أصوب إليه نظرة كبرياء ثم أوليته ظهرى وابتعدت ، قصدت شجرة التفاح ورحت آكل منها حتى ماعت نفسى . وكذلك فعل الحاج طلبة ، وقف يقرش التفاح وهو يطعن توتو بنظرات حامية . وفجأة حول بصره إلى أنا فى كراهية .

— عاجبك كده ياوسخ ؟! سألنى بشراسة .

فلم أجب من فورى .

— إيه هو اللى عاجبنى يادون ؟ سألته بهدوء .

— كان لازم تفوق الكلب ده قبل ما اخد الخنجر من كرشة؟ فبينما أنا أستوعب كلامه رأيته يضرب بيده على جبينه فجأة كمن اكتشف شيئاً .

— طب قسما بالله العظيم مافى حد ضيع الرصاص غيرك ! إنت اللى قلت لها تسرقه ! ما فيش غيرك انت ؟ !

وطارت يده إلى صدغى بصفعة مفاجئة .

— إنت !

وصفعنى ثانياً .

— إنت !

وصفعنى ثالثاً فاغتظت ، طول عمرى أغتاظ بسرعة .

— طب اما آه ! هتفت متحدياً ، أيوه أنا !

وصفعته .

— أيوه أنا !

وصفعته ثانياً .

— أيوه أنا !

وهممت بالصفعة الثالثة فتحاشاها بذراعه ومد يديه إلى عنق وشرع يهزنى منه بقوة .

— يا أصل البلاوى يا وش الفساد ! يا كافر يا ملحد يا إبن الكلب !

وباشتداد ضغطه على عنق تذكرت منظرا رأيته فى مشاجرات سابقة ، فرفعت إصبعين من يدى اليمنى دسستهما فى عينيه ، بينما رحت ألكمه بقبضتى اليسرى فى أسفل بطنه . فكأنى أضرب فى حائط ، لا عينه وجعته ولا بطنه ، ويداه تضغطان على عنق فأكاد أختنق . فلست أدرى ماذا كان يحدث لى لولا اليد التى جذبتنى فجأة من قفاى وطوحتنى بعيداً ، إذ وصل توتو

فى اللحظة المناسبة ليفض الخناقة . وراح توتو يرطن بكلام غاضب لم نفهم منه شيئاً ، ثم أخرج خنجره ورفعه مهدداً .

— أركب ! قال مشيرا إلى المركب ، أركب !

فلم نفهم شيئاً .

— أركب ! صرخ من جديد وهو يدفعنى بقوة نحو المذكورة حتى كدت أنكفىء عليها .

وكذلك فعل بالحاج طلبة ، توطئة لأن يتناول المنشار الصخرى فيضعه بين يدى .

— هينا ! قال لى مشيرا إلى نقطة معينة فى المركب .

ثم تناول المسدس القاضى وناوله للحاج طلبة .

— هينا ! قال له مشيرا إلى نقطة أخرى .

وبدأ يحرك يده ليصور لنا حركة النحت والكحت ، أى أنه يريد منا أن نعاود العمل فى المركب .

فلما رأى ترددنا لوح بالخنجر أمام عيوننا وأشار بيده نحو قبر كرشة ، وكنت ما أزال أذكر معدته .

— هينا ! قال توتو وهو يزغدنى .

— هينا ؟ سألته مستوثقا .

— هينا ! أجابنى مؤكدا .

فبدأت أحك فى النقطة التى حددها ، فى حين وقف الحاج طلبة مترددا .

— هينا ! قال له توتو بشراسة .

— إشتغل ياحاج ، قلت له ناصحا ، الراجل ده اتجنن .

فتردد لحظة ثم أدنى فوهة المسدس من المركب وراح يحك به فى النقطة التى عينها له توتو . هو عمل لا معنى له ولكن ماذا نفعل ؟

— والله الراجل ده اتجنن ، قلت لزازا بالإنجليزية .

— خدوه على عقله ، أجابتنى بنفس اللغة .

— ما هو ده اللى بنعمله .

وفجأة تدخل توتو فى الحديث .

— أربى ! شخط فى وهو يلكمنى فى صدرى .

فأردت أن أزعل لكننى وجدتنى أضحك ، واتجه بصرى إلى قبر كرشة .

— الله يخرب بيتك ، قلت له ، آدى اللى اتعلمه منك !

ثم واصلت العمل صامتا ، وكذلك فعل الحاج ، نحوا من ساعة حتى رأيت المذكور يتوقف عن العمل فجأة .

— هو إيه ياخويا ! صاح بغيظ مفاجئ وقد طفح به الكيل ، إحنا علينا ذنب ولا إيه ! ودينى مانا مشتغل ! يلعن أبو اللى يشتغل !

وألقى بالمسدس على الأرض وأولانا ظهره مبتعدا ، لكنه لم يبتعد كثيراً . إحدى يدى توتو جذبته من شعره وألقت به على المركب ، واليد الأخرى وضعت سن الخنجر على عنقه .

— أركب ! صرخ توتو فى وجه الحاج ، أركب ! أركب !

شريط دماء صغير سال على عنق الحاج طلبة ، ونظرة رعب ملأت عينيه . فلما ترك توتو شعره ورفع الخنجر عن عنقه لم يكن غريبا أن يعكف على العمل بدون كلام .

طول النهار ونحن نكحت وننحت حتى خارت قوانا ، لم يرحمنا توتو إلا عندما غربت الشمس . إذ سحب منا كلا من المنشار والمسدس واتجه بهما إلى الكوخ الذى فوجىء بأنه غير موجود فارتد إلى المركب ، أقامها على جنبها ووضع الأدوات وراءها . ثم نزل

إلى البحر فغسل يديه ووجهه ، وقصد إلى شجرة التفاح فأكل خمس تفاحات .

— تزا تزا ! قال وهو يتكرع .

كانت زازا طول الوقت واقفة تتفرج ، متباعدة الساقين وقد عقدت يديها خلف ظهرها .

— أفندم ؟ سألته بنبرة ساخرة .

فأشار إلى ما وراء المركب ، ولمّا لم تطع إشارته من فورها جذبها من ذراعها وسحبها إلى حيث أشار . وبضغطة من يده على كتفها جلست زازا ، حجبتها المركب القائمة عن أنظارنا .

ثم نظر توتو إلينا .

— هينا ! قال لنا مشيرا إلى آخر الجزيرة حيث كان يقوم الكوخ .

— لا يا شيخ ! زمجر الحاج طلبة ، والله ؟

فسكت توتو حينا وهو يبادله نظرة عداء صامته .

— هينا ! قال مكررا إشارته .

— ومراتى يا حضرة ؟ جأر الحاج طلبة وهو يشير إلى ما وراء المركب .

— تزاتزا ! توتو ! قال توتو مشيرا إليها وإلى نفسه .

فلما رأى الحاج لا يتحرك من مكانه أخرج الخنجر وراح يسنه على راحته ، ثم رده إلى الخلف وطعن به الهواء ، ثم أشار إلى قبر كرشة ، حكاية أخرى صامتة ولكنها بليغة جداً . فواجهت الحاج طلبة ورحت أطبطب على ظهره .

— يا حاج انت موش طلقتها ؟ قلت له ، يا الله بينا من هنا . الراجل ده اتجنن .

ورحت أجذبه من ذراعه وهو لا يريد أن ينجذب ، واقفا يحملق إلى توتو بعين يدهشنى أنه لم تنطلق منها رصاصة قاتله . وأخيراً استجاب ليدى التى تجذبه ، أى أنه لولاى أنا لما فارق مكانه إلا على أسنة الرماح . قصدنا إلى آخر الجزيرة وجلسنا وراء الكوخ غير الموجود ، أنا وهو والجمجمة ، نسيت أن أخبرك أن البحر قذفها إلى الشاطىء من جديد .

فى صمت جلسنا ، فى عتمة الليل الزاحف ورائحة الشياط تملأ أنفى . فخطر لى أن أكلم الحاج طلبة لكن منظر شبحه الجامد لم يشجعنى ، وعلى أى حال ماذا أقول له ؟ أسأله لماذا أحرقت

الكوخ يا حمار ؟ لماذا تزوجت زازا يا لوح ؟ لماذا أطلقت المسدس الفاضى على توتو يا حاج ؟ وإذا سألته فماذا يجيب ؟

فتنهدت فى يأس وانطرحت على ظهرى أتأمل السماء ، سماء عريضة مظلمة نثرت فيها ملايين النجوم ، ملايين من الثقوب المصدئة فى علية كبيرة سوداء مكفأة علينا .



الفصل العشرون

رأيت فى المنام أن خنجراً حامياً يدس بين أضلاعى ، فهببت مذعوراً لكى أسمع ضحكة أنثى ، وكانت ضحكة من خارج الحلم لا من داخله . زازا هى التى ضحكت من منظر ذعرى ، حيث ركعت بجانبى تهزنى لكى أصحو وتنخزنى بين أضلاعى .

— إصحى قوام ! هتفت فى حماسة ، إصحى ! قوم الحق الخناقة !

— خناقة ؟ سألتها وأنا أتثاءب .

— آه ، الحاج طلبة سرق الخنجر من توتو !

— الحاج سرق الخنجر من توتو ؟

— آه ، خلاه نايم وسرقه من جيبه !

— خلاه نايم وسرقه من جيبه ؟

— آه ، كان حيموته لولا صحى م النوم !

— كان ح يموته لولا صحى م النوم ؟

— أحمد ! جرى لك إيه ؟

— جرى لى إيه ؟

فتأففت ونهضت وهى تجذبنى ، فنهضت وأنا الآخر أتأفف .

— لا حول الله يارب ، هو الواحد مايعرفش ينام ساعة على بعضها فى الجزيرة دى ؟ عمرى ما انام إلا واصحى على خناقة ؟

فلم تجب زازا ، منشغلة بعملية جذبى نحو ميدان المعركة ، فسرت وراءها مترنحاً أدعك عينى . وعلى ضوء الفجر الذى بدأ يبزغ رأيت الخناقة ، وكانت حتى هذه اللحظة ما برحت فيما يبدو مشروع خناقة .

كان الحاج طلبة وتوتو يقفان متواجهين ، كل منهما قد باعد بين ساقيه وانحنى إلى الأمام قليلا ، وكل منهما قد ركز بصره على وجه الآخر يتأمله ويتفحصه كأنه يريد أن يعرف ماذا يكون . الفرق الوحيد بينهما هو أن الحاج طلبة كان يمسك الخنجر فى حين أن توتو لا يمسك شيئاً .

— ماعندكيش فكرة ، سألت زازا متثائباً ، بيتخانقوا على إيه ؟

فرمقتنى زازا عاتبة .

— ح يكون على إيه يعنى ؟ على انا طبعاً .

— آه صحيح ، لا مؤاخذة .

وفى تلك اللحظة قفز الحاج طلبة قفزة صغيرة إلى الأمام فقفز توتو قفزة مماثلة إلى الخلف ، ثم جمد كل منهما فى مكانه كما كان من قبل .

— بيفكرونى بالقطط ، قالت زازا .

— أنا شخصياً بيفكرونى بالديوك . شفتى خناقة ديوك ؟

— لأ .

— ولا انا ، لكن متأكد انهم لما يتخانقوا يبقوا كده .

ومن جديد قفز الحاج طلبة قفزة إلى الأمام ، قلدها توتو بقفزة مماثلة إلى الخلف ، ثم جمدا فى وضعهما الأول يتبادلان النظر .

— حتى شوفى نافشين ازاى ؟

فلم تجب زازا وقد انهمكت فى الفرجة ، هى الأخرى قد توتر ذراعاها وتقبضت يداها كأنها مشتركة فى المعركة .

— إنتى بتشجعى مين فيهم ؟ سألتها مستفسراً .

— ح يكون مين ؟ توتو طبعاً .

— وجوزك ؟

— يلعن أبوه !

— طب عارفة انا باشجع مين ؟

— مين ؟



— الاتنين ! نفسى يدبحوا بعض ويريحونا .

— مهما كان توتو أحسن م الحاج .

— حتى بعد ما كل السمك لوحده ؟

— هو صحيح اتغير ، لكن ما تنساش انه زمان كان كويس .

— فعلا ، غنى لنا مرة ساعة الغروب .

— وعلى كل حال معذور انه يتغير.هو اللى شافه شوية ياأحمد؟

— قوليها تانى .

— هى إيه ؟

— أحمد ، حلوة قوى من بقك .

— يا سلام .

— آه والله .

وقفز الحاج فقفز توتو كأنه خياله فى المرآة ثم جمدا من جديد ، كلاهما يلهث بصوت مؤذ للسمع فى ساعة الفجر الهادئة . ومرة رابعة قفزا ثم جمدا ، متحفزين متنمرين متوترة كل عضلة وكل خلية من خلايا جسميهما .

— ياخسارة الأدرينا لين ، قلت لزازا متصعباً .

— يطلع إيه ده ؟

— حاجة كده تفرزها الغدة الكظرية ساعة الخناق .

فلم تعلق زازا حيث انهمكت فى الفرجة ، وذكرت أنا أمراً .

— ياترى كل للعدزى بعضها ؟

— معد ؟

— آه ، أصلى عمرى ماشفت معدة غير معدة كرشة .

— طب بلاش قرف بقى !

وقفز الرجلان قفزة سادسة وسابعة وثامنة .

— الحكاية بقت مملة قوى ، قلت لزازا متثائباً .

وتركتها وقصدت إلى شجرة التفاح ، قطفت واحدة ووقفت أقرشها . كنت فى حالة غريبة نوعاً من عدم الاكتراث ، وثمة رغبة حقيقية فى أن أرى الرجلين صريعين . طفح الكيل كما يقولون ووجب أن يضع أحدهم للأمر حداً .

ووصلتنى شهقة مفاجئة من زازا فالتفت متباطئاً ، رأيت توتو واقعاً على ظهره ـ تكعبل فى أغلب الظن ـ والحاج طلبة ينتهز الفرصة فيلقى بنفسه عليه . ألقى نفسه فوقه وهو يصوب إليه طعنة شديدة لم تبلغه للأسف ، إذ تمرغ الوغد بسرعة ليتحاشاها فانكفأ الحاج على وجهه ونزلت الطعنة على الرمال . وقبل أن ينهض من سقطته كان توتو قد انتفض واقفاً كأنه بزمبلك ، وإذا به راكب على ظهر الحاج طلبة مثلما تركب الحمار . ومن هناك قبض على معصم اليد التى تمسك الخنجر وراح يلوى الذراع كله إلى الوراء ، خيل إلى أننى سمعت صوت طقطقة عظام الحاج . فما هى إلا لحظة حتى رأيت

الخنجر وقد انتقل من يده إلى يد توتو الذى ظل جالساً به على ظهره كأنما أعجبته القعدة . فارتكز الحاج بيديه على الأرض محاولا أن يرفع نفسه ، لكنه ناء يحمل توتو وسقط كما كان . وتوتو ما برح رافعاً خنجره وهو يلهث ، ناظراً إلى قفا الحاج فى هيئة تفكير . هو فى أغلب الظن يشاور نفسه فيما يصنع بعدوه الذى سقط ، هل يقتله أم أن العفو أحسن عند المقدرة ؟ نحوا من دقيقة راح توتو يفكر ويلهث ، وفجأة رأيت يده ترتفع بالخنجر ثم تهوى به على ظهر الحاج ، غاص النصل فى كتفه محدثاً وخزة أليمة فى كتفى أنا .

— توتو ! هتفت زازا ولكن بعد فوات الأوان .

ورأيت ذراعى الحاج يمتدان إلى الأمام ورأيت أصابعه العشرة تنغرس فى الرمال بقوة ، ثم ما لبث أن تراخت عضلاته وسكنت حركته . فنزع توتو الخنجر من كتفه ونهض عن ظهره ، وقف يرقبه حيناً ثم أولاه ظهره وقصد إلى البحر ليغتسل .

وزازا واجهتنى بنظرة ذاهلة ثم أسرعت نحو الحاج وركعت بجانبه تفحصه ، تحسست كتفه ثم رفعت يدها ملوثة بالدماء . فوقفت وشمرت ذيل قميصها ، وراحت تنزع منه قطعة جديدة على سبيل الضمادة . وهناك عند الأفق كانت الشمس قد بدأت تطل على الكون ، خيل إلى أنها توجه إلى سؤالا .

— الحاج طلبة ، قلت أجيبها .

— إيه ؟ تساءلت زازا .

— لا دنا باكلم الشمس . أصلها سألتنى مين القتيل النهارده .

فرمقتنى زازا فى امتعاض وواصلت تضميدها لكتف الحاج .

وتوتو فى البحر قد شرع يضرب بخنجره فى الماء ليصيد سمكة ، لا شك أن الإنسان يحتاج إلى شىء من التغذيه بعد ارتكاب جريمة متعبة كالقتل .

وانتهت زازا من ربط كتف الحاج ، نظرت أنا إلى قميصها وغلبنى الضحك .

— فيه حاجه تضحك ؟ سألتنى بغيظ .

— إنتى ! أجبتها ، كان يومين ح تلاقى نفسك لابسة بيبى دول ! قطعة من ذيل القميص صنعت منها ذات يوم كمادة لجبين الحاج الساخن ، وقطعة ثانية ربطت بها كتفى أنا ، وها هى القطعة الثالثة على كتف الحاج ، لست أدرى ماذا كنا نصنع بغير هذا القميص النافع .

— تفتكرى ح يموت ؟ سألتها .

— شىء بارد ! وانا اعرف منين بقى ؟

— على كل حال توتو ما ضربوش غير ضربة واحدة صغيرة . كان ذوق معاه فى الحقيقة .

— تزاتزا ! أتى صوت توتو مناديا .

فى يده سمكة كبيرة تتلمبط ، ألقى بهـا على الأرض فراحت تتنطط ، فى حين شرع هو يشعل النار .



— تزاتزا ! عاود توتو النداء .

— آدينى جايه ، أجابته زازا فى ملل .

وقصدت إليه تساعده فى الطهى ، وأنا واقف عن بعد أتفرج جارى الريق . فلشد ما فرحت حين رفع توتو السمكة عن النـار وأشار إلى داعيا . ظننت أنه يدعونى للمؤاكلة ولـكننى كنت ممعنا فى التفاؤل ، إذ اكتفى بأن قطع ذيل السمكة وألقاه نحوى على الرمال كما تلقى عظمة لـكلب . فأسرعت إلى الغنيمة وأنا أبصبص من الفرح بذنب وهمى ، سرعان ما كنت ألتهم ذيل السمكة بكل ما فيه من شوك ورمل .

الفصل الحادى والعشرون



توتو ينتهى من الأكل حتى نادانى إلى العمل ، فلماذا أطعمنى إلا لهذا ؟ بالمنشار الصخرى عكفت على النحت والـكحت ، أنا المهندس الذى تحول على آخر الزمن إلى نجار . ساعتان من النحت والـكحت حتى صرخت يدى من الألم ، وفى سبيل قضية أعرف جيداً أنها خاسرة . لا يستطيع هذا الحمار أن يفهم أن العيب فى البحر لا فى مركبى .

وزازا تقسم وقتها بين العناية بالحاج الجريح وبين الفرجة علينا وهى صامتة . كانت تتفرج على توتو بوجه خاص ، تطيل النظر إلى وجهه القاسى كأنها تحاول أن تتعرف فيه على توتو القديم . لـكنها لم تحاول أن تـكلمه ولا حاول هو أن يكلمها ، دماء الحاج

طلبة أقامت حاجزا جديداً بينهما ، بعد الحاجز الذى أقامته دماء كرشة .

— مش كفاية بقى يا توتو ؟ قلت له ضارعا ، شوف إيدى ؟

وبسطت أمام عينيه كفى المتسلخة فرمقها فى ازدراء وقال أركب . لم نتوقف عن العمل إلا بعد الظهر إذ تراجع توتو خطوة إلى الوراء وراح يتأمل المركب ، ثم أخذ يدور حولها ويتفحصها من كل ناحية .

كانت المركب هى المركب ، لم يطرأ عليها جديد سوى أنها صارت أرق نوعا . لسبب ما يظن توتو أن خشونة مركبى وثقلها هما السبب فى عجزها عن اقتحام التيار . نظرة ارتياح تراءت فى عينيه ثم دس الخنجر فى جيبه وقصد إلى شجرة التفاح ، ظننت بالطبع أنه سيأكل لكنه لم يفعل . بكلتا يديه راح يقطف التفاح ويلقى به على الأرض ، ما لبثت أن رأيت تحت الشجرة كوما هائلا من التفاح .

— الراجل ده اتجنن ولا إيه ؟ سألت زازا فى دهشة .

فبسطت ذراعيها تعرب عن حيرتها ، والوغد توتو يواصل القطع حتى كادت الشجرة تصبح عارية من التفاح . وبدون كلام ترك كل هذا التفاح وقصد إلى البحر حيث شرع فى الصيد ، صاد

سمكة وألقاها على الشاطئ ، ثم صاد أخرى وألقاها ، ما هى إلا ساعة حتى تجمع على الأرض أكثر من عشرين سمكة .

— ده يظهر انه اتجنن صحيح ! قالت زازا .

— إنما جنونه المرة دى كويس ، موش معقول ح يقدر ياكل السمك ده كله لوحده .

واسترعت أسماعنا أنة مفاجئة من ناحية الحاج طلبة فتلفتنا إليه ، رأيناه يرفع رأسه عن الأرض وهو يتأوه ، عدة ثوان ثم سقطت رأسه من جديد . فقصدنا إليه وتحسست جبينه فوجدته ساخنا كالنار ، وجسست نبضه فوجدته سريعاً بعض الشيء إلا أنه نبض رجل حى . فنزعت زازا قطعة جديدة من قيصها وراحت تبللها بالماء لتصنع منها كمادة ، فى حين وصلت أنفى رائحة شهية للسمك الذى بدأ توتو يشويه .

ساعة كاملة وهو يشوى ويشوى ، صامتا لا يكلمنا ولا نكلمه ، فلما انتهى من الشى رأيته يشير إلى بالاقتراب فخففت إليه فرحا . من بين العشرين سمكة تناول ثلاث سمكات وقذف بها على الأرض عند قدمى .

— دول بتوعى أنا ؟ هتفت فى سعادة .

فلم يجب توتو بشىء ، ورأيتـه يشرع فى تحويل السمك إلى المركب ، كدسه كله فى ركن منها . ثم قصد إلى كومة التفاح وبدأ يصنع بالتفاح ما صنعه بالسمك ، كدسه كله فى ركن آخر من المركب .

عند ذلك بدأت أفهم ، إذ أننى طول عمرى سريع الفهم . هو يعتزم القيام برحلة يعتقد أنها طويلة نوعا ، وإلا فما لزوم كل هذه المؤونة ؟ لكنه أعطانى أنا ثلاث سمكات فماذا يقصد من ذلك ؟

— يا نهار أبوك اسود ! هتفت وقد فهمت ماذا يقصد .

هو يقصد القيام برحلة لا مكان لى فيهـا . سيحاول مغادرة الجزيرة بدونى ، فـكرة أفزعتنى مدى لحظـة ثم تذكرت أنه لا داعى للفزع . هو يظن أنه سينجح فى مغادرة الجزيرة ولـكنه لن ينجح ، أكون حمارا لو أن هذه المركب الرقيقة أمكنها أن تحقق ما عجزت عنه المركب الأولى الخشنة الثقيلة .

وقاطع توتو أفكارى بإشارة إلى زازا يستدعيها ، فى حين شرع يجذب المركب حتى أنزلها فى البحر .

— زا"زا ! صاح توتو مناديا .

فتركت زازا الحاج طلبة وقصدت إلى توتو الذى أشار إلى المركب آمرا إياها بالصعود .

— على فين ياخويا ؟ تساءلت فى دهشة .

فلم يجبها بشىء بل جذبها من ذراعها وأنزلها فى الماء .

— طب ودول ؟ سألتـه فى حيرة وهى تشـير إلى أنا والحاج طلبة .

— دول ؟ ردد توتو كلمتها فى ازدراء .

— آه دول .

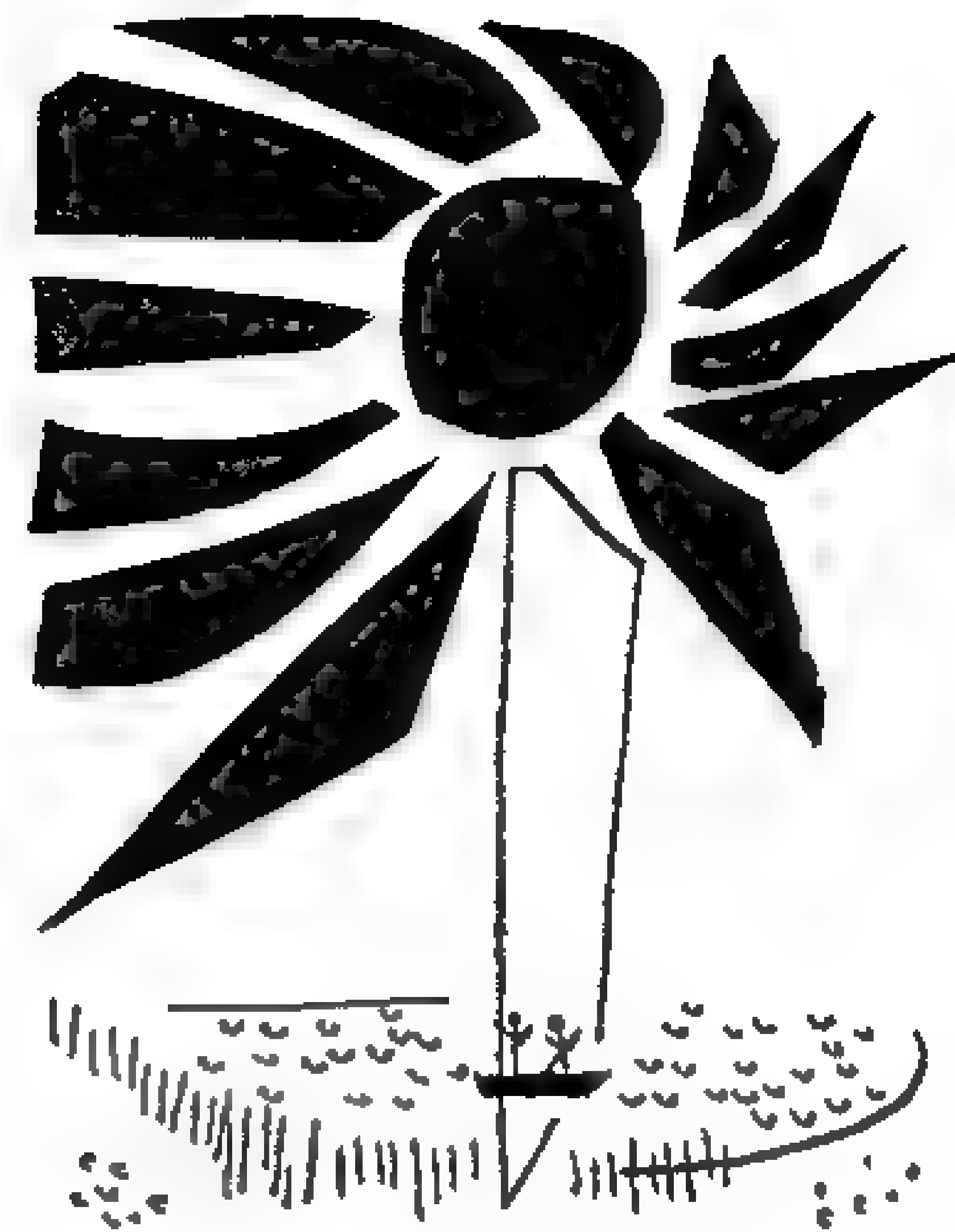
فراح توتو ينظر إلى حينا ثم بصق على الأرض . ودفع زازا إلى المركب فصعدت مرغمة ، وصعد هو وراءها وتناول المجداف .

— ما تخافيش يازازا ، ناديتها ، كان ساعة وتكونوا هنا تانى !

وشغل توتو مقدافه فبدأت المركب تتحرك مبتعدة عن الشاطىء .

— باى باى ! صحت فى أثرها ملوحا بيدى .

فرأيت زازا تلوح لى بيدها من بعيد، دقائق ممدودة وأصبحت المركب بقعة بعيدة سوداء . عند ذلك سرت فى بدنى قشعريرة مفاجئة ، فماذا يكون الحال لو نجح مشروع توتو فى الخروج بالمركب من منطقة التيارات ؟ أليس من الممكن أن أكون حمارا وتـكون هذه المركب الجديدة أصلح من مركبى ؟ فماذا يفعل حمار مثلى وهو بمفرده فى هذه الجزيرة الموحشة مع حاج نصف عمر ؟



فقشعريرة ثانية سرت فى بدنى حيث وقفت وحدى فى شمس الأصيل، ناظرا إلى المركب التى أصبحت نقطة صغيرة فى آخر البحر ، نقطة صغيرة فيها حمامة بيضاء اسمها زازا . أيمكن أن تخرج زازا من حياتى بهذه الطريقة السافلة ؟

— آه ، تأوه الحاج طلبة حيث رقد على الرمال ، آه .

— جلك أوى ! أجبته من فوق كتفى .

و نظرت إلى البحر فا ذا بالمركب قد اختفت عن البصر ، كدت

أسمع بأذنى دقات قلبى . فأسرعت أجرى إلى حافة الماء وأنا أضيق عينى قدر استطاعتى وأستعرض الأفق بجنون . زازا ضاعت ، زازا الجميلة ، زازتى أنا . .

— زازا ! هتفت بصوت تخنقه الدموع ، زازا ! زازا !

وفوجئت بنفسى أبكى بحرقة ، دموعى تنهمر من عينى وتبلل لحيتى الشعثاء . دقيقة من اليأس الأسود ثم خفق قلبى فى فرح مجنون ، عندما وقع بصرى من خلال الدموع على نقطة صغيرة سوداء عند الأفق .

المركب ظهرت بعد أن اختفت، فما الغرابة فى أن أنتطط من الفرح ؟ حيث وقفت على حافة الماء رحت أنتطط وأصفق أيضاً ، مركزا بصرى — بعد أن مسحت دموعى — على النقطة السوداء التى تتحرك ببطء جهة اليمين . تسير أفقيا بعد أن كانت تسير رأسياً — تدور بالاختصار حول الجزيرة كما فعلت بنا من قبل وأنا فيها . لست حمارا وإنما الحمار أنت ياتوتو ، إذ ظننت أنك تستطيع تحقيق ما عجزت أنا عنه . هى تدور وتدور ما أحلى دورانها ، وأنا أصفق وأتحنجل وتنطلق منى ضحكات وحشية متلاحقة . وبينما تدور تقترب من الجزيرة فى خطوط حلزونية ، أدور أنا معها فأكاد أصاب بالدوار . النقطة الصغيرة البعيدة تحولت إلى بقعة صغيرة ثم كبيرة ، ثم تحولت البقعة إلى مركب ميزت فيها رأسين ، شيئاً فشيئاً تقترب حتى رأيت

وجه زازا — حبيبتى زازا — رؤية العين . ورأيت وجه توتو الذى ينطق فى بلاغة شديدة بالغيظ والجنون وخيبة الأمل . ودورة أخيرة ثم حاذت المركب شاطىء الجزيرة وانغرست فيه بقوة ، تشبث الراكبان بحافتها كى لا ينسكبا منها على الأرض .

أردت أن أقهقه لكننى نظرت إلى وجه توتو فأمسكت ، كيف أغامر بالسخرية من صاحب هذا الوجه المجنون ؟ حتى الابتسامة التى ارتسمت على شفتى بالرغم منى رفعت يدى فداريتها بها . وزازا نزلت هى الأخرى صامتة صارمة الوجه ، لابد أنها غامرت بالضحك منه فشتمها أو ضربها أو أى شىء . أما هو فنزل من المركب ووقف يتفحصها صامتا ، يدور حولها ويفحص كل جزء فيها ليعرف أين يكمن العيب . فيبدو أنه لم يجد فيها أى عيب ، وإلا فلماذا قفز إليها وركبها ، وتناول المجداف وشرع يجدف من جديد ؟

— ده ح يجرب الحكاية تانى ! هتفت أنا وزازا فى نفس واحد .

ونظرت زازا إلى فإذا بنا ننفجر ضاحكين ، وبينما ضحكنا فاض الحب من قلبى ، بسطت ذراعى أبعد مايكون عنى وإذا بزازا تلقى نفسها بينهما . قبلتها بشوق دافق وحنان ، الحمامة البيضاء التى خيل إلى منذ حين أننى سأفقدها .

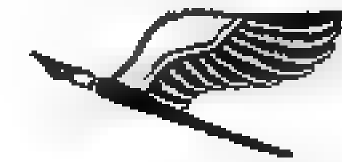
وبينما هى فى أحضانى رحنا نرقب المركب التى كانت بقعة فأصبحت نقطة سوداء فى آخر البحر . فلما كدنا نفقدها رأيناها تتحرك جهة اليمين وتشرع فى الدوران حول الجزيرة . فماذا نفعل سوى أن نضحك من جديد ؟ شيئاً فشيئاً عادت النقطة بقعة ، ثم عادت البقعة مركبا بها رأس ، ثم بدا فى الرأس وجه يقطر غيظا وغلا وخيبة رجاء . ودورة أخيرة وحاذت المركب الشاطىء وانغرست فيه ، بينما صاحب الوجه المجنون يتشبث بحافتها كى لا يندلق منها على الأرض . فأشاحت زازا بوجهها ورفعت أنا يدى أخفى ابتسامتى ، بينما نزل توتو من المركب ووقف يفترسها بنظراته وهو يلهث . وفجأة رأيته يهجم عليها ليرفصها رفصة شديدة وقد نسى فيما يبدو أنه حافى القدم . فلم يكن عجيبا أن يصرخ ويرفع قدمه المصابة ويمسكها بكلتا يديه ليخمد الألم ، متقافزا بالطبع على قدمه الأخرى كيلا يقع . فكان منظرا جاوز قدرة زازا على كبح نفسها ، فإذا بها تنفجر بضحك هستيرى وهى تضرب الأرض بقدميها وتطرقع بأصابعها فى الهواء . فنظرت أنا إلى وجه توتو ورأيت أن أحذرها .

— زازا ، قلت لها ناصحاً ، بلاش ضحك ده مجنون .

لكن الأمر كان قد خرج من يدها ، لم يعد فى إمكانها أن تكبح ضحكها الهستيرى . فبينما هى تضحك رأيت توتو يصوب إليها نظرة تقطر حقدا ، ثم أنزل قدمه واقترب منها حيث وقفت

تضحك ، وبكل قوته أهوى على خدها بصفعة شديدة ألقت بها على الأرض .

فكفت زازا عن الضحك ، وبعينين واسعتين من الرعب جلست تنظر إلى الرجل الذى ضربها ، والذى فوجئت به يرفع قدمه ويصوب ركلة عنيفة إلى جنبها ثم يتهيأ للثانية . فذهلت وجننت ، ولأول مرة فى حياتى فقدت أعصابى . فوجئت بنفسى أندفع نحو توتو من الخلف وأقفز فأتعلق بذراعى فى رقبته ، فإذا به يترنح ويسقط على الأرض . فركبت فوقه كما فعل كرشة بى ذات يوم ورحت أغمر وجهه بلكمات عمياء ، لكمات لم يصل إليه منها للأسف إلا لكمتان والباقى تلقاه الوغد على ساعديه الحديدين . وزالت عنه المفاجأة فإذا به يخلعنى من فوقه ويلقينى على الأرض ، ثم يجذبنى من شعرى ليوقفنى ، ولكمة عنيفة من قبضته أصابت فكى ورمت حول رأسى عشرات من النجوم المتراقصة . شعرت بالخلخة فى الركب ووجدتنى أترنح ، ولكمة ثانية على فكى الآخر فغبت عن الوجود .



الفصل الثانى والعشرون



يخرج من بئر مظلم عميق بدأت أعود إلى الوعى ، وبصعوبة فتحت عينى فوجدت فوقى بدراً ساطعاً .

— هل هى زازا ؟ كلا هو البدر الآخر يطل على من السماء . فجلست وأخذت أدعك عينى ، وفتحت فمى لأتثاءب فشعرت بألم شديد فى فكى .

صمت عميق يخيم على الجزيرة ولا أثر لإنسان إلا جثة الحاج طلبة الملقاة بالقرب منى . هناك وراء المركب القائمة على جنبها أتخيل زازا نائمة ، كيف طاوعها قلبها على أن تتركنى وحدى ؟ لا بد أن السافل سحبها معه بالقوة وأرغمها على هجرى . هل أقوم الآن وأتسلل إلى حيث ينام لكى أجرب سحب الخنجر من جيبه كما فعلت

ذات يوم ؟ كلا، لا بد أنه أخفى الخنجر فى مكان أمين بعد ما وقع بالأمس من الحاج طلبة ، وما فائدة الخنجر فى يدى على أى حال ؟

— أحمد !

صوت زازا أتى من ورائى فالتفت مذعوراً ، رأيتها تقترب سائرة على أطراف أصابعها . فلما وصلت إلى ركعت على ركبتيها ومدت يدها تتحسس شعرى .

— إيه اللى جابك ؟ سألتها وأنا أتلفت حولى .

— توتو نام جيت اطمن عليك ، أجابتنى هامسة ، فقت ياحبيبى؟

— المفروض كده .

— مرسى قوى انك دافعت عنى ، واصلت همسها .

— العفو ياستى ده واجب علينا ، أجبتها متحسساً فكى المخلوع.

— أحمد . . .

— إيه ياروحى ؟

— أنا خايفة قوى .

— من إيه ياحياتى ؟

— من توتو ، عمره ماضربنى كده أبدا .

— يعنى هو كان ضربنى انا ؟

— وشوف كان عمل إيه فى الحاج طلبة .

— فعلا .

— مع إنه زمان كان ابن حلال قوى .

— فعلا .

— أحمد ...

— نعم ؟

— ماعندكش حاجة غير فعلا ؟

— فعلا .

— إنت خايف زى ما انا خايفة ؟

— م م م موش قوى . ولو ان فيه حاجة نفسى اعرفها .

— هى إيه ؟

— متأكدة ان توتو رايح فى النوم ؟

— ساعة ما سبته كان بيشخر .

— لكن ممكن يصحى فى أى لحظة . . .

— ممكن طبعاً .

— طب ما تروحى له يابنتى أحسن .

— إخص عليك يا احمد ، موش عاوزنى معاك ؟ باقول لك خايفة قوى .

وألقت بنفسها على تمرغ خدها فى صدرى .

— خبينى يا احمد ، قالت وهى ترتعد ، خبينى .

— إستخبى ياروحى ، استخبى ، قلت وأنا أكثر رعدة .

وأحطتها بالذراعين لأخبئها ، مع أننى والله أحوج الناس إلى الاختباء .

— خايفة قوى يا احمد .

— حتى بعد ما خبيتك ؟

— آه .

— طب استخبى كمان .

فلاذت بى أكثر من قبل ، قطة صغيرة ترتعد بين أحضانى ، لوذى يا حبيبتى لوذى .

— أحمد . .

— قوليها تانى .

— بلاش دلع ، عايزة اسألك سؤال .

— واحد بس ؟

— لو كان المسدس محشى كنت تعمل إيه ؟

— أضربه .

— على توتو ؟

— إمال على روحى ؟

— ياخسارة ماهوش محشى .

— أيوه يا خسارة .

— طب خبينى .

— أكثر من كده ؟

ولاذت بصدرى أكثر من قبل ، عطر شعرها نفذ فى صدرى وأسكرنى .

— قلتى شانيل ؟

— وبعدين معاك ؟ ح اقول لك مية مرة آربيج ؟

— طب استخبى ياروحى ، استخبى .

لحظة من النشوة المرتعدة لم تدم بالطبع طويلا ، بسبب الأنة التى سمعناها بجانبنا . فالتفتنا إلى الحاج طلبة ورأيناه يتقلب حيث نام فى ضوء القمر ، توطئة لأن يستوى لجأة جالساً .

فى بلاهة راح يتلفت حوله حيناً ، ثم اتكأ بيديه على الأرض وشرع فى محاولة للنهوض . ارتفع عن الأرض قليلا ثم سقط ، ثم ارتفع ثانيا . ببطء يرتفع عن الأرض كأنه لصق إليها بالصمغ ، لحظات من الكفاح ثم رأيناه واقفا . شبح طويل فى الجلابية البيضاء يترنح وقد رفع رأسه إلى السماء ، ثم بدأ يسحب شهيقا طويلا يملأ به رئتيه ، سمعنا الهواء وهو يتسلل إلى صدره بصوت كالفحيح . فانتظرت أن أسمع صوت الزفير لكننى لم أسمعه ، لسبب ما رأى الحاج أن يحتفظ بالهواء فى صدره حينا من الزمن . ذلك ـ كما تبينت بعد لحظات ـ لأنه كان يزمع الصراخ .

— حى ! صرخ الحاج طلبة بصوت كالرعد ! حى ! حى !

أربع صرخات متوالية هزت أركان الجزيرة هزا ، مع كل صرخة تجفل زازا بين ذراعى وتنتفض .

— حى ! صرخ الحاج من جديد ، حى ! حى !

ثلاث صرخات جديدة ثم سعل الحاج فى وقار ولمّ الجلباب حول ساقيه ، توطئة لأن ينخفض إلى الأرض ويجلس . وسعلة ثانية ثم انطرح على جنبه ونام كما كان من قبل ، أنفاسه تترددت فى هدوء كأنه لم يبدر منه أى شىء غريب .

— أحمد ، هتفت زازا فى هلع ، دا باينه اتجنّ !

— زازا ، أجبتها وأنا أرتعد من الخوف ، بصى وراكى !

فالتفتت خلفها لكى ترى مارأيت ، توتو الذى يقف على بعد خطوة منا وقد صحا فى الغالب على صراخ الحاج طلبة . فى صمت يقف ناظرا إلى زازا حيث لاذت بين أحضانى ، بوجه صخرى كوجه أبى الهول يلمع فى ضوء القمر . وبهدوء منذر بالشر مد يده إلى جيب المايوه ففتحه واستل منه الخنجر ، ذلك المنظر الذى ماكادت زازا تراه حتى نهضت على عجل .

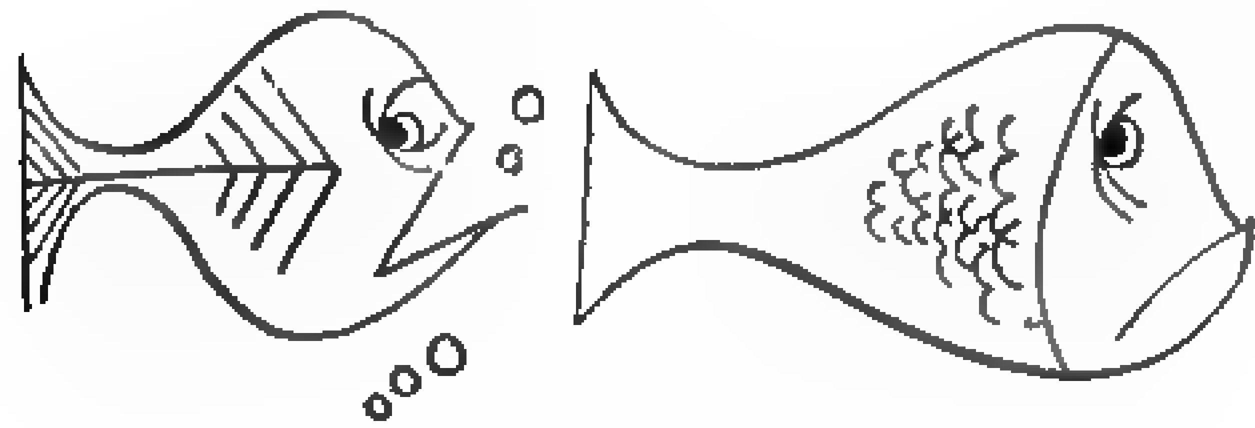
— توتو ! هتفت زازا ، بلاش جنان ! أنا فى عرضك ياتوتو !

وهمت بأن تطبطب على صدره فدفعها عنه بقسوة وبدأ يقترب

منى بوجه يقطر حقدا وشرا . فلست أدرى ماذا أصابنى حتى جلست جامداً بهذه الصورة كأننى تمثال الكاتب الجالس القرفصاء ، لم أتحرك ولا حتى بعد أن رأيت الخنجر يرتفع فى يده إلى أعلا .

— توتو ! صرخت زازا .

وهجمت عليه من الوراء تطوق جذعه وتحاول أن تجذبه فكأنما تجذب جذع شجرة بلوط . بكوعه لكزها فى رأسها فتركته وهى تغطى بيديها وجهها ، ويده اليمنى هوت بالخنجر اللامع نحوى . فلابد أنه عفريت لبسنى فجأة — ذلك الذى جعلنى أنطرح بسرعة البرق على الأرض وأتشقلب لأتفادى الطعنة ، توطئة لأن أشرع فى الإجراء الوحيد المتاح لرجل فى موقفى وذلك بالطبع هو الجرى السريع .



بكل قوتى رحت أجرى وأنا أسمع صوت أقدام تجرى ورائى ، مطلقاً بين الحين والآخر صرخة عبيطة كلما هم بأن يمسكنى . فخيل إلى بأننى انقلبت تلميذا صغيرا يلعب المساكة فى حوش المدرسة ، خاصة عندما وجدتنى أقصد إلى شجرة التفاح وأحتمى وراءها .

أنا فى ناحية منها وتوتو فى الناحية الأخرى بأسنانه اللامعة مثل خنجره ، ينط يميناً فأنط شمالا كأننا فى لعبة حاورينى ياطيطا . لكن الشجرة لم تكن لتحمينى طويلا ، ولذلك وجدتنى أنطلق بآخر سرعة عندى نحو المركب قافزا فى طريقى على الحاج النائم ، احتميت وراء المركب القائمة على جنبها وعادت المحاورة من جديد . فبينما نحن كذلك إذ رأيت منظرا خيل إلى أنه غريب نوعاً ، منظر زازا التى انحنت على الأرض فى آخر الجزيرة وراحت تنبش فى الرمال . لكننى بالطبع لم أكترث بالأمر ولم أحاول متابعة حركتها ، مشغولا بالأهم وهو مراقبة توتو . إذ وثب فجأة عبر المركب فإذا به بجانبى ، لحسن الحظ أفقياً لارأسياً ، قدمه اصطدمت أثناء القفز بحافة المركب فانكفأ على وجهه .

— أحمد ! أحمد ! أحمد !

زازا تصرخ وهى مقبلة من آخر الجزيرة تجرى .

— إشقط يا احمد ! صرخت حين اقتربت منى ، إشقط قوام !

وقذفت إلى شيئاً مددت يدى وشقطته دون أن أعرف ماذا يكون ، جسم صلب فوجئت به بين راحتى ، مسدس الحاج طلبة يلمع بين يدى فى ضوء القمر ، فما انتفاعى بمسدس لارصاص فيه ؟

— المسدس محشى يا احمد ! صرخت زازا بوحشية ، أنا كنت مخبية الرصاص !

فشعرت بالدماء تتدفق إلى رأسى كالنافورة ومعها ألف سؤال ، ولكن هل هذا وقت الأسئلة ؟ سؤال واحد صامت وجهته إلى المسدس وأنا أرفعه إلى أعلا وأضغط على الزناد ، فأجابنى صوت الطلقة المدوية . صوت وقع فى أذنى ولا صوت مدفع الإفطار فى أذن رجل صائم ، بعكس توتو الذى — وقد قام من سقطته — جمد فى مكانه ووقف يحملق إلى فى ذهول . مسدس محشو بالرصاص ومصوب إليه ، جدير به أن يخيفه حتى ولو كان فى يدى أنا .

توتو يفكر فى الأمر ويقلب وجوه الرأى ، ثم ابتسامة صفراء تشيع فى وجهه وهو يتقدم نحوى ببطء باسطا يده . مشهد قديم ذكره توتو ويريد اليوم أن يكرره معى باليد الممدودة والابتسامة الصفراء ، يظن الحمار أن أحمد اليوم هو أحمد الأمس .

— عندك ياتوتو ! قلت له بابتسامة حاولت أن أجعلها أكثر من ابتسامته اصفرارا ، عندك ! أنا موش بتاع زمان ، آه، أنا واحد تانى !

فلو كنت حقاً واحداً ثانياً فلماذا وجدتنى أتقهقر إلى الوراء ، ولماذا شعرت بذلك العرق البارد يتصبب على جبينى ؟

— إرجع ياتوتو ! إرجع احسن لك !

لكنه لم يرجع ، مابرح يتقدم منى وأنا الذى أرجع .

— ياتوتو ابعد احسن لك ، قلت له بصوت متهدج ، أنا موش عايز أقتلك ! ابعد عنى ياتوتو !

لكنه واصل تقدمه وقد تحولت ابتسامته من صفراء إلى مصسولة ، كأنه يواجه طفلا صغيرا شقيا . فأدركت أننى قد وصلت إلى مفترق الطريق ، إلى النقطة التى يجب أن أقرر فيها مصيرى بأجمعه . إنى أكره العدوان ولكن ما باليد حيلة ، فى بعض الأحيان يجب على الإنسان أن يتخلى عن إنسانيته .

— إرجع ياتوتو ! أنا بانصحك لآخر مرة !

فواصل توتو الابتسام ، بينما رفعت أنا يدى اليسرى وأسندت بها اليمنى التى ترتعد بالمسدس . سأضغط على الزناد ولست مسئولا إذا استقرت الرصاصة فى مكان قاتل ، جدير بتوتو أن يدرك جهلى بالرماية . بل إننى أغمضت عينى حين صك سمعى صوت الرصاصة ، ومرت لحظة قبل أن أفتح — لكى استكشف ماحدث — عيناً واحدة . وبها رأيت توتو واقفاً كما كان ولكن بغير ابتسام ، شفتاه تقلصتا بعد الابتسام من الألم . وخطا إلى الأمام خطوة عرجاء ثم توقف ، ورأيت على فخذه الأيمن شريطاً طويلا من الدم الأحمر . فذكرت ما قرأت عن خطورة الحيوان الجريح وتهيأت لإطلاق الرصاصة الثانية .

— أحمد ! هتفت زازا .

لكننى كنت قد تغيرت ، شىء غريب طرأ على روحى وفتح نفسى للدماء . رصاصة أخرى أقضى بها على توتو ، وربما ثالثة أقضى بها على الحاج طلبة أيضاً ، لم لا ؟ ؟ فأغمضت عينى من جديد حين سمعت صوت الرصاصة الثانية ، وفى هذه المرة فتحت العينين لا واحدة ورأيت توتو يترنح ويسقط على ركبتيه .

— كل عليه ! كل عليه !

صرخة غليظة وصلتنى من الحاج طلبة الذى فوجئت به واقفاً عن قرب ، فأعجبنى كلامه واقتربت من الرجل الساقط مصوباً فوهة المسدس إلى رأسه .

— أكل عليك ؟ صرخت فيه بصوت غريب على أذنى ، أكل عليك ياكلب ؟ !

فرأيت شفتيه ترتمدان بشدة وسقط على الأرض ممدود الساق إلى الأمام . بيديه اتكأ على الأرض وراح يتقلقل إلى الوراء زاحفاً على مؤخرته ، صورة مجسمة للرعب الذليل .

— أكل عليك ياوسخ ؟ ! قلت له وأنا أتابعه بفوهة المسدس .

ولست أدرى لماذا أحسست بأننى يلعب من نفسه فى وجهى ويتلوى يميناً وشمالا ، بينما راقبت توتو فى تقهقره الذليل وهو يرتعد ويلهث .

فإننى لأهم بالضغط على الزناد إذ فوجئت بزازا تهجم على وتضمنى إليها .

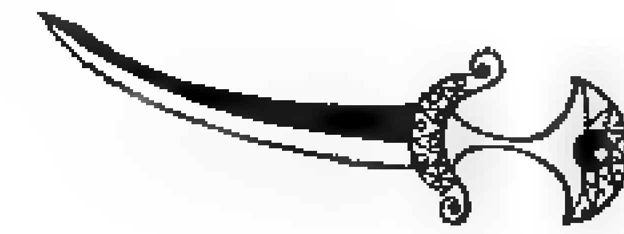
— أحمد ! صرخت زازا فى رجاء ، أحمد ! إنت ح تعمل ايه ؟

فكأنما صبت على دماغى جردل ماء ساقع ، فاضت نفسى فجأة بالخجل الشديد من نفسى . فوقفت لحظة أصوب إلى توتو نظرة أخيرة قاسية ثم أوليته ظهرى وابتعدت ، نافشا جهد استطاعتى ما أتيح لى من عضلات . وزيادة فى إظهار ثباتى مددت يدى إلى الشجرة وقطفت تفاحة ، رحت أقرشها وأنا أتلفت حولى فى انتصار .

ومن هناك رأيت توتو يميل إلى الوراء معتمداً على كوعيه ، ثم ينزع الكوعين ويتمدد على ظهره متقززا . ورأيت زازا تتناول ذيل قيصها وتنزع منه قطعة جديدة ، تحول القميص فعلا إلى بيبى دول . وصوت شهيق عميق سمعته يتسلل إلى صدر الحاج طلبة ، ذلك الشهيق الذى حبسه فى صدره كما فعل من قبل متهيأ لصرخته .

— حى ! صرخ الحاج طلبة بجنون ، حى ! حى ! حى !

وترنح فجأة ثم سقط من طوله كالقتيل .



الفصل الثالث والعشرون



توتو بعد أن أتمت زازا تضميد فخذه ، وبخلو جسمه من أى جرح آخر فهمنا أن رصاصتى الثانية قد طاشت . ثم واجهتنى زازا بنظرة غاضبة .

— والله لو عارفة انك كده ما كنت طلعت الرصاص !

— عارفة انى ايه ؟ سألتها متجاهلا .

— إنك قتال قتلة ! موش كفاية رصاصة واحدة ؟ عاوز تموت الراجل ؟

— تبقى بايخة فعلا ، مين يصطاد لنا سمك ؟

— يا سم !

فبدأت أنا أغتاظ .

— كنتى عايزانى اسيبه يدبحنى ؟

— لأ ، بس كفاية تخوفه .

— مارضيش يخاف . ماحدش بيخاف منى .

— أنا زهقت قتل وضرب ! وزهقت تنشيف دم وربطجروح!

فنظرت إلى قيصها ورفعت حاجب الجون الأيسر .

— ولو ان العملية دى لها فوايدها ، قلت لها ، قيصك بقى احسن م الأول بمراحل !

لـكنها لم تـكن فى تلك النوبة .

— زهقت خناق ! كررت باشمئزاز ، زهقت وقرفت !

— والله وانا زهقت اكتر منك .

فأشارت إلى توتو النائم .

— وموش قادرة افهم ده يتغير كده ازاى ؟ فاكر زمان كان طيب أد إيه ؟

— فعلا ، وافقتها ، غنى لنا مرة ساعة الغروب .

— م اللى شافه منهم ، قالت بحرقة ، عذبوه ولاد الـكلب !

فنظرت إلى الحاج طلبة وبدأت أملأ صدرى بشهيق عميق .

— حى ! صرخت أقلده ، حى ! حى !

فراحت زازا ترمقنى حينا فى غيظ ، ثم اهتز صدرها بضحكة .

وبدأ عقلى يتجه إلى ناحية أخرى ، إذ أننى وإن كنت قد صرت بالنسبة للقتل أحمد جديدا فازلت بالنسبة للحب أحمد القديم .

— تسمحى تقعدى ؟

وأجلستها فجلست وأنا بجانبها .

— عارفة ان دمك كان خفيف قوى وانتى خايفة ؟

فلم تجب .

— ما لـكيش نفس تستخبى تانى ؟

— أستخبى من إيه بقى ؟ الاتنين نايمين زى الأموات !

— والتالت معدته طالعة لبرة . ياترى اتحلل ولا لسه ؟

— بلاش قرف !

— متأكدة انك موش عايزه تستخبى ؟

— آه .

— طب انا عايز استخبى ، قلت مداعبا .

— لا ياشيخ ؟

— والنبى لتخبينى ، أصلى خايف قوى .

ومددت يدى نحوها فدفعتها ، لـكننى مددتها ثانيا .

— ياسلام يا احمد .

— قوليها تانى .

وتناولت وجهها بين راحتى ورحت أنظر فى عينيها ، أغوص فى البحيرتين الزرقاوين الصافيتين . بيدى مسحت على شعرها ، وبأنفى نهلت من عطرها .

— آربيج من قبل ما تسأل ! قالت بشقاوة .

وفى عينيها رأيت نظرة عرفت منها أنها قد عادت زازتى ، وكما لاذت بى منذ حين لذت أنا بها ، خبأتنى بين أحضانها طويلا .

وأشرقت شمس الصباح على جثتين لا جثة واحدة كالأمس ، وشعاع دافىء سقط على توتو فتململ حيث رقد ثم تحامل على يديه واستوى جالسا . ممدود الساقين راح يتطلع بخوف إلى فخذه المربوط وكان منتفخا وارما. ثم نظر إلى فقابلته بوجه رسمت عليه كل ماعندى من الصرامة ، لكى أفهمه أننى مازلت ذلك السفاح الجديد ، وفى الوقت نفسه تحسست المسدس الذى كنت قد علقته فى أستك بنطلون البيجامة . فخفض بصره إلى فخذه وشرع يحل الرباط ، رأيت جرحا متقيحا وفخذا محتقنا ينذر بالخطر .

— ياعينى ، قالت زازا فى هلع ، ده الجرح اتوسخ .

— آر ! قال توتو بصوت متهدج .

— آر ؟ سألته .

— آر ، أجابنى .

وأشار إلى صخرة صغيرة على الأرض وشرع يضرب قبضة بأخرى ويقول آر .

— يكونش قصده نار ؟ تساءلت زازا .

فأومأ توتو برأسه عدة مرات مصدقا ، فناولته زازا حجرين ووضعت أمامه بعض الأعواد الجافة ، سرعان ما كان قد أشعل النار .

— أنجر ! صاح يشير إلى الخنجر .

فترددت لحظة ثم قذفت إليه بالمذكور وأنا أتحسس مسدسى ، فمد توتو النصل اللامع فوق النار وشرع يسخنه .

— ياخبر اسود ! هتفت زازا فى فزع ، ده باينه ح يعمل لروحه عملية !

— له حق ، أجبتها ، الرصاصة لازم تطلع .

— لكن ده ح يمور نفسه .

— هو حر ، الجرح جرحه والفخد فخده .

وسحب توتو الخنجر من النار متوهج النصل أحمر ، ومالبث أن أدناه من فخذه بيد ترتعد . لحظة من التردد ثم دس السن المتوهج فى الجرح ، سمعت النار تطش فى لحمه وانبعثت منه صرخة ألم . وصرخة أخرى كادت تنطلق من زازا لولا أنها سدت فمها براحتها ، مشيحة بوجهها كى لا ترى المشهد الرهيب . وكذلك

فعلت أنا ، ومن ورائى سمعت زفرات متلاحقة تنبعث من توتو وهو يجرى العملية . زافرات أليمة وشهقات ، وأنا أتخيل المنظر فأرتعد من مجرد الخيال .

— زازا ! قال توتو بعد حين بصوت جريح ، زازا !

فالتفتنا لنرى دماء غزيرة تغطى فخذ توتو ، وفى نفس الوقت رأينا فى يده رصاصة صغيرة . فأسرعت زازا بنزع قطعة جديدة من ذيل قميصها ، هذا القميص سيصبح ذات يوم بلوزة . وانحنت فربطت الجرح لتوقف النزيف ، وكان توتو يرتعد من رأسه لقدمه ، أمر طبيعى بالنسبة لرجل أجرى لنفسه عملية جراحية وبدون بنج . فبينما زازا تربط له الجرح رأيته يرتجف بشدة ، وعرق غزير تصبب على وجهه وصدره ، فأصارحك القول بأنه صعب على ، قلت لنفسى هذا الرجل يحتاج إلى لباس يدفئه . فما هى إلا لحظة حتى كنت قد خلعت فانلتى .

— خد ! قلت له بكراهية مصطنعة ، خد جتك البلا !

وقذفت إليه بالفانلة فتلقفها فى فرح ، سرعان ما كان يحشرها بالعافية فى صدره العريض . فلما أنهت زازا عملها رأيته يستلقى على ظهره وهو يلهث ، نحوا من خمس دقائق وهو يتململ ثم سكنت حركته وبدا أنه استغرق فى النوم .

توتو نام والحاج طلبة صحى ، جلس يتلفت حوله فى عباطة ثم حاول أن يحرك ذراعه فتقلص وجهه من الألم . لكنه تماسك وواصل تحريك ذراعه من عند الكتف فى دوائر صغيرة لكى تلين عظامه . وبينما يفعل ذلك يواجهنى بعينين غائمتين فيهما نظرة غريبة ، من خلال وجه مغضن كاد يتوه وسط شعره المتهدل ، ولحيته الكثيفة البيضاء التى طالت وتدلت وكادت تلامس الأرض . كأن عمره مائة سنة ، أو كأنه واحد من أهل الكهف صحى للتو من نومه الطويل . نفس النظرة الغريبة صوبها إلى توتو النائم ، ثم نقلها إلى زازا ، يتفحصنا طويلا كأنه يريد أن يذكر من نكون . ثم اعتمد بيديه على الأرض وجاهد لكى يقف ، ترنح حينا ثم اعتدل وبدأ يمشى . كطفل يتعلم المشى سار الحاج طلبة عدت خطوات ، مقوس الظهر يتفحص الأرض قبل كل خطوة ، جلبابه مثل خيمة واسعة حول جسمه الذى ضمر . وإلى الجرة قصد فرفعها فوق فمه وراح يشرب ، ثم اتجه إلى شجرة التفاح فقطف واحدة ووقف يقرشها ، مواصلا تفحصه لنا بتلك النظرة الغريبة الغائمة .

فتنهدت وقصدت إليه .

— ازى كتفك ياحاج ؟ سألته مجاملا .

فوقف يحملق إلى فى ذهول كأنه لا يعرفنى .

— كتفك طاب ياحاج ؟ أعدت سؤالى .

فواصل حلقته إلى ثم سعل .

— الحمد لله ، أجابنى أخيرا ، الحمد لله .

حتى صوته ذبل وصار أشبه بالحشرجة .

— الحمد لله ، ردد الحاج كلمته بضعف وهو يشيح عنى بوجهه .

ثم أولانى ظهره وقصد إلى الشاطىء ، جلس يستعرض البحر بنظرة طويلة شاردة . فعدت إلى زازا التى جلست بجانب توتو تتأمله وقد وضعت يدها على خدها .

— صعبان على قوى ، قالت بحرارة ، قوى .

— وعلى انا كمان ، بس هو اللى جاب الأذية لنفسه .

— مع إنه كان زمان مافيش اطيب منه .

— فعلا ، غنى لنا مرة ساعة الغروب .

علامتان فيما أذكر رسمتهما على جذع الشجرة قبل أن يزول الورم عن فخذ توتو . ثم أصبح يوما بادى النشاط وراح يثنى ساقه المصابة ويفردها ، ومد يده إلى زازا كى تساعده على الوقوف.وقف أول الأمر على ساقه السليمة رافعا الأخرى فى الهواء ، ثم أنزلها برفق ليلمس بها الأرض . فما كاد يعتمد عليها حتى بدا الألم على وجهه ، لكنه تماسك وخطا بها إلى الأمام خطوة عرجاء .

من بعيد وقفت أرقبه فى حذر ويدى على المسدس ، إذ خطا

خطوة جديدة عرجاء تلاها بأخرى نصف عرجاء ، ثم بثالثة غير عرجاء ، عادت ساقه إلى ما كانت عليه من قبل رصاصتى . فظللت واضعا يدى على المسدس وأنا أرقب حركته ، إذ أنه كان يقترب منى ببطء . وصل إلى مسافة خطوتين منى ثم وقف يتفرس فى ، لحيته هو الآخر قد طالت وفى شعره المتهدل ظهر كثير من الشعر الأبيض .

فى صمت وقف ينظر إلى بعينين سوداوين براقتين ، وسط وجهه الذى مازال فيه أثر من الكدمات . وفجأة تحركت شفتاه وانفرج فمه عن ابتسامة لمعت خلالها أسنانه البيضاء ، أول ابتسامة لتوتو منذ زمن طويل . فترددت حينا ثم رددت ابتسامته بابتسامة جانبية صغيرة ، ولم أنس أن أرسم فى عينى معنى التحدى ليعرف أن أحمد الجديد ما زال أحمد الجديد . وفجأة رأيته يمد يديه إلى فانلتى ليخلعها ، خلعها وقدمها إلى بنظرة امتنان . فتناولتها ولبستها ، كأننى لبست شوالا لا فانلة .

— أنجر ! قال توتو وهو يمد يده باسماً .

فلما رأى ترددى أشار إلى البحر قائلا « أملك » يعنى سمك .
وعند ذلك زال ترددى وقد أسالت السيرة لعابى ، فناولته الخنجر ونزل يصيد السمك . فلما صاده شواه وناديناه الحاج طلبة لكى يشاركنا الطعام . تردد أول الأمر ثم جلس يأكل فى صمت ، شاردا



غائم العينين عجوزا ، فتافيت السمك وأشواكه تعلق بلحيته البيضاء فلا ينتبه إليها . أخرجت له أنا شوكتين ثم زهقت .

— دقنك بعد الأكل عايزه تنفيض ! قلت له مازحا .

وبالرغم من أنه لم يضحك ، رأيت أن أواصل مداعبته .

— فاكر زمان ياحاج ؟ كان معانا واحد يحب ياكل السمك لوحده !

فواجهني حيناً بتلك النظرة الغائمة ، ثم لمعت فى عينيه فجأة نظرة أخرى فيها الكثير من شقاوة الأطفال . ورفع يده النحيلة وقد مد سبابته نحوى ، ببطء مدها لينخزنى بها مابين الضلوع .

— قول ياباسط ! قال بصوت ماكر ، وابتسامة شاعت وسط غضونه ولحيته .

— دمه بقى خفيف قوى ، قلت لزازا بالإنجليزية .

ثم التفت إلى توتو .

— ولا عاوزنى اتكلم عربى ؟

— أربى ! قال توتو ضاحكا وهو يشير إلى قبر كرشة .

وانتهينا من الأكل فوقفت زازا أمامنا كجنية بيضاء ، وضربت بيديها على فخذيها فى شقاوة .

— تيجوا نلعب مساكة ؟ ! هتفت بحماس .

وانطلقت تجرى قائلة أن الشاطر من يمسكها ، فلم أكذب خبراً . أسرعت وراءها وهى تجرى هنا وهناك ضاحكة ، فلما أمسكتها كان من الطبيعى أن أقبلها . وكان هذا دورى لكى أجرى أنا وهى تمسكنى ، فلما أمسكتنى قبلتنى . وبدا على توتو أنه فهم أصول اللعبة فانطلق بدوره يجرى ويدعونا إلى اللحاق به ، فلاحقناه وأمسكناه وضحكنا حين أشار إلى خده مطالبا بقبلة .

ثم خطرت لزازا فكرة جديدة .

— تيجوا نتفسح فى المركب ؟

— أركب ! قال توتو بسرور .

— يالله يا احمد .

فرفعت يداً معترضة حازمة .

— لا ياستى ، أنا موش فاضى للفسحة . ورايا شغل .

— شغل إيه ؟

— ح اقعد أكتب .

— إيه ؟ !

— أكتب ، ماتعرفيش اكتب يعنى إيه ؟

— تكتب إيه يا أخينا ؟

— أكتب قصة .

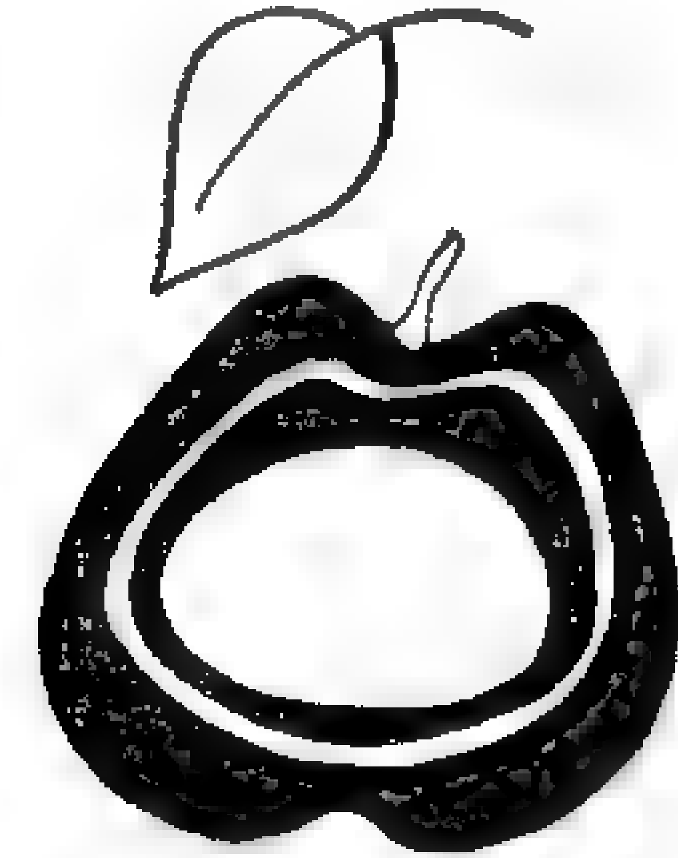
— قصة ؟ ! صرخت فى استنكار .

— آه قصة ، كتير على اكتب قصة ؟
— تكتبها لمين بقى ؟ ؟ سألتنى ساخرة .
— للأجيال القادمة ، أجبتها بكبرياء .

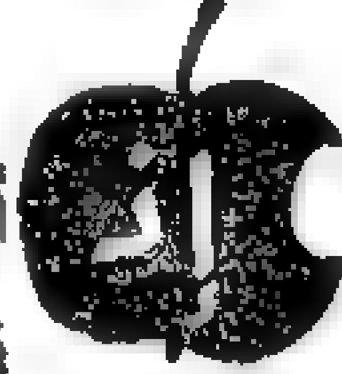
فوقفت حينا تشوينى بنظرة استهزاء ثم التفتت إلى توتو .

— يالله بينا احنا ياتوتو .

وانطلقت تجرى كالغزال الشارد ووراءها توتو ، فقفزا إلى المركب وانزلقا بها على الماء . وبالنظر إلى أن توتو لايعرف التنكيت فلست أفهم سر تلك الضحكة العالية التى انبعثت من زازا .



الفصل الرابع والعشرون



أنى شعرت فجأة بأن الوقت قد حان لكى أشرع فى تدوين قصتى ، قصة الأحداث المضحكة والفاجعة التى وقعت لى فى تلك الجزيرة الفذة . نعم يجب أن أكتبها وأن أعمل على وصولها إلى إخوتى من البشر ، لعلهم يتعظون بها إن هم وجدوا أنفسهم ذات يوم فى جزيرة مثلها . فقصدت إلى الحاج طلبة حيث جلس يسبح وجلست قبالته .

— إلا قول لى يا حاج ، سألته باسما ، يا ترى دفتر الشيكات لسه معاك ؟

فومضت فى عينيه نظرة حادة وهو يدمدم بالصلوات .

— دفتر الشيكات ؟ ! سألنى بعد حين بريبة .

— آه ، أجبته وأنا أنتزع من لحيته شوكة .
— ليه ؟
— أصلى عايز اكتب عليه .
— تكتب ؟ !
— آه ، أكتب .
— تكتب إيه ؟
— أكتب قصة .
— قصة ؟ !
لست أدرى لماذا لا يصدق أحد أنى أستطيع أن أكتب قصة .
— أيوه ياسيدى ، أجبته بملل ، قصة .
— قصة إيه ؟ قال ملحا .
— قصة الأحداث المضحكة والفاجعة التى وقعت لى فى هذه الجزيرة الفذة .
فواصل تحديقه فى ثم بدا الغيظ فى عينيه .
— ما عنديش دفاتر ! قال فجأة بجفاء .
فدهشت .
— ليه يا حاج ؟ إنت لسه عايز منه حاجة ؟
— مافيش دفاتر !
فاغتظت .
— يا حاج اعقل ، قلت وأنا أتحسس للسدس ، إنت موش عارف انى اقدر آخده منك بالعافية ؟

فلم يجب ، راح يزغر لى بكراهية واضحة .
— هات الدفتر يا حاج ، ما تبقاش رذل !
ومن سكات مددت يدى إلى جيبه أتلمس الدفتر ، فد يده يريد أن يمنعنى . لكنه ما لبث أن استسلم ، تركنى أدس يدى فى جيبه وأسحب الدفتر .
— والقلم لو سمحت ، أضفت .
فتردد لحظة ثم أخرج القلم وناوله لى .
— مرسى يا حاج ، قلت له بابتسامة صفراء ، وما تخافش موش ح اكتب شيكات .
وهممت بأن أنهض ثم ذكرت أمرا .
— على فكرة يا حاج ، الشيكات دى لها رصيد بحق وحقيق ؟
— إمال يعنى انا نصاب ؟ ! قال بغضب .
— طب ما تزعلش ، قول يا باسط .
وتركته وقصدت إلى شجرة التفاح ، جلست تحتها أبرى القلم بالخنجر ، جاعلا سنه أرفع ما يكون لكى يساعدنى على الكتابة بأصغر خط عندى . فالشيكات محدودة والقلم نفسه صغير ، أخشى أن ينفد هذا أو ذاك فأعجز عن مواصلة الكتابة وتنتهى قصتى بسؤال لا جواب له .

فما كدت أشرع فى الكتابة حتى برزت لى مشكلة أخرى هى ماذا أكتب ؟ إننى لم أكتب أية قصة فى حياتى ، فكيف يبدأ كتاب القصص قصصهم ؟ أين لى بالأسلوب الأدبى أنا المهندس الذى لم يكتب شيئاً سوى التقارير الهندسية ؟ لكننى يجب أن أحاول ، ويجب أن أنجح .

بدأت بوصف منظر غرق السفينة وكيف أنقذتنى زازا ، ثم منظر تعلقنا بالخشبة الطافية والكلام الذى قلناه فى ضوء القمر ، أصارحك القول بأننى بدأت أعجب بأسلوبى . ساعة كاملة وأنا أكتب فى نشوة أدبية ممتعة .

— إنت لسه بتكتب ؟ فوجئت بصوت زازا التى عادت من الفسحة .

— آه ، أجبتها بإيجاز .

— طب ورينى كتبت إيه .

— لأ .

لكنها اختطفت الدفتر من يدى قبل أن أستطيع منعها وجلست تقرأ . فراقبتها فى خوف من أن تسخر من كتابتى لكنها لم تفعل ، ما كادت تقرأ الشيك الأول حتى بدا عليها الاهتمام وابتسمت فى سرور . كلما أمعنت فى القراءة زاد اهتمامها ، شعرها يتهدل على الشيكات فتزيحه بيدها وتواصل القراءة . ومرة رأيت

صدرها يهتز بضحكة مطربة ، سعادة فائقة غمرتنى وقد نجحت فى إثارة إعجابها .

— الغريبة انت فاكر كل كلمة قلناها ! قالت ضاحكة .

— ودى يابنتى حاجات تتنسى ؟

— إلا واحنا واقفين عند الشجرة وانت ماسك لى المراية .

— وكان قميصك منشور بينشف ، نبهتها .

فواصلت القراءة حتى أنهت ما كتبت ثم واجهتنى بنظرة إعجاب صريح .

— تعرف انك شاطر قوى فى الكتابة ؟

فأحسست بوجهى يتورد .

— موش قوى ، قلت بتواضع .

— وشك احمر !

— ها ها .

ومالت على فقبلتنى ، وعندئذ فهمت لماذا يتخصص بعض الناس فى العمل الأدبى . وأسندت زازا رأسها إلى جذع شجرة التفاح وتطلعت إلى الدنيا بابتسامة مشرقة .

— موش عارفة انا سعيدة كده ليه ، سعيدة قوى قوى .

— والله ومن معك .

— متهيألى انى أسعد من اللازم ، أضافت .

فرفعت حاجب الفلسفة الأيمن .

— الواحد عمره ما يكون أسعد من اللازم ، أتعس من اللازم معلهش .

لكننى كنت أشعر فى داخلى أننى أنا الآخر أسعد من اللازم ، فكم من الناس أتيح لهم أن يستمتعوا بهذا المزيج النادر من الحب والحرية والفلسفة ؟

ثم سمعت زازا تتنهد وتتصعب ، سرحت ببصرها كالحالمة إلى الشمس التى تنحدر عند الأفق .

— مالك ؟ سألتها .

— لسه برضه ناقصنى حاجة ، عارف إيه ؟

— إيه ؟

— ولد !

— إيه ؟!

— ولد .

— ولد ؟ !

— أيوه ، ولد أو بنت ما فيش مانع . حتى ولد وبنت يبقوا احسن !

فخطرت لى أفكار كثيرة لكننى احتفظت بها لنفسى مكتفياً بالنحنحة .

— بس مختارة اسميه إيه ؟

— الولد ؟

— آه .

فابتسمت ساخراً .

— الأسامى كتير ، عندك احمد وطلبة وتوتووكرشة !

— لا ياشيخ ، والنبى ؟

وسكتت وشردت نظرتها إلى الأفق من جديد .

— أحمد ، خاطبتنى بعد حين .

— قوليها تانى .

— بلاش دلع وقول لى ، ما عندكش أى أمل ان المركب تشتغل ؟

— المركب بتشتغل بس البحر ما بيحبش المراكب .

— أصلى الأيام دى نفسى اطلع من هنا قوى .

— سبحان الله ! بعد الحكاية ما هديت عاوزه تطلعى ؟

ففتحت فمها لتقول شيئاً ثم عدلت .

— كنتى ح تقولى إيه ؟

— ولا حاجة . إنت لازم تفكر شوية يا احمد .

— أفكر ؟

— آه ، فى طريقة نطلع بيها من هنا .



— العبد فى التفكير .

— أصل انا جت لى فكرة .

— إيه ؟

— واحنا غرقانين فى البحر انا وانت ، موش سمعنا فوقنا صوت طائر ؟

— حصل ، وكاتب عنه فى القصة .

— الطائر ده راح فين ؟

— إيش عرفنى ؟

— شفناه فى الجزيرة هنا ؟

— لأ .

— يبقى لازم راح حته تانية . يبقى فيه بلاد تانية قريبة من هنا. فسكت أستوعب كلامها .

— ساعات يطلع منك كلام معقول ، اعترفت لها .

— وما دام فيه بلاد قريبة ، استرسلت ، يبقى ممكن نوصل .

— نظريا .

— بصفتك مهندس لازم تشوف لنا طريقة .

— كرشة قال لى اطفو عليك مهندس ! ثم انا خلاص قررت اسيب الهندسة واتفرغ للأدب !

فرمقتنى لأئمة .

— والنبي تفكر جد يا احمد ، عشان خاطرى أنا .

— حاضر يا ستى ، قلت مستسلما ، أفكر .

فابتسمت فى رضاء حيث استندت إلى جذع الشجرة ، عينها ما برحت شاردة إلى الأفق الذى اكتسى بحمرة الشفق .

— ما فيش فايدة ، قالت بعد حين ، موش عاجبنى ولا إسم .

فصوبت إليها نظرة ماكرة .

— قبل ما نفصل البدلة ، سألتها ، موش نحضر اللى يلبسها ؟

وابتسمت لها فابتسمت لى ، هناك حيث جلسنا تحت شجرة التفاح . ظلال المساء الزاحف تنتشر حولنا ، وشبح الحاج وهو يصلى العشاء ويتهيأ للنوم ، وتوتو جالس عند الشاطىء البعيد ينظر إلى البحر . وقرص فضى بزغ عند الأفق الشرق ، وإذا بصوت تينور جميل داعب آذاننا ، صوت توتو وهو ينشد أغنية جميلة غامضة .

— تمام زى زمان ! قالت زازا ضاحكة .

— زى زمان واحسن .

— إشمعنى ؟

— المسدس معايا أنا .

— إنت بتحب المسدس ؟

— أكرهه عمى ، لكن ما باليد حيلة .

فشاعت فى وجهها ابتسامة ماكرة .

— بتضحكى ليه ؟

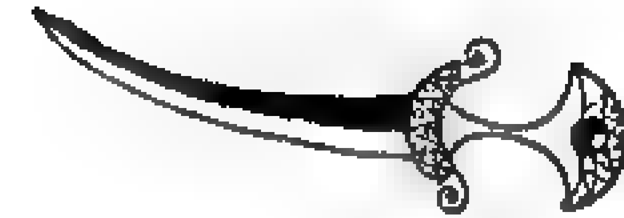
لكنها لم تجب على سؤالى .

— أحد ، قالت برقة .

— قوليها تانى .

— بتحبنى ؟ سألتنى .

فأجبتها .



الفصل الخامس والعشرون



الشمس تشرق حتى أخرجت الورق والقلم وعكفت على الكتابة . من الصبح للظهر وأنا أكتب، رفضت كل العروض التى حاولت زازا أن تغرينى بها . رفضت أن ألعب المساكة أو أنزل للسباحة . ورفضت لعب السيجة أو الحجلة أو كيكاع الواطى مع أننى شاطر فى الأخيرة جداً . بل إننى رفضت أن أقوم للغداء قائلا أننى سآكل وحدى فيما بعد .

— يا أخى قوم كل قبل السمك مايبرد ، قالت زازا بإلحاح .

فنظرت إليها فى أنفة .

— ليس بالسمك وحده يحيا الإنسان ، أفهمتها .

وواصلت الكتابة كالمحموم ، لم أتوقف عنها إلا عدة دقائق لكى آكل سمكتى ، لم يهمنى أنها باردة . بل اننى لم آكلها إلا لما فى الفوسفورمن فائدة لخلايا الفلسفة بالمخ .

— طب قوم نتفسح فى المركب ، اقترحت زازا .

— اتفسحوا انتم ، أجبتها بحزم .

— يا ساتر ! إنت ركبك عفريت ولا إيه ؟

— تقريباً .

فومضت فى عينها نظرة ماكرة .

— تعال نتفسح فى المركب انا وانت لوحدنا !

فأعجبتنى الفكرة لكننى تماسكت .

— ليس بالفسحة وحدها يحيا الإنسان ، أجبتها بإباء .

— يا سم !

— أصل فيه حاجة مانتش فاهماها . أنا اكتشفت انى موش بس باكتب قصة ، لأ ، أنا باكتب فلسفة كمان .

— فلسفة ؟!

— آه ، باتفلسف يعنى ، فهمتى ؟

فوقفت حيناً تلسعنى بنظرة ساخرة .

— طيب ياخويا ، اقعد اتفلسف !

وتركتنى وانطلقت إلى المركب ووراءها توتو ، فقفزا فى المركب

وانزلقا بها على الماء ، لست أدرى ماذا يفعل ذلك الوغد لكى ينتزع منها تلك الضحكة العالية . كالأمس لم أتوقف عن الكتابة إلا عند حلول الظلام ، ومع شروق الشمس عاودتها .

— دى ما كانتش قصة ! قالت زازا مستنكرة .

— تاخدى تقرى ؟

— لأ ، وسيبها شوية لأنى عايزة اكلمك فى حاجة مهمة .

— أهم م القصة دى ؟

ورأيت فى عينها نظرة جادة فنحيت الورق وأنصت . نظرة فرح غامر لمعت فى عينها وهى تدنو بوجهها من وجهى وتضع فمها على أذنى .

— أنا ح اولد يا احمد ! همست بفرح كالطفلة ، ح اولد !

فذعرت ، ثم ابتسمت .

— عارفة انا افتكرتك قلتى إيه ؟

— إيه ؟

— إنك ح تولدى .

— سبحان الله ، ماهو ده اللى قلته !

— يانهار اسود ! هتفت فى ذعر .

— إسود فى عينك ! دنا فرحانة بشكل ! حاسة انى ح اطير من كتر الفرح !

— تبقى مجنونة .

— ليه ؟

— دى جزيرة حد يولد فيها ؟ تربى العيال ازاى ؟

— مايهمنيش . كفاية انى اولد وخلاص!

وبسطت ذراعيها حولها تريد أن تحتضن الوجود .

— ياسلام ، قالت حالمة ، دنا لو جانى عيل كنت اعبده ! كنت ابوس الأرض تحت رجليه !

فرمقتها بازدراء .

— حاجة موش صحية بالمرة ، وبقك يتملى رمل .

فلم تجبنى ، فرحتها قد استغرقتها إلى درجة مزعجة جدا .

— ثم انا متهيألى انك ناسية حاجة صغيرة ، أضفت بخبث .

— هى إيه ؟

— ناسية انك ولا مؤاخذة موش متجوزة ! موش الحاج طلبة طلقك ؟

— طب مانا عارفة . إمال انا باقول لك الكلام ده ليه ؟

— ليه ؟

— علشان نصلح الحكاية دى .

فلعب الفأر فى عبى .

— نصلحها ازاى ؟ سألتها بريبة .

— ح يكون ازاى ؟ بإنك تتجوزنى طبعاً !

— أنا ؟! هتفت فى ذعر .

— طبعاً ، أجابت ببساطة .

فترددت لحظة .

— طب واشمعنى انا ؟ قلت أخيراً .

فزغرت لى .

— بتقول إيه ؟

— قصدى يعنى ..

— قصدك إيه ؟ عايز ابنى يطلع مالوش أب ! يعيش ازاى فى وسط الناس ؟

فتلفت حولى .

— موش شايف أى ناس حوالينا !

— الناس اللى ح يعيش فى وسطهم بعد مانرجع .

— إنتى خلاص قررتى اننا ح نرجع ؟

— طبعاً ، إنت موش وعدتنى انك تفكر ؟ !

فضحكت .

— أشكرك على الثقة الغالية ! بس لسه ماخدناش موافقة البحر.

— العقل أقوى من البحر ، قالت بكبرياء .

— حلوة دى ، لازم حافظاها من حوار فيلم ومقتبس كمان !

— موش عايز تتجوزنى قول ! أنا فيه ألف من يتجوزنى ، آه :

وكان فى كلمتها الأخيرة زفرة بكاء ، ورفعت يدها إلى عينها لتمسح دمعة غير موجودة ، ثم أشاحت عنى بوجهها ملوية البوز . ففكرت فى كلامها ووجدته صحيحاً ، من الحمار الذى يرفض الزواج من زازا ؟ وأنا بالذات ألست مديناً لها بحياتى ؟ ألم تنقذنى زازى من الموت ثلاث مرات ؟

— حبيبتى زازا ، قلت لها برقة ، عقد جوازك للحاج فين ؟

— وانت مالك ؟ قالت غاضبة .

— عايز اشوف صيغته عشان انقلها .

فالتمعت عيناها فرحا .

— إذا كان ع الصيغة انا حافظاها !

— طب مليهالى .

— صحيح يا احمد ؟ ! صحيح ح تتجوزنى ؟

— أيوه ياستى ، أمرى لله .

— حبيبى أحمد ، قالت وهى تقبلنى ، إنت أنبل راجل شفته فى حياتى .

— مرسى .

وأخرجت شيكا فكتبت عليه الصيغة بإملاء زازا ، ذلك الشيك الذى وقعته وأسلمته لها فدسته فى صدرها . ثم تنهدت كمن تخلص من حمل ثقيل ، أسندت ظهرها إلى الشجرة وفى عينيها نظرة حالمة . فرحت أنا أفكر فى الداهية التى حلت بى ، والمصيبة التى تترصدنى فى جوف زازا . هل كان ينقصنى طفل لعين يقلقنى بصراخه ويستأثر دونى باهتمام زازا ؟ وكيف ينمو طفل فى هذه الجزيرة المسحورة ؟ هل ينمو ببطء كسائر الأطفال أو يتحول فى أسابيع — على إيقاع ساعاتنا المجنونة — من طفل إلى غلام إلى فتى يافع ؟ فإذا طالب هذا الفتى اليافع بالأنثى فأين هى ؟ وإذا كنا فى ذلك الوقت قد شخنا ووهن العظم منا ، كيف لنا أن نلم هذا الفتى الأهوج الذى لا نال تربية ولا دخل مدرسة ؟ ؟

— زازا ، قلت لها فى لهفة ، إحنا فعلا لازم نخرج من هنا .

— موش باقول لك ؟

— لكن ازاى ؟

— فكر . وعلى بال ماتفكر اكون خدت لى حمام .

ونهضت فجأة وانطلقت تجرى إلى البحر ، كجنية بيضاء ألقت بنفسها بين أحضانه . فرفعت يدى أهرش رأسى فى حيرة وارتباك ، أطول أظافر تعبث بأطول شعر لعريس تزوج من دقيقتين .

الفصل السادس والعشرون



زازا حامها فأتت وجلست أمامى تسرح شعرها فى المرآة التى أرفعها أمام عينيها ، بنسة شعر تمسكها بين أسنانها .

— فكرت ؟ سألتنى والبنسة تهتز بين شفتيها .

— فى إيه ؟

— فى طريقة نخرج بيها ؟

— لا والله لسه !

فنزعت البنسة ورشقتها فى شعرها ، ثم تمددت على الرمال تأخذ حمام شمس . استلقت على وجهها مودعة خدها على يدها ، مسبلة

العينين كقطة رومية نعسانة . المرآة فى يدى أفكر فى أن أنظر فيها لكننى أخاف ، إذ أعرف أى منظر سأرى فيها . لكننى ما لبثت أن تجرأت وأدرتها إلى وجهى ، فوالله كدت لا أعرف نفسى فى هذا الوجه الرهيب . شعرى الذى شاب أكثر من نصفه ، ولحيتى الكثيفة الشعثاء ، وغضون حول العينين لا أذكر أنها كانت هناك قط .

— زازا ، سألتها بيأس ، بذمتك بتحبينى صحيح ؟

ففتحت عينيها وابتسمت .

— طبعاً يا حبيبى ، قالت بحنان .

فهززت رأسى متعجباً .

— ذوقك غريب جداً !

وأبعدت المرآة عن وجهى وقلت لنفسى أنى قطعا يجب أن أهرب من هذه الجزيرة . لو بقيت هنا شهراً آخر لوجدتنى أقطع من شجرة التفاح غصنا أحوله إلى عكاز ، مقوس الظهر أقبل زازا بفم لا أسنان فيه .

— عارف اذا جالى ولد اطلعه إيه ؟ قالت زازا بلهجتها الحالمة.

— إيه ؟

— عالم .

— فى الأزهر ؟

— لأ ، فى البيولوجى .

— شمعنى البيولوجى ؟

— إسمها حلو .

— بس كده ؟

— آه وعلى فكرة ، إيه الفرق بين البيولوجى والفسيولوجى ؟

— البيولوجى تعلمنا ليه بنعيش والفسيولوجى تعلمنا ليه بنموت .

فرمقتنى بنظرة فاحصة .

— موش بطالة الكلمة دى .

— وانتى سمعتى حاجة ؟ دنا عندى كلام كتير ، بس ما حدش ساب لى فرصة اتكلم .

— فعلا ، طول الوقت وانت بتجرى !

— وانتى بتربطى فى جروح .

— مع إننا كان ممكن نعيش مبسوطين .

فهممت بأن أعلق على كلمتها لولا الشىء الذى فوجئت به يسقط على دماغى ، تفاحة حمراء طابت واستوت فسقطت من الشجرة وحدها . فتناولتها وأنا أضحك .

— بتضحك ليه ؟ سألتنى زازا .

— فكرتنى بتفاحة نيوتن .

— يطلع مين نيوتن ده ؟

— واحد عالم ، تفاحة زى دى وقعت على دماغه طلع منها بفكرة الجاذبية .

— الجاذبية ؟

— آه .

— الجنسية ؟

— لأ ، الأرضية .

— طب قشرها لى .

وبينما شرعت أقشر التفاحة زحفت زازا إلى ظل الشجرة وتمددت على ظهرها عاقدة يديها تحت رأسها .

— وتبقى شاطر اذا قشرتها قشرة طويلة ملولوة .

— ملولوة ؟

— آه .

— وتدينى إيه ؟

مطت بوزها وطرقعت بقبلة صغيرة .

— إتنين ، قلت مساوماً .

فأومأت برأسها موافقة ، وشرعت أنا أقشر التفاحة وفقاً للمواصفات ، حيلة قديمة علمتنى إياها أيام الصبا خادمة كانت عندنا ، سمراء فى رقبتها حسنة ورائحتها بصل .

— إتفضلى يا ستى ، قلت فى انتصار ، ملوثة كفاية ؟

وأدليت فوق رأسها قشرة طويلة ملتوية كثعبان أحمر ، ثم تركتها تسقط فوق صدرها .



— طب والنبى شاطر .

ومدت لى شفتيها فانحنيت وقبلتها قبلتين . فإنى لأهم بالثالثة إذ سمعنا نحنحة بالقرب منا ، ونظرنا لنرى الحاج طلبة واقفاً يزغر لنا .

— على جهنم ! قال لنا بصوت ذابل مبحوح ، على جهنم !

فضحكت زازا .

— لمعلوميتك ياحاج ، خاطبته أنا بهدوء ، إحنا خلاص اتجوزنا . تحب تشوف العقد ؟

ولوحت له بالشيك .

— بنفس الصيغة بتاعتك ياحاج ! أضفت باسما .

فلم يجب بشىء ، وقف حينا يزغر لنا بعينه القائمة ثم ابتعد وهو يدمدم .

— دمه بقى خفيف قوى ، قالت زازا ضاحكة .

وبيدها اليسرى رفعت التفاحة إلى فمها ، فى حين مدت يدها اليمنى إلى القشرة الحمراء تسويها على صدرها فى خطوط حلزونية منسقة .

— عارف اذا جبت ولد ح اسميه إيه ؟

وذكرت اسما سمعته بنصف أذن ، وبنصف أذن سمعت كل ماقالت فى الدقيقة التالية ، كأن صوتها يصل إلى من مكان سحيق . ذلك بسبب الدوامة العنيفة التى اجتاحتنى فجأة منذ وقع بصرى على القشرة الحلزونية الحمراء فوق صدرها . القشرة حلزونية ونحن نعود إلى الجزيرة كل مرة فى دوائر حلزونية ، فما سبب ذلك ؟؟ لماذا لانعود إلى الجزيرة فى خط عامودى كالخط الذى نغادرها فيه ؟ لماذا تصر تيارات هذا البحر على أن تسير فى تلك الدوائر الحلزونية العجيبة ؟ فلو أننا ...

— أحمد ! أحمد ! أيقظنى صوت زازا ، سرحت كده ليه ؟

فلم أجبها ووجدتنى أقفز واقفا كالملسوع ، رعدة جامحة تهزنى هزا .

— زازا ! هتفت بصوت متهدج ، وجدتها !

— هى إيه ؟! سألتنى فى دهشة .

— وجدتها يازازا ، وجدتها !

— هى إيه يا أخينا ؟! إنت اتجننت ؟

— تفاحة نيوتن نفعت معايا ! جت لى فكرة هايلة !

— فكرة إيه ، موش تفهمنى ؟

— هايلة والله ، هايلة !

وكالمجنون رحت أقطف التفاح بكلتا يدى كما رأيت توتو يفعل منذ أيام ، تساقط التفاح كالمطر حول زازا فنهضت مذعورة .

— قطفى معايا ، قطفى يابت !

— لا .. إنت ماية المالية جرى لعقلك حاجة !

— قطفى ياولية ماتقفيش ساكتة ! ولا روحى قولى لتوتو يصطاد سمك كتير ! السمك اللى فى البحر كله ! ياسلام .. ده نيوتن ده سره باتع بشكل !

الفصل السابع والعشرون



من المركب ملىء بالتفاح الذى قطفناه ، وركن آخر ينتظر السمك الذى جلس توتو يشويه ، فأخذت زازا على جنب ورحت أشرح لها نظريتى التى لا أعرف بعد ماذا أسميها على وجه التحديد ، وبالطبع ستدخل فى التسمية كلمة الحلزونية — النظرية الديناميكية للحركات الحلزونية أو شىء من هذا القبيل . إن التيارات المائية فى هذا البحر ـ شرحت لها ـ من دأبها أن تتجه إلى الجزيرة فى دوائر حلزونية ، الأمر الذى تحققنا منه مرة بعد مرة بالمشاهدة والتجربة . إذن فوفقاً لقانون الاحتمالات يكون من شبه المؤكد أنها تيارات ذات طابع حلزونى . فماذا يحدث لتلك التيارات بعد أن تصطدم بأرض الجزيرة ، هل تتلاشى وتختفى كلية ؟ كلا بالطبع

لابد أنها ترتد عن الجزيرة بعد أن تصطدم بها ، من ناحية بفعل الصدمة ومن ناحية أخرى لتفسح الطريق للتيارات الأخرى التى لاتبرح تتدفق على الجزيرة . إذن فهناك احتمال كبير فى أن تكون هناك ـ فى الوقت نفسه ـ تيارات تبتعد عن الجزيرة مثل التيارات التى تتوافد عليها ، وهى فى أغلب الظن تتحرك فى دوائر حلزونية مشابهة . فأين تذهب تلك التيارات ؟ ما المانع نظريا من أن نفترض أن هذه التيارات يمكن أن تحملنا معها ـ إذا نحن وجدناها ـ إلى البحر الواسع العريض ؟؟

— فهمتى ؟ سألت زازا مستوثقاً .

فلم تجبنى من فورها ، راحت تتفرس فى بنظرة تتضارب فيها معانى الشك مع الرغبة فى التصديق .

— طب ليه ماعترناش على التيارات دى قبل كده؟ سألتنى بريبة.

— سؤال وجيه وجوابه سهل ، ما عترناش عليها لأننا كنا دايما نطلع من الجزيرة فى خط عامودى ، فهمتى ؟

فسكتت تتفكر فى الأمر حينا .

— يا سلام ، قالت أخيراً .

— آه ، أجبتها .

وكان توتو قد انتهى من شى السمك فنقلناه إلى المركب ،

ودفعنا المركب نفسها إلى الماء ، أنزلناها فى النقطة التى اعتاد التيار أن يرجعنا إليها فى كل مرة . وقبل أن نركب أخذت أستعرض للموقف.

— مليتى القلة ؟ سألت زازا .

— أيوه .

— وجبتى غطاها ؟

— أيوه .

— وكيس النايلون؟

— إمال ح اشيل المشط والمراية فى إيه ؟

— وانا معايا الخنجر والمسدس ، يالله بينا .

— إستنى شوية .

— إيه ؟

فضحكت زازا لسبب لا أعرفه .

— هو احنا ممكن نطلع ولا نرجعش هنا تانى ؟ سألتنى .

— فى الغالب ، ليه ؟

— إمال اما اجيب البتاع ده بقى !

— بتاع إيه ؟

لكنها لم تجبنى وانطلقت تجرى بعيداً ، انحنت فى آخر الجزيرة وراحت تنبش فى الرمال . فلما عثرت على بغيتها أقبلت على ومدت نحوى قبضتها المطبقة على شىء ما .

— إفتح إيدك ، قالت باسمة .

فبسطت راحتى لكى تودع فيها ماعندها ، عيون الجميع تركزت على يدى فى اهتمام . إحساس فى يدى بأجسام معدنية صغيرة توضع فيها ، ثم رفعت زازا يدها لكى أرى على راحتى ثلاث رصاصات من رصاص المسدس .

— إحشى مسدسك بى ! قالت زازا ضاحكة .

فرحت أحملق فى الرصاص بقدر من البلاهة يبدو وأنه كان أكبر من اللازم ، وإلا فلماذا سخسخت زازا من الضحك ، ولماذا عدى توتو بضحكها فقهقه ، وحتى الحاج طلبة نفسه رأيته يهتز بضحكة مكتومة ؟ تعليقات كثيرة دارت فى دماغى لكننى كتمتها ووقفت أحشو المسدس فى صمت .

— ماليش دعوة ، قالت زازا ، إنت اللى علمتنى كده !

— طب معلهش ، قلت لها ، هى لك والزمن طويل . يالله بينا .

إلى المركب صعدنا وفيها جلسنا وهم ينتظرون تعليماتى ، إذ تناول توتو المجداف وهم باستخدامه فمنعته .

— موش ح نقدف ؟ تساءلت زازا فى دهشة .

— نقدف ليه ؟ سألتها باستعلاء على ، إحنا عارفين التيارات المرتدة ماشية ازاى ؟ ماحدش يتحرك خالص .

— لكن . .

— هس ! اكتموا نفسكم .

صمت عميق خيم علينا حيث جلسنا فى المركب ، أربعة صدور تغلى كلها بأمل واحد . دقيقة من الصمت والمركب ثابتة فى مكانها لاتتحرك ، أنظار الجميع مركزة على فى رجاء تمازجه ريبة ، وتحفز واضح للعن أبى إذا فشلت الخطة . فتقبضت يداى بقوة على حافة المركب ، أنظر إلى البحر فى استعطاف ذليل .

وفجأة تقلقلت المركب على سطح الماء مع أن أحدا منا لم يتحرك ، بدأت تدور حول نفسها ببطء وتغير من وضعها . تقدمت خطوة نحو الشاطىء كأنها ستنغرس فيه ، لكنها مالبثت أن غيرت فكرها وبدأت تتأرجح مبتعدة عن الشاطىء برفق ، لافى خط عامودى عليه وإنما بمحاذاته كأنها تنوى أن تدور حول الجزيرة .

— دى مشيت ! هتفت زازا فى دهشة ، مشيت !

والحاج طلبة أسرعت شفتاه بالدمدمة ، وتوتو لمعت خلال ابتسامته أسنانه البيضاء . والمركب تنزلق على الماء بحذاء الشاطىء مبتعدة عنه رويداً رويداً .

— احنا بنبعد عن الأرض ! هتفت زازا بفرح ، والله بنبعد !

شيئاً فشيئاً نبتعد عن الجزيرة ، فى دقائق قليلة كنا قد درنا حولها دورة كاملة . ثم دخلنا فى الدورة الثانية وشرعنا فى الثالثة ، صارت الجزيرة على مسافة لاتقل عن مائة متر . ومع الدورة الرابعة تضاعفت المسافة ، وبانتهاء الخامسة والسادسة كانت الجزيرة قد أصبحت على مدى الشوف .

— حاجة مش معقولة أبدا ، قالت زازا وهى تضرب كفاً بكف ، دى معجزة !

— طولى بالك ، أنذرتها ، لسه ما تأكدناش .

إذ أننا لانكون قد نجحنا إلا إذا تجاوزنا تلك المنطقة المشئومة التى مابرحت تصدنا فى كافة المحاولات السابقة ، إذ تصيدنا فى دوامة التيارات العائدة إلى الجزيرة . فسكتت زازا وسكتنا جميعاً ، أنفاسنا محبوسة ونحن ننظر تارة إلى البحر العريض المنبسط أمامنا ، وتارة إلى الجزيرة التى أصبحت مجرد نقطة صغيرة فى آخر الدنيا .

— تفتكرى عمرنا وصلنا للمسافة دى ؟ ؟ سألتها مستوثقاً .

— ما أظنش ، قالت بشىء من التردد.

واكتفى الحاج بالدمدمة وهو يجيل حوله نظرات عصبية زائغة ، والمركب تسير وتسير مدفوعة برياح غير محسوسة . ماهى إلا ساعة حتى كانت الجزيرة قد اختفت تماما عن أبصارنا .

— عمرنا وصلنا للمسافة دى ؟ تساءلت من جديد وفى صوتى نبرة انتصار .

— أبدا ، هتفت زازا بفرح ، أبداً ! عمرنا مابعدنا كده أبداً !

— أبداً أبداً ! ردد توتو هتافها وهو يتقفز ويضرب على فخديه بيدى طفل فرحان .

فملأت صدرى بشهيق عميق من هواء البحر المنعش ، وللمرة الأولى أطلقت زفيرا حرا طويلا مع آهة تجمع بين الراحة والظفر . ثم وجدتنى أتنحنح فى كبرياء وأنا أرفع حاجب العلوم الأيمن .

— باقول ادخل فيها إسمى ، قلت لزازا .

— هى إيه ؟

— النظرية طبعاً . أصلى كنت ح اسميها النظرية الديناميكية للحركات الحلزونية لكن غيرت فكرى . ح اسميها نظرية الحركة الأحدية ، حاجة كده زى الحركة البراونية .

فراحت زازا تحدق فى حينا ثم غمرتنى بابتسامة تسيل حب وإعجابا ، بل إنها مالت على فطبعت قبلة سريعة على خدى .

— والنبى انت مافى منك أبداً ، قالت بلهجة صدق .

— لا ماتبالغيش ، أجبتها بتواضع العلماء ، لازم برضه فيه هنا ولا هنا ، هاها .

وسفينتى تنزلق على الماء كالبجعة الحسناء بغير قلع أو مجداف ، تشق عباب البحر باسم الله مجريها ومرساها . فبورك فى يوم ولدت ويوم ركب فى دماغى هذا المخ العلمى الفذ .

— متهيألى سرعتنا قلت ، قالت زازا بعد حين فى قلق .

— ده بس متهيألك ، أجبتها بثقة .

— طب والله قلت ، قالت مصرة

فنظرت إلى الماء وأرهفت السمع ، خيل إلى أنا الآخر أنها نطقت صدقاً .

— على كل حال ده شيء طبيعى ، قالت لها مطمئنا ، التيارات ضرورى تنتهى . لازم نبتدى نقدف . خد ياتوتو .

وناولته المجداف الذى هم باستخدامه ثم توقف بادى الحيرة .

— مالك ؟ سألته .

فأشار بإصبعه إلى الأمام وإلى الوراء ، ثم إلى الشمال واليمين .

— والله له حق ، قالت زازا ، ح يقدف على أى ناحية ؟

وكانت هذه مشكلة حقا ، فإلى أين نحن ذاهبون ؟ البحر عريض فسيح لانهائى أزرق ، شماله كجنوبه كشرقه كغربه ، وسفينتى غير ذات بوصلة .

— أحسن حاجة نخلى الشمس ورانا ونمشى ، قلت مقترحا .

— إشمعنى ورانا ؟ تساءلت زازا .

— ح يكون ليه ؟ علشان ما تزغللش عنينا ، صعبة دى ؟

فبدأ توتو يجدف بنشاط ، فرحا بالفرصة التى أتيحت له لكى يعمل شيئا .

— تعرفى ان توتو نفعنا جدا ؟

— فى إيه ؟

فى أنه أكسب المركب هذا القدر من الخفة والنعومة ، لم يكن مستبعدا أن تعجز التيارات عن حمل السفينة الخشنة الثقيلة السابقة .

— ربنا يبارك لنا فيه ، قالت زازا وهى تربت على ظهره بحنان .

كتفاه عريضان وجانباه ضلعا مثلث ينتهى عند خصره النحيل ، عضلاته لا تبرح تنقبض وتنبسط فى ظهره البرونزى المتين — لكننى أنا الذى رسمت الخطة .

— ناولينى سمكة بس تكون كبيرة ، قلت لزازا .

فناولتنى سمكة والحاج طلبة مثلها ، كادت نسبة الأشواك فى لحيته تطغى على نسبة الشعر . فلما تغديت تناولت المجداف من توتو ريثما يتغدى بدوره ، وسمعت من زازا ضحكة مطربة .

— حقا انت المرة دى نوح بحق وحقيق !

— نيوتن من فضلك ، نبهتها .

— بس اياك نوصل حتة حلوة .

— دى بقى معرفهاش ، أنا موش مغسل وضامن جنة .

— عشان كده انا خلاص نويت على حاجة ، عارف إيه !

— إيه !

— خلاص ح اسمى ابنى أحمد .

— ده أقل ما يجب عليكى .

— آه ، أسميه أحمد وادلعه توتو .

فزغر لنا الحاج طلبة ولم يقل شيئاً ، بينما رحت أنا أجدف وأجدف .

— يظهر انها ح تليل علينا ، قالت زازا بعد حين بقلق .

فالتفت خلفى نحو الشمس ، رأيتها قد انحدرت عند الأفق ملونة إياه بحمرة الشفق . وبحركة لاشعورية نظرت إلى ساعتى فسرعان ما جمدت عينى عليها .

— زازا ! هتفت فى دهشة ، زازا !

— إيه ؟

— بصى ! ؟ ساعتى عقلت !

وأدنيت الساعة من وجهها ، وراحت تتفرس فيها حينا ثم هزت كتفها .

— آهى زى ماهى ، قالت باستخفاف .

— دى زى ماهى ؟ دى ؟ !

— آه .

— طب دى موش بس هديت عن الأول ، دى بقت أهدى من كل الساعات اللى فى الدنيا . بصى كويس !

فهل كان عقرب الثوانى يدور فى سالف الزمن بهذا البطء الشديد ؟ ؟ إنه يتفسح على الميناء أكثر منه يدور ، يتلكأ عند كل علامة كأنه لا يريد أن يفارقها ، فهل أنا أعمى ؟

— يا زازا بصى ! هتفت فى فرح وحشى ، بصى !

— والنبى بلاش عباطة وقدف .

— إنتى عارفة الحكاية دى معناها ايه ؟

— معناها انك مجنون ! يا تقدف يا تدى توتو يقدف .

— قدف ! قال توتو باسما .

فناولته المجداف وأخرجت أوراقى بأنامل مرتعدة ، سجلت عليها هذه الملاحظة عن الساعة .

— يا خسارة ، قلت بحسرة ، الورق قرب يخلص ولسه فيه كلام كتير .

جربت الساعة حين تجرى بسرعة ، وخبرت الشعر حين يتهدل ويشيب بين عشية وضحاها ، فماذا يكون الأمر لو حدث العكس ؟

— ما فيش فايدة ، قالت زازا بمرارة ، ما فيش ريحة أرض حوالينا . ضرورى ح نبات فى البحر .

نعم يبدو أننا سنفعل ، حمرة الشفق ذابت فى لون البحر الرمادى ،

وعتمة المساء أخذت تنتشر حولنا . والليلة ليست مقمرة ، نجمة واحدة لمعت جهة الشرق وربما كانت الزهرة .

— ما كفاية تقديف يا توتو ، قالت زازا ، الدنيا ضلمت .

فأطاعها وترك الجداف ، ثم انخفض فى قاع المركب وهو يلهث . والحاج طلبة كف عن الهمهمة حيث تكدس فى ركن المركب .

— تتعشوا قبل ما تناموا ؟ سألتنا زازا .

فطرقعت شفاهنا بالنفى ، من الذى تروح نفسه للأكل فى هذه الظروف ؟ البحر الداكن المريض ، الصامت كالقبر مع أنه يعج بالحياة . رحلة إلى المجهول فى الظلام الذى لا يبرح يتكاثف حولنا . صامتين جميعاً نلوك أفكاراً واحدة ، لا صوت حولنا إلا خفق الماء على جنبات المركب . وزازا أراحت خدها على حافة المركب وأدلت يدها فى الماء ، شاردة تفكر . شيئاً فشيئا يتكاثف الظلام ويحول الجميع إلى أشباح ، حتى ظهر زازا العاجى فى قميصها الممزق كاد يتوه فى الظلام . وبعد قليل تاه فعلا ، غاب الجميع عن بصرى .

وصوت أنفاس منتظمة لتوتو والحاج طلبة تدل على أنهما قد ناما ، فدهمنى فجأة شعور مفزع بالوحدة والعزلة ، خيل إلىّ أنه ليس فى العالم كله إنسان غيرى . برودة سرت فى بدنى ورعدة ، وتسارعت كل من أنفاسى ودقات قلبى .

فددت يداً مرتعشة أتلمس بها كتف زازا .

— زازا ، همست بوجل ، نمتى ؟

فسمعت طرقعة شفتيها ، وأحسست بها تستدير نحوى .

— خايفة يا زازا ؟

— إنت خايف ؟

— قوى ، شوفى إيدى باردة ازاى ؟

— يا حبيبى ، دانت بترعش .

وتناولت يدى بين يديها وكانتا دافئتين ، ثم وجدتها تجذبنى نحوها فى حنان وتميلنى لكى أنام ، أراحت رأسى على حجرها كأننى طفل صغير .

— خايف من إيه يا حبيبى ؟ سألتنى برقة وهى تمسح بيدها شعرى .

— البحر كبير قوى ، قلت بصوت متهدج .

— ما هو طول عمره كبير .

— والنجوم كتير قوى .

— بر ضه طول عمرها كتير .

— موش للدرجة دى .

ملايين ملايين النجوم تبعثرت فى القبة السوداء ، بعضها نجوم وحيدة ترتعد مثلى ، وبعضها أكداس من نجوم نحاسية صدئة

أنظر إليها فيخيل إلى أنها قد تهاوى فجأة فوق ، أو أنى قد آخذ شهيقاً قويا فتتسرب مثل ذرات التراب إلى صدرى .

— ما تخافش يا حبيبى ، أنا معاك .

بيدها الحنون مشت على جبينى ، شيئاً فشيئاً سرى دفئها فى جسمى وأخذ يطرد الرعدة عنى . تسارعت أنفاسى حيناً ثم هدأت ، بدأت أسترد سكينتى . بل ونشوة غريبة جرفتنى فجأة ، وشعور طارىء بالخفة وبالاستخفاف بكل ما كان يفزعنى ، فوجدتنى أقهقه .

— مالك ؟ سألتنى زازا .

— حاجة غريبة قوى ، عمرى ماخفت بالشكل ده .

— أصلك مجنون .

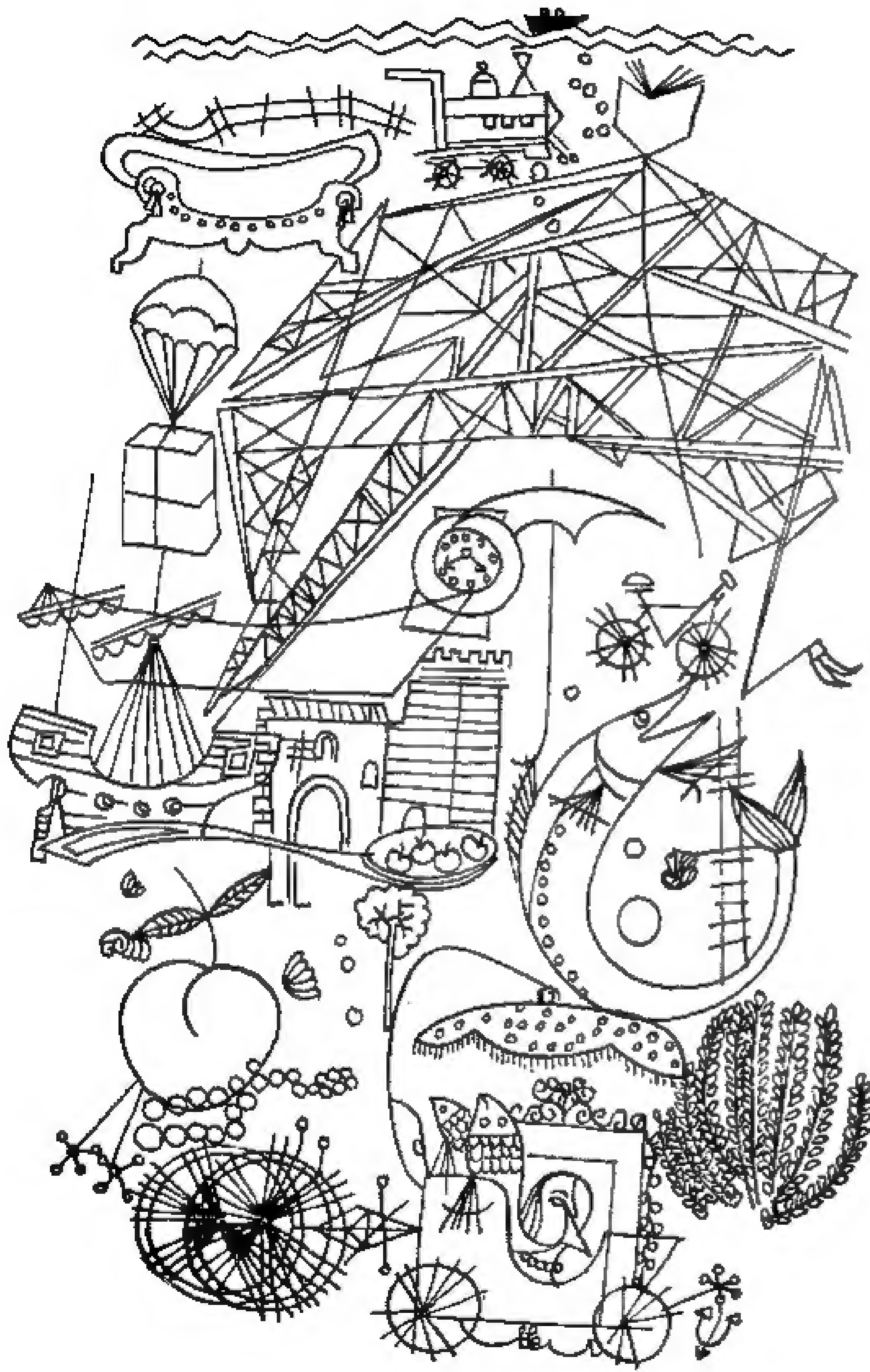
— هاها .

فماذا يمكن أن يحدث لنا ؟ تنقلب المركب ويأكلنا السمك ؟ أكلناه كثيراً فلماذا لا يأكلنا مرة من نفسه ؟ وماذا لو تحولت من آكل للبروتين إلى جزىء بروتين فى خلية سمكة ؟ ما الفرق فى النهاية بين أن أعيش فى خلية أو فى الغلاف الجوى لكوكب ؟

— فكرينى بكرة اكتب الحكاية دى .

— إنت لسه ح تكتب ؟

نعم وبأصغر خط عندى ، وبدون أن أترك فى الوريقات المتبقية ملليمترا واحدا أبيض ، كأنى خطاط يستعرض مهارته فى تدوين كتابه المقدس على بيضة . إلا قول لى — قالت زازا — تزعل لو ماسميتش الواد أحمد ؟ وليه ما تسميهش أحمد ؟ نفسى ف إسم جديد . إنتى حرة . طب اسكت وفكر معايا ف إسم . ما أعجب ذلك الخوف الذى دهمنى ، وما أعجب النشوة التى تعترينى الآن ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . أنا الآخر لا يعجبنى اسم النظرية الأحدية ، ترن فى سمعى كأنها إحدى الطرق الصوفية ، افتكرت اسم . إيه هو ؟ إيه رأيك فى حلزونية أحمد ، حاجة كده زى ثابت بلانك ؟ طب بلاش عباطة وخلينا فى الواد . جنين فى جوفها بجانب رأسى ، لو أن سمعى أقوى لسمعت دقات قلبه . عجينة تختمر فى ظلام الرحم وتتشكل ، ضفدعة تتاوى فى قربة ماء ، عفريت مقلوب على رأسه لايرى ولايسمع ولايتنفس لكنه يعيش وينمو . على دقات ساعتى ينمو ، وكم تطربنى تلك الدقات الجديدة المتباطئة ، إلا قولى لى . إيه ؟ تعملى إيه لو الواد نزل براسين ؟ إن شالله انت يارب ! ليه ، يبقى بمخين . ها ها ، طب والنبى فكرة . بس يضطر يحلق دقنين . طب لوجبت بنت نسميها إيه ؟ عندى فكرة . إيه ؟ إذا جت بنت سميها تفاحة ، وإذا جه واد سميه جمجمة ! ياسم كده ! على فكرة تعرف إن الجمجمة صعبانة على ؟

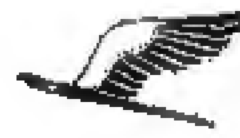


ليه ؟ وحدها كده فى الجزيرة . ومين قال انها فى الجزيرة . يعنى إيه؟ يعنى جبتها معايا ! إيه ؟ ! طبعا جبتها ، ح اسيبها مسكينة وحدها هناك ؟ أما انتى بقى . أحمد ، بلاش دوشة خلينى افكر . كانت دائما أنثى لامعقولة ، وكنا نظن أنها ستخرج من الكوخ مشرحة. جثت على ركبتيها دامعة العين من الضحك وقالت شوفوا لى أى عريس — أحمد . قوليها تانى . تفتكر ح توصل ؟ ؟ قولى ياباسط . إإاحم ! الحاج بيحلم . ده دليل على إنه لسه ما ماتش . والنبى بقى دمه خفيف . إنتى عندك حد دمه تقيل ؟ ياخسارة . إيه ؟ كان ممكن نعيش سعدا . كان . ضيعوا الوقت فى الخناق . بهدلونا ولاد الكلب . هاها ، دانت يابنى جريت جرى ! من يضحك أخيرا ، أحدهما فى القبر والآخر غصت لحيته بأشواك السمك . إلا الشيك أبو ألف جنيه لسه معاك ؟ مكتوب عليه فصل من الرواية . ياترى يرضوا يصرفوه لك بالشكل ده ؟ بس الأول يكون له رصيد . وبس نوصل . موش شايفة حاجة فى البحر ؟ غير الضلمة مافيش . وحتت تانية طالعة فيها الشمس . تيجى اسمى بنتى شمس ؟ موش سخنة شوية ؟ البنت شمس والواد تعرف إيه ؟ إيه ؟ أسميه بحر . إشمعنى بحر ؟ موش اتقابلت معاك فى البحر ؟ حصل . وموش هو اتخلق فى جزيرة ؟ فعلا . وكان مركبنا غرقت فى البحر ؟ معقول . ها ها . بتضحكى ليه ؟ تصور ان قاع البحر دلوقت فيه كل الحاجات اللى كانت فى المركب؟

كرامي مدهب وترابيزات . أي والله . ودواليب مبلولة وتسريحات. ممكلة ف درج التسريحة . وقرموط فى الشيفونير . وابو جلمبو لابس بيجامة . وأخطبوط لا بس فستان . وعلب روج وقزايز بارفان . قلتي شانيل ؟ آربيج ، وكتب بايشة ودوسيهات . وبانيوهات وسيفونات . الله يقرفك ، وغوايش وبروشات . ولا تلسكوب القبطان . وإيه كمان ؟ تمايم دهب وصلبان. وعقود لولى ومرجان.وسبح كهرمان ، وزراير جبة وقفطان . إحنا ح نشعر ولا إيه ؟ ليه لأ ، ولا مخلفات الحرب . بوارج وغواصات . وطرادات ونسافات . وليه نسيت الطيارات ؟ والقاذفات والنفاثات . ولا حروب زمان . خوذ لميع نحاس . وسهام واقواس . ورماح ودروع . وسيوف وبتوع ، والنبي لعبة حلوة ! وخنجر بتاع راجل قرصان . وإيه كان ؟ مفاتيح واقفال ، وترابيس أشكال. موش لاقية حاجةتتقال . وحزام عفة من عصر الفرسان . هاها ، والنبي لاسميه بحر . وخزن حديد فيها وثائق سرية . طب قول رسائل غرامية . وإيه الفرق ؟ على رأيك . وتاج دهب كان فوق دماغ سلطان . طب انت عارف انا نفسى ف إيه ؟ إيه ؟ نفسى التي خاتم سليمان . لو لقيتيه تطلبى إيه ؟ أطلب أطلب أطلب حزر أطلب إيه ؟ إيه؟ أطلب العفريت واقول له عارف إيه ؟ هيه ؟ أقول له يسحرنى ويعملنى عارف إيه ؟ ؟ إيه ؟ يعملنى نسمة هوا. بالألف ولا اليه ؟ مانفسكش

تبق نسمة ؟ ما عنديش مانع ، حد يكره الطيران ؟ أنا وانت وتوتو نسمة واحدة . دى تبق زوبعة . نطير لفوق فى العلالى ، لفوق . أى والله ، ندوى فوق فوهة بركان . ولما نزهق م العلالى ؟ ننزل نصفر فى الوديان . ولا الجناين والغيطان . من غيط قمح أصفر لبستان. نلاعب السنابل . ونشم زهر البرتقان . يرقص علينا الفراش ، وترفرف العصافير . ويا الحدادى والغربان . نميل فروع الشجر . ونردد صدى الألحان . فردى وباخ وموزار . وليه نسيتى شوبان ؟ ننفخ قلوع المراكب . ونزغزغ الربان . تيجى نغرق مركب ؟ إذا كانت مركب قرصان . ونروح فى كل مكان . لاسور يحوشنا ولا قضبان . وإيه كمان ؟ نلعب ضرورى ف شعر البنات . ونطير الباروكات والله فكرة ، ونطير ديل الفستان . ونطرى ع الحران . ونفوق السكران . والتعبان . والهيمان . والغفلان . والزهقان . والحرمان . والعدمان. والصدمان . هاها ، بس يا احمد احسن دخت . أحب الدوخان . أحمد . قوليها تانى . أحمد ، رق صوتها وما أحلاه حين رق ، أحمد . إيه ياروحى ؟ بتحبنى أد مابحبك ؟ ياسلام يازازا ، موش عارفة انك روحى ؟ صحيح ؟ طبعاً ، اللهم تكونى انتى بتحبينى . وانت عندك شك ياعنية ؟ جد بتحبينى ؟ قوى والنبى . الحمد لله انك موش فرسة النبى . ليه ؟ كنتى كلتينى . هى فرسة النبى بتا كل جوزها ؟ بعد ما يستنفد أغراضه . موش معقول !

قصدى أغراضها . طب انا فرسة . وشعر زازا تهدل على وجهى وهى تتظاهر بأنها تأكلنى فى حين أنها — كما تلاحظ — تقبلنى . زازى الحلوة تقبلنى ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . ثم رفعت رأسها عن شهاب سرى فى السماء بسرعة ، توهج لحظة ثم خبا . ياترى الشهاب ده معاه ساعة ؟ شهاب ؟ آه ، لومعاه ساعة كان قال انه عاش مليون سنة . أحمد ، ده وقت تخريف ؟ وانحنت من جديد فقبلتنى ، ونشوة عجيبة غمرتنى ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . المركب تمايل فكأنى فى أرجوحة ، ووشوشة الماء حولى أغنية من أغانى المهد . الماضى والحاضر والمستقبل فى لحظة ، كاللحظة التى عاشها ذلك الشهاب ، فلو أن — أحمد . إيه ياروحى ؟ أحمد ! إيه يازازا ؟ إلحق ياأحمد ! ألحق إيه ؟ أنا يظهرح اولد ! إيه ؟ ! ح اولد ياأحمد ، ح اولد! يانهار اسود ! إسود فى عينك ، ح اولد ! مش معقول ! والنبى ح اولد ! زازا ! أحمد ! زازا ، إعقلى يابنتى ، ده وقت حد يولد فيه ؟!



محمد عفيفي

هـذا الكتـاب

● **هذه** أول رواية فكاهيـة طويلة للمؤلف الذى تخصص فى كتابة المقال الفكاهى منذ سنوات ٠

● **وهى** أول رواية فـكاهية كاملة تكتب باللغـة العربية ٠

● **انها** فكاهية ولكنها لا تستهدف مجرد الاضحاك ، بل تحاول تطويع الفكاهة لنقل فكرة جادة ٠

● **يلعب** فيهـــا الخيال دورا كبيرا ، لكنه لا يرمى بدوره الى التسلية أو التهويل وانما الى خدمة الفكرة ٠

● **لغتها** عربية فصحى ، وحوارها بالعامية المصرية، وأسلوبها عموما هو ذلك الأسلوب الجـــذاب الذى ينفرد به المؤلف ويعرفه به قراؤه ٠



دار القلم

١٩٦٦